Her&



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية التربية بمكة المكرمة

قسم التربية الإسلامية والمقارنة

المضامين التربوية المستنبطة من أحداث فتح مكة المكرمة وتطبيقاتها

بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة

إعداد

الطالب/ ضيف الله بن علي سعيد الزهراني

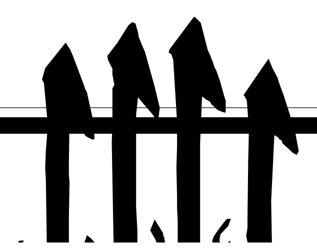
الرقم الجامعي: ٤٢٥٨٠٢٤١

إشراف

الدكتور/ عمر حسين عبدالغفور عطار

الدكتور/ نجم الدين عبدالغفور الأنديجاني

الفصل الدراسي الأول للعام ١٤٢٩ - ١٤٣٠هـ



إهداء

- إلىٰ والدي الكريم رحمه الله، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه الله عني خير الجزاء.
- وإلىٰ والدتي الغالية أمد الله في عمرها علىٰ طاعته، ورزقها حسن العمل وحسن الخاتمة، فقد كان لدعائهما وتشجيعهما آثاراً طيبة مباركة علىٰ هذا العمل بعد توفيق الله تعالىٰ.
- وإلىٰ زوجتي العزيزة أم أحمد، التي بذلت وقتها وجهدها في سبيل متابعة وتربية أبنائي أثناء غيابي عنهم فترة الدراسة، وكانت صابرة محتسبة رغم معاناتها المستمرة مع المرض، أسأل الله أن يُعَجِل بشفائها، ويجمع لها بين الأجر والعافية، ويجعل أجر صبرها جنات النعيم.
- وإلىٰ زوجتي أم باسم التي بذلت أيضاً من وقتها وجهدها وأعانتني في هذا العمل، فجزاها الله عني خيراً وبارك في عمرها وجعله في طاعته.
- إلىٰ أبنائي أحمد، وإخوانه وأخواته وفقهم الله لكل خير، وجعلهم مباركين أينما كانوا.
- إلىٰ أخواني وأخواتي وجميع أفراد أسرهم، وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.
- إلىٰ كل من أسدىٰ إليّ نصحاً أو مشورة، أو قدّم لي دعماً، أو كان صاحبَ فضلٍ عليّ بأي وجه من الوجوه.

أهدي إليهم جميعاً هذا العمل سائلاً الله لهم الأجر والمثوبة.

شكر وتقدير

الحمد لله المنعم المتفضل القائل في كتابه العزيز: (ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ) [سورة إبراهيم: ٧].

والصلاة والسلام علىٰ من بعثه الله رحمة للعالمين، وحجة علىٰ الخلائق أجمعين، القائل: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» (البخاري، ١٤٠٩هـ، حديث رقم ٢١٨، ص٥٣).

وعملاً بهذا التوجيه الكريم، فإن الباحث يتقدم بالشكر الجزيل لكل من أمده وأعانه بنصح أو إرشاد أو مشورة علمية،أو بذل معه جهداً أو وقتاً، أو ساهم في إنجاز هذا العمل بأي شكل من الأشكال، وأخص بالشكر والعرفان سعادة الدكتور/ **عمر حسين عبدالغفور عطار**، الذي أشرف علىٰ هذه الدراسة حتىٰ شارفت علىٰ الانتهاء، ثم حال المرض دون إتمامه الإشراف عليها، أسأل الله الكريم أن يجمع له بين الأجر والعافية، وأن يجعل كل ما يصيبه في ميزان حسناته، وأن يجزل له المثوبة والأجر علىٰ كل جهدٍ بذله مع الباحث في هذا العمل، فقد كان له اهتمامٌ كبير بهذا الموضوع، وتحمس له كثيراً، لمس الباحث ذلك من خلال متابعته وتوجيهاته وملاحظاته.

وسعادة الدكتور/ **نجم الدين عبدالغفور الأنديجاني**، رئيس قسم التربية الإسلامية والمقارنة، الذي تفضل بقبول متابعة إتمام هذا العمل وحضور جلسة المناقشة، فله من الباحث الشكر والتقدير، وخالص الدعاء بالتوفيق والسداد.

وسعادة الدكتور/ **علي بن مصلح المطرفي**، الذي تفضل بمناقشة خطة هذه الدراسة، وتعديلها وإقرارها في صيغتها النهائية.

والشكر موصول لسعادة الأستاذ الدكتور/ **السعيد محمود السعيد عثمان**، لتفضله بمناقشة خطة الدراسة وتعديلها وإقرارها في صيغتها النهائية وقبوله مناقشة الدراسة بعد إتمامها.

ولسعادة أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور/ **محمد جميل بن علي خياط**، لقبوله مناقشة هذه الدراسة، ولجميع الأساتذة الفضلاء بقسم التربية الإسلامية والمقارنة بجامعة أم القرى.

أسأل الله أن يعظم للجميع الأجر والمثوبة، ويجعل كل جهد قدموه أو يقدمونه للعلم وطلابه في ميزان حسناتهم.

ملخص الدراسة

عنوان الدراسة: المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة المكرمة وتطبيقاتها التربوية.

إعداد الباحث: ضيف الله علي سعيد الزهراني.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى دراسة وتحليل أحداث فتح مكة المكرمة، لاستنباط المضامين التربوية العقدية والأخلاقية والاجتماعية والإدارية من تلك الأحداث، ثم إيراد تطبيقات تربوية في عدد من تلك المضامين تبين دور كل من الأسرة والمدرسة في تربية الناشئة عليها.

وقد استخدم الباحث في دراسته المنهج التاريخي والمنهج الاستنباطي. وتتكون هذه الدراسة من فصل تمهيدي وثلاثة فصول رئيسية.

الفصل التمهيدي: واشتمل على المقدمة وموضوع الدراسة، وأهميتها، وتساؤلاتها، وأهدافها، والمناهج المستخدمة فيها، ومصطلحاتها، والدراسات السابقة.

الفصل الأول: فتح مكة المكرمة (تاريخه، أسبابه، أحداثه، أبرز نتائجه).

الفصل الثاني: المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة المكرمة.

الفصل الثالث: تطبيقات تربوية في بعض المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة المكرمة.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

١- كان لهذا الفتح المبارك آثارٌ إيجابية على الإسلام في الجوانب الدينية، والدعوية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية.

٢- اشتملت أحداث الفتح على مضامين تربوية في الجانب العقدي منها: التوحيد، والولاء البراء.

٣- كما اشتملت على مضامين تربوية في الجانب الأخلاقي: منها: الصدق، والتواضع، والوفاء بالعهد، والعفو.

٤- وفي الجانب الاجتماعي مثل: حفظ الضرورات الخمس: (الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال) والمساواة.

٥- وفي الجانب الإداري تمثلت في العمليات الإدارية الأساسية: (التخطيط، والتنظيم، والتوجيه، والرقابة).

٦- يمكن أن تفيد الأسرة والمدرسة من المضامين التربوية التي اشتملت عليها أحداث عزوة الفتح.

ومن أبرز المقترحات:

١- العودة إلى الكتاب والسنة والسيرة، والإفادة منها في تربية الأمة.

٢- دراسة السيرة دراسة تفصيلية تحليلية، تظهر ما تضمنته من مبادئ وقيم وأساليب تربوية للإفادة من ذلك كله في مجالات التربية المختلفة.

٣- الاستفادة من التقنية الحديثة في عرض دين الإسلام، وسيرة نبيه صلى الله عليه وسلم، بصفائها ونقائها، بقصد الدعوة إلى الإسلام، ورد الشبهات والأباطيل التي تثار حوله.

٤- إجراء دراسات ميدانية تبحث في مدى تطبيق كل من الأسرة والمدرسة للمضامين التربوية المستنبطة من السيرة عموماً، وفتح مكة المكرمة خصوصاً.

Abstract

The title : The Educational Implications Elicited From Opening Makkah Al-Mukarramah and their Applications in the Field of Education.

The research aims to study and analyze the events of opening Makkah Al-Mukarramah to deduce the educational, doctrinal, moral, social and administrative implications . Then, importing educational implementations to show the role of the family and the school in bringing up the children according to them.

The researcher used the descriptive and the historical methods in his study. It consists of an introductory chapter and three main chapters.

The Introductory Chapter: it includes an introduction, the topic of the study and its importance, questions, aims, used methods, items and previous studies.

The First Chapter: Opening Makkah Al-Mukarramah (its date, causes, events and major results)

The Second Chapter: The educational implications deduced from opening Makkah Al-Mukarramah.

The Third Chapter: The educational implementations in some of the educational implications deduced from opening Makkah Al-Mukarramah.

The most important results I found:

1- The blessed effects of this breakthrough on the positive aspects of Islam in the religious, advocacy, political, military, and economic development
2- The opening events included the contents of the educational side of the nodal including :standardization, Disavowal loyalty.
3- also included the contents of education in the ethical aspect: such as: honesty, humility, and the fulfillment of the Covenant, and forgiveness.
4- In the social aspect such as: the conservation of the five necessities: (religion, psychology, and mind, and birth control, and money) and equity.
5- On the administrative side was the basic administrative processes: (planning, organization, direction ،and control).
6- Could be useful to the family and the school of educational content, which included the events attributable opening.

The Most Important propositions:

1- Resorting to the holy Quraan (Al-Ketab), Sunnah and Seerah to bring up the generations.
2- The detailed and analytic study of Seerah reveals its educational principles, values and techniques to help in the different fields of education.
3- Making good use of the modern technology to present the Islamic religion, the biography of the prophet (Seerah) to spread Islam and reply to doubts and lies.
4- Making civil studies about how the family and the school apply these educational implications from Seerah in general and the conquest of Makkah Al-Mukarramah in particular.

قائمـــة المحتويات

الموضـــــوع رقم الصفحة

الفصل الثاني

المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة المكرمة

الفصل الثالث

تطبيقات تربوية في بعض المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة المكرمة

الفصل الرابع

خاتمة الدراسة ونتائجها ومقترحاتها

الفصل التمهيدي

الإطار العام للدراسة

- المقدمـــــــــــــــــــــــة.
- موضـــــــوع الدراســــــة.
- أهميـــــــة الدراســــــة.
- تســــــاؤلات الدراســــــة.
- أهــــــداف الدراســــــة.
- مـــــــنهج الدراســــــة.
- حـــــــدود الدراســــــة.
- مصـــــطلحات الدراســــة.
- الدراســــــات الســــــابقة.

Her&

المقدمـــــــــــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ من أرسله الله علىٰ حين فترة من الرسل ليكون للعالمين نذيراً، قال تعالىٰ: (ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ) [سورة الأحزاب: ٤٥ – ٤٧].

وأمره الله بإبلاغ دينه للناس في قوله تعالىٰ: (ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ) [سورة المدثر: ١-٥]، عند ذلك باشر النبي ﷺ أمر الدعوة، أقام علىٰ ذلك ثلاث سنين يدعو إلىٰ الله مستخفياً، حتىٰ نزل عليه قوله تعالىٰ: (ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ) [سورة الحجر: ٩٤].

قال ابن إسحاق: «ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتىٰ فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحُدِّث به، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يُبَادِيَ الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفىٰ رسول الله ﷺ واستتر به إلىٰ أن أمره الله تعالىٰ بإظهار دينه ثلاث سنين – فيما بلغني – من مبعثه، ثم قال الله تعالىٰ له: (ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ) [الحجر: ٩٤]، وقال تعالىٰ: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ) [سورة الشعراء: ٢١٤ – ٢١٥]. (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج١، ص١٧١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت (ﭽ ﭾ ﭿ) صَعِد النبي ﷺ علىٰ الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي – لبطون من قريش – حتىٰ اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزلت: (ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ) [سورة المسد: ١-٢]» (البخاري، ١٤٢٥هـ، برقم ٤٧٧٠، ص٦٧٠).

(والمقصود أن رسول الله ﷺ استمر يدعو إلىٰ الله تعالىٰ ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم، ومحافلهم، وفي المواسم، ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك عنده شرع سواء) (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٢، ص٦٩).

خلال هذه الفترة والتي استمرت ثلاثة عشر عاماً لقي الرسول ﷺ وأصحابه من صنوف الأذىٰ والعذاب ما عبر عنه ابن عباس – رضي الله عنهما – حينما سأله سعيد بن جبير قال: «قلت لعبدالله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتىٰ ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتىٰ يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتىٰ يقولوا له: اللات والعزىٰ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتىٰ إن الجعل ليمر بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم،

افتداءً منهم مما يبلغون من جهده» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج١، ص٢٠٣).
ومن ذلك ما كان يتعرض له بلال بن رباح – رضي الله عنه – وكان مولى لبعض بني جُمَح «وكان أمية بن خلف بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد » (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج١، ص٢٠٢). وظل على ذلك الحال «حتى مرّ به أبو بكر الصديق بن أبي قحافة –رضي الله عنه- يوماً، وهو يصنعون ذلك به... فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت، فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه » (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج١، ص٢٠٢).
ومن ذلك ما كان يلاقيه آل ياسر – رضي الله عنهم - «وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وأبيه وأمه، وكانوا هل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فيقول، فيما بلغني: «صبراً آل يسار، موعدكم الجنة »، فأما أمه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام » (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج١، ص٢٠٣).
في هذه المرحلة كان النبي يربي المؤمنين به تربية خاصة قائمة علىٰ ما يتنزل عليه من الوحي، يُعِدُّهم ليكونوا قادة المجتمع البشري، وصناع التاريخ الإسلامي، وحاملي لواء الإسلام، والمبلغين عن الله وعن رسوله ، لذلك ما كانت تزيدهم المحن والشدائد التي يتعرضون لها، والأذىٰ والنكال الذي يحل بهم، إلا صلابة في الحق، وثباتاً علىٰ المبدأ، واستعداداً للتضحية في سبيل الله.
في ظل هذه الظروف البالغة السوء أذن الله لنبيه بالهجرة إلىٰ المدينة المنورة، والتي سبقه إليها رسوله مصعب بن عمير – رضي الله عنه – داعياً إلىٰ الله، فآمنت به الأوس والخزرج، وأصبحت المدينة مهيأة لاستقبال الرسول وبناء دولة الإسلام.
استفاد الرسول من هذا الوضع في الدعوة إلىٰ الله فآمن به من آمن من العرب، وبقي آخرون يترقبون ما تسفر عنه الأيام والأحداث بين محمد عليه السلام وقريش، وخصوصاً أن الله تعالىٰ قد أذن لنبيه في القتال، فكانت بينه وبين مشركي قريش وقائع وأحداث، كان أولها في بدر حين أذل الله الشرك وأهله، ثم أحد، ثم الأحزاب، ثم الفتح الأعظم (فتح مكة) وكان رسول الله يستغل كل حدث استغلالاً أمثل لتربية أصحابه تربية صحيحة سوية متوازنة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.
لذا فإن دراسة سيرته من أجل وأعظم وأفضل الأعمال حيث: «أن سيرته أكمل السير كما كانت أجملها، وهي مؤسسة علىٰ نصوص قرآنية، ووثائق تاريخية، ودقائق في الخَلق والخُلق، وتفاصيل في العادات والعبادات، والأخلاق والمعاملات، لا يُتَصوَّر فوق ذلك، وهي أقرب إلىٰ الحقيقة والواقع، قرباً لا يُتَصوَّر فوقه، ولا يُطْمعُ في أكثر منه، بعد أن مضىٰ علىٰ هذه الحياة الطيبة الكريمة مدة طويلة». (الندوي، ١٤٢٥هـ، ص١٥ – ١٦).

كما وأن دراسة سيرته ﷺ تحقق أهدافاً عظيمة منها: «أن يكون لدىٰ المعلم والداعية الإسلامي نموذج حيٌّ عن طرائق التربية والتعليم، فلقد كان محمدٌ عليه الصلاة والسلام معلماً ناصحاً ومربياً فاضلاً لم يأل جهداً في تلمس أجدىٰ الطرق الصالحة إلىٰ كل من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته». (البوطي، ١٤١١هـ، ص١٨).

لذا فإنه لابد من توجيه الدارسين في مجال التربية إلىٰ دراسة سيرته ﷺ واستخلاص ما تحويه من مبادئ وقيم ومضامين وأساليب تربوية يفيد منها أبناء الأمة كافة، حيث أن سيرته منهج تربوي متكامل يعجز كل أحد عن تصويره تصويراً كاملاً ودقيقاً.

يقول الندوي ١٤٢٥هـ: «ولابد من الاعتراف بأن تصوير حياته وأخلاقه، واستيعاب المعجزات التي اشتملت عليها سيرته ودعوته وحياته الانفرادية والاجتماعية، ومعاملته مع الله ومع الخلق، وآيات الحسن والإحسان في تكوين خَلْقه وخُلُقه، وفي حبه ورأفته، وفي دعائه وابتهاله، وفي تألمه للإنسانية ومصيرها، وفي منطقه وحكمته، وفي جامعيته وكماله، يكاد يكون مستحيلاً». (ص١٦).

وإذا كانت حياته ﷺ مع أصحابه كلها مواقف تربوية، فإن غزواته اشتملت علىٰ أعظم تلك المواقف؛ لأنه ارتبط فيها القول بالفعل، والتوجيه بالحدث، وهنا يكون الأثر أكبر والنفع أعم.

وإن من أعظم غزواته عليه السلام غزوة فتح مكة التي قضت علىٰ أكبر معقل للشرك في جزيرة العرب، ومهدت لانتشار الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجاً. لذا فقد رأىٰ الباحث أن تكون هذه الغزوة هي مجال دراسته التي عنون لها بـ: «المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة وتطبيقاتها التربوية في كل من الأسرة والمدرسة» محاولاً تقصي أحداث ووقائع ذلك الفتح العظيم واستنباط مضامينها التربوية، مع إعطاء تصور لكيفية تطبيقها في الأسرة والمدرسة، راجياً من الله العون والتوفيق.

موضـــــوع الدراسة:

تعاني الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر من أزمات كثيرة، وانهزامات نفسية، وضعف وهوان وتأخر، وهي حيال ذلك تبحث عن حلول لأزماتها ومشكلاتها محاولة الخروج من واقعها المرير، فنراها تارة تتجه إلىٰ الشرق وأخرىٰ إلىٰ الغرب للاستفادة من نظرياتهم وخبراتهم وتجاربهم في الحياة، مع أن تلك النظريات والخبرات والتجارب، ظهرت وطُبقت في مجتمعات تختلف عن مجتمعنا الإسلامي في العادات و التقاليد والقيم والثقافة والأهداف ... لذلك فإن ما تستقيه الأمة من تلك التربيات لن يؤتي ثماره المرجوة، ولن يحقق لها ما تصبو إليه من عز وتمكين وسيادة ونصر، بل الذي سيحقق لها ذلك هو العودة إلىٰ المنهج الرباني الذي رسمه الله عز وجل لها في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ وسيرته، «لقد تضمنت سيرته ﷺ ما يحتاج إليه الإنسان في دار

معاده ومعاشه، كما تضمنت من الفوائد والدروس والعظات ما تغني عن أسفار الكتب، وإنها لتعطي كل جيل ما يحتاجه من الهدي المبارك، الذي ينير طريقه ومسيرته العلمية والدعوية والتربوية، والأسرية والاجتماعية، وفي آدابه الخاصة وأخلاقه العامة، وفي مهنته ومدرسته، وفي محيط أصدقائه، ومع زوجته وأبنائه» (الحازمي، ١٤٢٧هـ، ص٥).

وإذا كانت سيرته عليه السلام علىٰ عمومها بهذه المثابة والمنزلة، فإن غزواته من أهم الأجزاء في سيرته المباركة، حيث ارتبط فيها قوله بفعله، وحزمه بلينه وحلمه، ونصره وتمكينه بعفوه وتسامحه وشفقته ورحمته.

وإن فتح مكة أعظم حدث في سيرته إنه الفتح الأعظم «الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدىٰ للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه علىٰ مناكب الجوزاء، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً، خرج له رسول الله بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان» (ابن القيم، ١٤٠٦هـ، ج٣، ص٣٩٤).

في ذلك الفتح العظيم حصلت أحداث ومواقف اشتملت علىٰ مضامين تربوية هامة جديرة بالدراسة والبحث، منها: الوفاء بالعهد ، والولاء والبراء، والصدق، والوفاء بالعهد، والعفو عند المقدرة، والرقابة، والمساواة، وغيرها مما سيرد بإذن الله تعالى عند الحديث عن المضامين التربوية في هذه الدراسة.

أهميــــــة الدراسة:

١- تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تدرس جانباً من حياة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، القدوة والمثل الأعلىٰ للأمة في سائر شؤون حياتها، كما وأنها تأتي في زمن تطاول فيه أعداء الإسلام علىٰ شخصه الكريم ووصفوه بالإرهاب، والعدوانية، وحب القتل، وغيرها من الأوصاف التي هو منها براء، وتعامله مع ألد أعدائه في هذه الغزوة العظيمة يبين خلاف ذلك، حيث يبين حسن خلقه، وتواضعه، وحبه الخير للناس، وحرصه علىٰ ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.
٢- إنها محاولة لإبراز ما تضمنه فتح مكة من مضامين تربوية هامة، تفيد المسلم في حياته الخاصة والعامة، وهي بذلك تبرز شيئاً مما تتميز به التربية الإسلامية في الجانب التربوي.
٣- أنه لم يسبق دراسة فتح مكة من حيث ما اشتمل عليه من مضامين تربوية علىٰ حد علم الباحث، وإن كانت هناك محاولات من خلال بعض كتب فقه السيرة، إلا أن ذلك كان ضمن سيرة الرسول ، وكان موجزاً، ولم تفرد هذه الغزوة بدراسة مستقلة في هذا الجانب.
٤- يأمل الباحث في أن تفيد من هذه الدراسة المؤسسات التربوية في المجتمع المسلم.

٥- تفتح المجال لمزيد من الدراسة في سيرة المصطفىٰ ﷺ؛ لأن سيرته تمثل التطبيق العملي الحي للقرآن الكريم، فالقرآن مبادئ سامية، ومنهج حياة كامل، والسيرة النبوية تطبيق عملي لذلك كله. لذا فهي جديرة بالدراسة والبحث.

أسئلة الدراسة:

السؤال الرئيس:

ما المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة؟ وما تطبيقاتها التربوية ؟

والإجابة علىٰ هذا السؤال تستلزم الإجابة علىٰ الأسئلة الفرعية التالية:

س١: ما المضامين التربوية العقدية المستنبطة من فتح مكة؟

س٢: ما المضامين التربوية الأخلاقية المستنبطة من فتح مكة؟

س٣: ما المضامين التربوية الاجتماعية المستنبطة من فتح مكة؟

س٤: ما المضامين التربوية الإدارية المستنبطة من فتح مكة؟

س٥: كيف يمكن تطبيق بعض المضامين التربوية المستنبطة من غزوة فتح مكة المكرمة في كل من الأسرة والمدرسة؟

أهـــــداف الدراسة:

تسعىٰ هذه الدراسة لتحقيق الأهداف التالية:

١- استنباط المضامين التربوية العقدية من أحداث ووقائع فتح مكة.
٢- استنباط المضامين التربوية الأخلاقية من أحداث ووقائع فتح مكة.
٣- استنباط المضامين التربوية الاجتماعية من أحداث ووقائع فتح مكة.
٤- استنباط المضامين التربوية الإدارية من أحداث ووقائع فتح مكة.
٥- إبراز نماذج تطبيقية لبعض المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة.

منهــــج الدراسة:

استخدم الباحث في هذه الدراسة:

أولاً: المنهج التاريخي: «وهذا المنهج يصف ويسجل ما مضىٰ من وقائع وأحداث الماضي ولا يقف عند مجرد الوصف، وإنما يدرس هذه الوقائع والأحداث، ويحللها، ويفسرها علىٰ أسس منهجية علمية دقيقة، بقصد التوصل إلىٰ حقائق وتعميمات لا تساعدنا علىٰ فهم الماضي فحسب، وإنما تساعد أيضاً في فهم الحاضر بل والتنبؤ بالمستقبل» (جابر وكاظم، ١٩٧٨م، ص١٠٤).

واستخدم الباحث هذا المنهج من خلال ما صح من سنة النبي ، ومن خلال بعض كتب السيرة، كسيرة ابن هشام، البداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الطبري، ومغازي الواقدي، وغيرها مما أُلِف حول فتح مكة؛ لجمع المواقف والأحداث، والوقائع التي حدثت خلال هذه الغزوة واشتملت علىٰ مضامين تربوية، أفاد منها المجتمع في عصر النبوة، ويفيد منها مجتمعنا في وقتنا الحاضر.

ثانياً: المنهج الاستنباطي:

يعرف بأنه: «الطريقة التي يقوم فيها الباحث ببذل أقصىٰ جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص، بهدف استخراج مبادئ تربوية مدعمة بالأدلة الواضحة» (فودة وعبدالرحمن، ١٤١٢هـ، ص٤٢).

وقد استخدمه الباحث لاستنباط المضامين التربوية التي حوتها غزوة فتح مكة، بعد جمع المواقف والوقائع والنصوص الواردة في ذلك ودراستها وتحليلها وتفسيرها، ثم بناء تصور لكيفية الاستفادة من تلك المضامين.

حــــدود الدراسة:

للدراسة حدود موضوعية تتمثل في استنباط المضامين التربوية في الجوانب العقدية والأخلاقية والاجتماعية والإدارية التي اشتملت عليها أحداث فتح مكة، ثم بيان كيفية تطبيق بعضها في كل من الأسرة والمدرسة.

مصطلحات الدراسة:

من مصطلحات الدراسة التي تحتاج إلىٰ بيان معانيها وتوضيحها ما يلي:

١ـ المضامين:

المضمون هو: «المحتوىٰ، ومنه مضمون الكتاب: ما في طَيِّهِ، ومضمون الكلام: فحواه وما يفهم منه، والجمع مضامين» (أنيس وآخرون "د . ت" ج١، ص٥٤٥).

والمضامين: ما في بطون الحوامل من كل شيء كأنهن تضمنه، ... ومنه مضمون الكتاب كذا وكذا ... وفهمت ما تضمنه كتابك أي ما اشتمل عليه وكان في ضمنه، وأنفذته ضمن كتابي أو في طيه» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٣، ص٢٥٨، ٢٦١).

التعريف الإجرائي للمضامين التربوية حسب ما يراه الباحث: كل القيم والأنماط السلوكية والممارسات العملية، التي تهدف إلىٰ تنشئة وتربية الأجيال تربية صحيحة، تتحقق من خلالها الأهداف التربوية التي يرغب المجتمع في تحقيقها.

٢ـ التطبيقات التربوية:

التطبيق لغة: «إصابة المفصل ...، وطبَّق فلان إذا أصاب فصَّ الحديث، والمطبِّقُ من الرجال: الذي يصيب الأمور برأيه ...» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٠، ص٢١٣).

واصطلاحاً: «إخضاع المسائل والقضايا لقاعدة علمية قانونية أو نحوها» (أنيس وآخرون، «د. ت» ج٢، ص٥٥٠).

التعريف الإجرائي للتطبيقات التربوية من وجهة نظر الباحث:

التطبيقات التربوية هي: كل ما نقوم به من خطوات إجرائية تهدف إلىٰ مساعدة النشء علىٰ تطبيق المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة، لتكون سلوكيات ممارسة في حياتهم.

الدراســـات الســـابقة:

من خلال البحث والتقصي حول هذه الغزوة (غزوة فتح مكة) لم يجد الباحث من تطرق لها من ناحية تربوية في دراسة مستقلة، وإنما كانت هناك دراسات تناولتها من ناحية شرعية إما مستقلة وإما مع غزوات أخرىٰ ومن تلك الدراسات:

أولاً: دراسة بعنوان (فتح مكة وآثاره التشريعية في الفقه الإسلامي) للباحث محمد ناصر الجعوان، قدمت هذه الدراسة لقسم الفقه، كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عام ١٤٠٧هـ، للحصول علىٰ درجة الدكتوراه.

أهداف الدراسة:

١- أن تكون مكملة لبحثه الذي تقدم به لنيل درجة الماجستير، وكان عنوانه (القتال في الإسلام، أحكامه وتشريعاته)، فأراد الباحث أن يتصل بحثه في الماجستير بهذه الدراسة والتي عنوان لها بـ (الآثار التشريعية في فتح مكة) رغبة منه في تقديم المزيد من الفائدة له ولمن يعمل معه في المجال العسكري.
٢- والهدف الأهم في هذه الدراسة هو تتبع أحداث فتح مكة المكرمة ووقائعه،

ودراستها، وتحليلها، واستنباط التشريعات والأحكام التي تضمنها هذا الفتح العظيم، حيث تضمن الكثير منها، إضافة إلىٰ ما في الغزوة من دروس عسكرية يستفاد منها في الجانب العسكري.

منهج الدراسة:

اتبع الباحث في دراسته منهجين:

الأول: المنهج التاريخي؛ وذلك لبيان مراحل الدعوة الإسلامية، والأحوال الصعبة التي مرت بها، وثمار تلك الدعوة المباركة.

الثاني: المنهج الاستنباطي؛ وذلك لاستنباط ما في الغزوة من تشريعات وأحكام، بعد تتبع أحداثها ووقائعها، ودراستها، وتحليلها، والرجوع إلىٰ ما ذكره العلماء فيها.

من نتائج الدراسة:

توصل الباحث إلىٰ عدد كبير من النتائج ضمنها خاتمة بحثه منها:

١- أن القتال في الإسلام له ضوابط وقيود، يبدأ منها، ويقف عندها، وأهم قيوده أنه في سبيل الله.

٢- عوامل النصر في الإسلام تتوقف علىٰ مدىٰ ارتباط المقاتلين بالله تعالىٰ، وليست العبرة بكثرة عدد ولا عدة.

٣- المعاهدات في الإسلام جائزة، وقد تجب في بعض الأحوال، ويتولىٰ عقدها وإمضاءها ولي أمر المسلمين أو نائبه، ومدتها يجب أن تكون محدودة وغير مطلقة، كما يجوز نقضها من قبل المسلمين إذا اقتضت المصلحة ذلك.

٤- تحريم غزو مكة المكرمة والقتال فيها، إلا للحاجة، وفي حدود الأدلة الشرعية، كما أن أرضها لا تقسم ولا تؤخذ من أهلها لأن لها وصفاً خاصاً يمنع من قسمتها.

ثانياً: دراسة بعنوان (حديث القرآن عن غزوة بدر وأحد والحديبية وفتح مكة وحنين وتبوك) للباحث محمد بن بكر بن إبراهيم عابد، قُدِّمت هذه الدراسة لقسم التفسير، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عام ١٤٠٩هـ للحصول علىٰ درجة الدكتوراه. (وهي مطبوعة الآن في مجلدين مع غزوات الرسول ﷺ التي درسها الباحث في بحثه المقدم للحصول علىٰ درجة الماجستير).

أهداف الدراسة:

أورد الباحث عدداً من الأهداف وهي:

١- أن المسلمين في هذه الأيام يجابهون معارك متنوعة مع أعدائهم، ومن أهمها المعارك الحربية، فأراد الباحث أن يعود إلىٰ حديث القرآن عن الغزوات، لكي يأخذ منها المسلمون ما يعينهم علىٰ النصر علىٰ أعدائهم.

٢- رأىٰ الباحث أن هذا الموضوع لم يجد ما يستحق من الاهتمام، فأراد أن يخدم كتاب الله تعالىٰ عن طريق تفسير الآيات التي وردت بشأن هذه الغزوات.

٣- شعوره بالحاجة إلىٰ الكتابة في هذا الموضوع بعد أن وجد أن معظم الباحثين

يهتمون بالسرد التاريخي لهذه الغزوات أكثر من اهتمامهم بالحديث عنها من واقع القرآن الكريم، فأراد أن يعرض الموضوع من خلال حديث القرآن عنه.

منهج الدراسة:

سلك الباحث منهجاً من أبرز معالمه:

أ- جَمْع الأخبار الصحيحة لكل غزوة من كتب السيرة، وإفرادها ببحث مستقل من حيث أسبابها، وأحداثها، ونتائجها، معنوناً باسم غزوة كذا، من خلال كتب السيرة والتاريخ.

ب- قراءة الآيات النازلة في كل غزوة بعمق وتدبر وفهم، مع السعي لتفسيرها تفسيراً محرراً مشتملاً علىٰ الجوانب البلاغية والتشريعية في القرآن الكريم، مستعيناً بما سبقت قراءته من السيرة، ثم كتابته فصلاً مستقلاً (باسم حديث القرآن عن غزوة كذا، وتفسير الآيات الواردة فيها).

ج- إبراز أهم معالم المنهج القرآني في حديثه عن الغزوة في فصل مستقل.

نتائج الدراسة:

توصل الباحث إلىٰ نتائج تتعلق بكل غزوة من حيث منهج القرآن في عرضها، وستُذْكَرُ هنا النتائج المتعلقة بفتح مكة المكرمة؛ لارتباطها بموضوع الدراسة الحالية، وتلك النتائج هي:

١- سمىٰ القرآن الكريم انتصار المسلمين ودخول مكة في حكم المسلمين فتحاً فقال تعالىٰ: (ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ) [سورة النصر: ١]. وفي ذلك درس للأجيال المسلمة حتىٰ تعرف أهميته وقدره.

وهنا ميز القرآن فتح مكة فسماه نصراً وسماه فتحاً وقرن بينهما؛ لأن هناك فرقاً بينهما، فالنصر هو الإعانة علىٰ تحصيل المطلوب، بينما الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً.

٢- في قوله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ...) [سورة الممتحنة:١] تأكيد علىٰ أهمية أن يكون ولاء المسلم لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن يبرأ من المشركين.

٣- قوله تعالىٰ: (ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ) يدل علىٰ أن نصر الله يجيء به الله، كما يفيد التعظيم لهذا النصر.

٤- جعل القرآن الكريم فتح مكة مرحلة تمييز فمن آمن وأنفق وقاتل قبل فتح مكة لا يستوي مع من أنفق بعد الفتح وقاتل، قال تعالىٰ: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯼ ﯽ ﯾ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [سورة الحديد: ١٠]. وفي هذا التمييز ما يدل علىٰ أهمية فتح مكة وأنها مرحلة هامة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

٥- سورة النصر تسمىٰ سورة التوديع، ففتح مكة كان مقدمة لإكمال الدين وانتقال الرسول □ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، فبعد الفتح بشهور قليلة نزل قوله تعالىٰ: (ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ) [سورة المائدة: ٣]. وبعد نزول هذه الآية بفترة زمنية يسيرة انتقل النبي □ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ.

<u>ثالثاً:</u> دراسة بعنوان (فتح مكة) دراسة دعوية، للباحثة هند مصطفىٰ محمد شريفي، قدمت لقسم الدعوة والاحتساب، كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية بالرياض، عام ١٤٢٠هـ للحصول علىٰ درجة الماجستير.

أهداف الدراسة:

كان أهم هدف لهذه الدراسة دراسة وعرض وتحليل أحداث فتح مكة، لاستخلاص الدروس الدعوية واستنباط ما فيها من فقه الدعوة، والإسهام بذلك في مجال الدعوة إلىٰ الله، حيث لم تفرد هذه الغزوة بدراسة منفردة من منظور دعوي كما ذكرت الباحثة.

منهج الدراسة:

استخدمت الباحثة المنهج الاستردادي التاريخي، لجمع المعلومات والحقائق، ثم استنباط الدروس عن طريق التحليل والاستدلال.

من نتائج الدراسة:

توصلت الباحثة إلىٰ عدد من النتائج، أوردتها ضمن خاتمة البحث، ولم تفردها بمبحث مستقل ، ومنها:

١- أنه قد كان لفتح مكة آثاراً مباركة تمثلت في القضاء علىٰ الوثنية في مهدها، وتطهير قبلة المسلمين من معالم الشرك، وتثبيت قواعد الحكم الإسلامي بمكة، كما شكل مرحلة جديدة في سير الدعوة الإسلامية، ومرحلة فاصلة من مراحل الجهاد الإسلامي.

٢- اشتمال الغزوة علىٰ دروس في العقيدة والشريعة والأخلاق يمكن أن يفيد منها الداعية إلىٰ الله.

٣- استخدام النبي لوسائل دعوية قولية كالدعوة الفردية، والخطابة، والشعر، كالهجر والإكراه، والحرب والنفسية، كما استخدم أساليب دعوية كأسلوب القدوة، والإقناع، والتخطيط، والإيحاء، والكتمان، والحوار، والتربية مع التعليم ...

ومن التوصيات التي أوصت بها الدراسة:

١- علىٰ الدعاة الاستفادة من سيرة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، وسيرة صحابته الكرام، في كل مناحي الدعوة وأمورها.

٢- تجاوز مرحلة التنظير، وذلك بمحاولة إيجاد صيغ تطبيقية عملية معاصرة، كتبني مشاريع تدريبية عملية جماعية، يطبق فيها الدعاة ما درسوه من مناهج وأساليب ووسائل دعوية.

٣- العناية بالإعداد المتكامل للدعاة.

٤- العمل علىٰ تطوير وتجديد وسائل الدعوة وأساليبها، وفق إطار الشرع، ومن ذلك الاستفادة من التقدم التقني في الدعوة إلىٰ الله.

والفرق بين الدراسة الحالية، والدراسات السابقة، أن الدراسات السابقة بحثت في فتح مكة المكرمة من جوانب شرعية، فدراسة الجعوان كانت حول الآثار التشريعية لفتح مكة، استنبط فيها الكثير من الأحكام، والتشريعات التي تضمنها الغزوة، إضافة إلىٰ بعض الدروس العسكرية، بينما دراسة محمد بن بكر عابد كانت عن حديث القرآن عن غزوات الرسول ومن ضمنها غزوة الفتح، حيث كان يجمع الآيات الواردة في الغزوة ويقوم بتفسيرها، ليبين منهج القرآن في عرضه للغزوة، ودراسة هند مصطفى شريفي اهتمت بالجانب الدعوي في الغزوة، والدراسة الحالية تدرس هذه الغزوة من

ناحية تربوية، حيث تستنبط المضامين التربوية من الغزوة، وستفيد هذه الدراسة من الدراسات السابقة، حيث أنها في مجملها تحوي المضامين التربوية التي يريد الباحث جمعها في الدراسة الحالية بإذن الله تعالىٰ.

الفصل الأول

فتح مكة المكرمة: (تاريخه، أسبابه، أحداثه، أبرز نتائجه).

📖 المبحث الأول: تاريخ فتح مكة المكرمة وأسبابه.

📖 المبحث الثاني: أحداث فتح مكة المكرمة.

📖 المبحث الثالث: مدة بقاء النبي صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة زمن الفتح، وبعض الأحداث التي حصلت خلالها.

📖 المبحث الرابع: أبرز نتائج فتح مكة.

المبحث الأول

تاريخ فتح مكة المكرمة وأسبابه

تمهيـــــد:

الحمد لله الذي شاءت قدرته أن يُسْبَق فتح مكة المكرمة بأحداث أسهمت فيه إسهاماً كبيراً، بل عُدَّ بعضها الفتح بعينه، كصلح الحديبية، ومن تلك الأحداث:

١- **صلح الحديبية:**

وذلك أن الرسول أراد العمرة، وخرج إليها في أول ذي القعدة سنة ست من الهجرة، فخرجت قريش لمنعه من دخول مكة، وبعد مفاوضات بين رسول الله وقريش جرىٰ صلح الحديبية وكان من شروطه:

أ- وَضْع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض.

ب- من أتىٰ محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

ج- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

د- يرجع المسلمون عن مكة هذا العام، علىٰ أن يأتوا إذا كان عام قابل، فيدخلون مكة معهم سلاح الراكب السيوف في القرب، لا يدخلونها بغيرها (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص١٩٦).

وقد شق هذا الصلح علىٰ المسلمين، ودخل عليهم منه أمر عظيم، حتىٰ كادوا يهلكوا، ولكنهم انقادوا لأمر الله ورسوله وصبروا وعادوا من حيث أتوا. فأثابهم الله سكينة وطمأنينة ورضىٰ في قلوبهم حينما رضوا بحكمه وصبروا لأمره.

ثم قال الزهري مبيناً أهمية صلح الحديبية وأنه من أعظم الفتوح في الإسلام:«فما فُتح في الإسلام فتح مثله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقىٰ الناس، فلما كانت الهدنة ووُضعت الحرب، وأمِن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنَك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص١٩٩).

«والدليل علىٰ قول الزهري أن رسول الله خرج إلىٰ الحديبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبدالله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص١٩٩).

٢- **غزوة خيبر:**

خرج إليها رسول الله في المحرم من السنة السابعة للهجرة، حيث أقام بالمدينة حين رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرم، وَوَلِي تلك الحجة المشركون، ثم خرج في بقية المحرم إلىٰ خيبر. (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٠٢).

وفتح الله علىٰ رسوله خيبر، وغنم منها غنائم كثيرة لم يغنم مثلها قبل ذلك،

«وجعلها الله آية لعباده المؤمنين وعلامة علىٰ ما بعدها من الفتوح، فإن الله سبحانه وعد المؤمنين مغانم كثيرة، وفتوحاً عظيمة، فجعل لهم خيبر، وجعلها آية لما بعدها، وجزاء لصبرهم ورضاهم يوم الحديبية وشكراناً، ولهذا خص بغنائمها من شهد الحديبية» (ابن القيم، ١٤١٢هـ، ج٣، ص٣١٣).

ومما يدل علىٰ الأهمية الاقتصادية لفتح خيبر ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٤٢، ص٥٧٨).

وبعد هزيمة اليهود في خيبر، أصبح المسلمون آمنين من الناحية الجنوبية بصلح الحديبية، ومن الناحية الشمالية بالقضاء علىٰ سلطة اليهود.

٣- **عمرة القضاء**:

وقد كانت في السنة التالية لصلح الحديبية، قضاء عن العمرة التي لم يتمكن منها الرسول عام الحديبية.

«وكانت هذه العمرة من أهم آثار الاتفاق الذي تم بين المسلمين ومشركي مكة، فقد تمكن المسلمون من دخول مكة المكرمة آمنين، كما وعدهم الله عز وجل فطافوا بالبيت العتيق، وجاهروا بعقيدة التوحيد، وأظهروا قوة المسلمين، ومارسوا شعائرهم في حرية وأمان، ورأىٰ فيها المشركون قوة المسلمين، وشاهدوا التفافهم حول نبيهم، فاعتُقِد أنهم لن يسلموه أبداً، ولمسوا وحدة صفهم فتأكدوا أنهم جماعة متماسكة لا يسلم بعضهم بعضاً، يبر غنيهم فقيرهم، ويعين قويهم ضعيفهم، ويعطف صحيحهم علىٰ مريضهم، ورأوا رسولهم بينهم واحد منهم، عندئذ رأوا الحق الذي لا يغيب عن ذي لب» (الوكيل، ١٤٠٨هـ، ص٢٣٢).

وغادر المسلمون مكة المكرمة بعد ثلاثة أيام، وقد تركوا انطباعاً لا يُمحىٰ من نفوس أهلها، فقد أدرك العقلاء منهم أن رسول الله علىٰ الحق، وأن ما جاء به هو الحق، وأن دينه ظاهر لا محالة، فعليهم أن يستجيبوا له ويؤمنوا به ويتبعوه، لذلك فقد أسلم من قريش نفر من ذوي المكانة والجاه، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ... وغيرهم.

٤- **غزوة مؤتة**:

وكانت في جمادىٰ الأولىٰ من السنة الثامنة للهجرة، فعن عروة بن الزبير قال: «بعث رسول الله بعثه إلىٰ مؤتة في جمادىٰ الأولىٰ سنة ثمان» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٣١).

«وكان سببها أن رسول الله بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لَهْب بكتابه إلىٰ ملك الروم أو بُصرىٰ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه، ... فاشتد الأمر علىٰ رسول الله فبعث البعوث، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبدالله بن رواحة» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٦١، ص٥٧٩).

«فتجهز الناس وهم ثلاثة آلاف، ... ثم مضوا حتىٰ نزلوا معان، فبلغهم أن هرقل بالبلقاء في مائة ألف، وانضم إليهم مائة ألف من المستعربة من لخم وجذام وغيرهم، فأقام المسلمون علىٰ معان ليلتين ينظرون في أمرهم، فشجع الناس عبدالله بن رواحة، فمضوا حتىٰ إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم الجموع بقرية يقال لها: مشارف، فدنا العدو، وانحاز المسلمون إلىٰ مؤتة واقتتلوا، حتىٰ أصيبت القادة الثلاثة، فاتفق الناس علىٰ خالد بن الوليد ا فلما أخذ الراية دافع القومَ، وحاش بهم، ثم انحاز بالمسلمين، وانصرف الناس» (ابن القيم، ١٤١٢هـ، ج٣، ص٣٨١ – ٣٨٣).

لقد تركت غزوة مؤتة آثاراً عظيمة بالنسبة للمسلمين، كما تركت آثاراً خطيرة أيضاً، وكانت تلك الآثار حاسمة بالنسبة لموقف الروم من جهة، وللقبائل المتاخمة للشام من جهة ثانية، ولأهل مكة من جهة ثالثة.

فأما من جهة الروم فقد كانت من أهم العوامل التي قضت علىٰ غطرستهم، وأفهمتهم حقيقة وضعهم بالنسبة للدولة الإسلامية، حيث أصبحت جيوش المسلمين تفكر تفكيراً جاداً في غزوهم وإذلالهم، كما في تبوك في عهد الرسول ثم فَتْح الشام في عهد عمر بن الخطاب.

وأما من جهة القبائل المتاخمة لبلاد الشام فإنها بدأت تنظر إلىٰ المسلمين نظر إعجاب وتقدير، وبدأ زعماء تلك القبائل يفكرون في الدخول في الإسلام، كما فعل فروة بن عمرو الجذامي، ثم دخلت قبائل كثيرة في الإسلام.

وأما في نفوس المكيين، فقد ظنوا أن انسحاب المسلمين من مؤتة هزيمة قضت علىٰ نفوذهم، وحطمت قوتهم، وبدأوا يفكرون في نقض العهد الذي أبرم في يوم الحديبية، فحرضوا بكراً علىٰ أخذ ثأرهم القديم من خزاعة، وأمدوهم بالسلاح، وحاربوهم بالليل خفية. (الوكيل،١٤٠٨هـ، ص٢٤٥، ٢٤٦).

هذه أهم الأحداث والوقائع خلال الفترة من صلح الحديبية حتىٰ فتح مكة، وقد كان لها أثر كبير علىٰ ذلك الفتح المبارك، بل كانت بمثابة مقدمات وإرهاصات وتوطئة له، فقد زاد عدد المسلمين، وأصبحوا قوة يحسب لها حساباً، كما تحسن الوضع الاقتصادي لديهم بعد فتح خيبر، بالإضافة إلىٰ تأمين حدودهم الشمالية، وإسلام كثير من القبائل العربية. كل هذه الأمور جعلت فتح مكة المكرمة أمراً لازماً متىٰ ما سنحت الفرصة وتهيأت أسبابه.

لقد كان فتح مكة ثمرة تلك الدعوة المباركة التي بدأها الرسول من مكة، وأوذي وعُذّب هو وأصحابه في سبيلها، وهاجروا من أجلها، وقدموا تضحيات كثيرة وكبيرة في سبيلها، ضحوا بالمال، والأهل، والوطن، والنفس، فلما استقر في المدينة المنورة، وأُذِن له في القتال، بدأ يرسل سراياه ويقوم بغزواته لإيصال دين الله تعالىٰ إلىٰ الناس، «فما كان يكاد يمر شهر إلا وفيه غزوة أو سرية من سرايا رسول الله ، وكانت الحرب بينه وبين أعدائه سجالاً تارة ينصره الله نصراً مؤزراً كما حدث في بدر .. وتارة يدال عليهم فيمتحنون بالشدة والبلاء، ويتخذ الله منهم شهداء، ويمحص قلوبهم ويربيهم كما حدث في أحد» (فريد، ١٤١٧هـ، ص٣٣٢).

وبعد هذا الجهاد، وهذه التضحيات، شاء الله أن يكون فتح مكة – شرفها الله – بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية، وظاهرت بني بكر علىٰ خزاعة حلفاء الرسول □، فاستنجدت خزاعة برسول الله □ فهب لنجدتها، وكانت فرصة مواتية لفتح مكة، ونشر دين الله فيها، وتطهير بيت الله من الرجس والأوثان، وكسر شوكة الباطل وأهله، وهذا الفتح العظيم هو ما سيتناوله الباحث بالدراسة في الصفحات التالية، مبتدئاً بتاريخ فتح مكة المكرمة وأسبابه خلال هذا المبحث ضمن المطلبين التاليين:

المطلب الأول: تاريخ فتح مكة المكرمة.

المطلب الثاني: أسباب فتح مكة المكرمة.

المطلب الأول: تاريخ فتح مكة:

اتفق أهل السير والمغازي علىٰ أن فتح مكة كان في سنة ثمان من الهجرة النبوية الشريفة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقد ذكره الواقدي ١٤٠٤هـ في أحداث السنة الثامنة للهجرة. (ج٢، ص٧٨٠ وما بعدها)، وذكره غيره، فعن ابن إسحاق قال: «وكان فتح مكة لعشر ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة ثمان» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٢).

وقد روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك علىٰ رأس ثمان سنين ونصف، من مقدمه المدينة ...» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٧٦، ص٥٨١).

كما اتفقوا علىٰ أن خروج الرسول بجيشه من المدينة المنورة متجهاً إلىٰ مكة كان في العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

قال الواقدي (١٤٠٤هـ): «وخرج رسول الله يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر» (ج٢، ص٨٠١).

ووافقه ابن إسحاق فقال: «وخرج لعشر مضين من رمضان ...» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢،ص٢٤٩).

وكذا ابن القيم (١٤١٢هـ) حيث قال: «وخرج رسول الله بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان» (ج٣، ص٣٩٤).

أما اليوم الذي فتح فيه الرسول مكة المكرمة فقد اختلف فيه أهل السير والمغازي إلىٰ أقوال منها:

١- **القول الأول**: أن الفتح كان لعشر ليالٍ بقين من رمضان، ذكره ابن إسحاق حيث قال: «وكان فتح مكة لعشر ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة ثمان» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٧٤).

ووافقه الزهري وجماعة قالوا «كان فتح مكة في عشر بقيت من رمضان سنة ثمان» (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٢٤).

والندوي ١٤٢٥هـ حيث قال: «وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة». (ص٣٤٣).

٢- **القول الثاني**: عن ابن عباس والزهري قالا: «إن الفتح كان لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان» (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٢٢، ٢٣).

٣- **القول الثالث**: روىٰ عن الزهري أنه قال: «وافتتح مكة لثلاث عشرة بقين من رمضان» (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٢٤).

والمتتبع للروايات السابقة يرىٰ أنها اختلفت في تحديد اليوم الذي فتحت فيه مكة المكرمة، إلا أنه كان في العشر الوسطىٰ من شهر رمضان المبارك، في السنة الثامنة من الهجرة.

المطلب الثاني: أسباب فتح مكة المكرمة:

لقد خرج رسول الله ﷺ في يوم هجرته خائفاً يترقب ويخشىٰ الطلب، خرج مطارداً من قريش، التي تآمرت علىٰ قتله، ولمَّا لم تنجح في ذلك، واستطاع الخروج من بين يدي المحاصرين لداره، ثارت ثائرة قريش، وجدوا في طلبه، وأعطوا علىٰ ذلك جائزة عظيمة جعلت الراغبين في المغنم يحثون الخطىٰ، ويجدُّون في البحث، حتىٰ أن سراقة بن مالك استطاع اللحاق برسول الله ﷺ ومن معه في هجرته، ولكن الله كان مع نبيه يحرسه ويحوطه، فكان كلما اقترب منهم عثرت به فرسه، فعلم أن لا سبيل إليهم، وعندها ناداهم، وقال: «أنا سراقة بن جعشم، انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟ قال: فقال ذلك أبو بكر، قال: قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك. قال: اكتب له يا أبا بكر...» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج١، ص٢٩١).

وهكذا عاد سراقة من حيث أتىٰ، واستمر الركب الميمون في رحلة الهجرة حتىٰ وصل المدينة، واستقر بها، وأسس الرسول عليه السلام دولته، وشيَّد أركانها، ونشر الإسلام في ربوع المدينة وما حولها. «ولما تمَّ أمر الله في ترسيخ الدين، وتربية المسلمين، وامتحن الله قلوبهم للتقوىٰ، وفاضت كأس قريش ظلماً وعدواناً، وجحوداً بالحق، وصداً عن سبيل الله،ومحاربة للإسلام وأهله، أراد الله أن يدخل رسوله ﷺ والمسلمون مكة فاتحين غالبين، فيطهروا الكعبة من الرجس من الأوثان وقول الزور، ويعيدوا مكة إلىٰ مكانتها، فتكون مثابة للناس وأمناً، ويجعلوا البيت كما كان مباركاً وهدىٰ للعالمين» (الندوي، ١٤٢٥هـ، ص٣٣٥).

لذلك فقد هيأ الله لهذا الفتح أسباباً، جعلته لازماً وضرورياً لنشر الإسلام في بلده الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمناً. وفيما يلي بيان تلك الأسباب:

أولاً: نقض بني بكر وقريش صلح الحديبية:

وذلك أنه كان من شروط صلح الحديبية: «أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٣).

«وكان بين بني بكر وبين بني خزاعة ترة قديمة، وعداءٌ متوارث، يرجع تاريخه إلىٰ ما قبل البعثة، وجاء الإسلام فحجز بينهم، وتشاغل الناس بشأنه، فلما كانت الهدنة، ودخلت القبيلتان في معسكرين متحاربين، أراد بنو بكر أن ينتهزوا هذه الفرصة، ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فبيَّت نفر من بني بكر لخزاعة، وهم علىٰ ماء لهم – يقال له الوتير – فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا» (الندوي، ١٤٢٥هـ، ص٣٣٦).

وهكذا نقضت قريش وبنو بكر العهد بينهم وبين الرسول ﷺ، وكان هذا سبباً قوياً جعل النبي ﷺ يعزم علىٰ فتح مكة.

ثانياً: استعانة خزاعة برسول الله ﷺ وطلب النصرة والنجدة:

لما نقضت قريش صلح الحديبية بمظاهرتها بني بكر علىٰ خزاعة خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه

بالذي أصابهم وما ظاهرت عليه قريش... ورسول الله □ جالسٌ في المسجد في أصحابه، ورأس خزاعة عمرو بن سالم، وقام ينشد رسول الله □ فأذن له، واستمع منه فقال:

اللَّهم إنــي ناشــدٌ محمــدا … حلــف أبينــا وأبيــك الأتلــدا

قــد كنــتم ولــداً وكنــا والِــدا … ثُمَّــت أسلمنا ولـم ننـزع يـدا

إن قريشــاً أخلفــوك الموعــدا … ونقضــوا ميثاقــك المؤكــدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا … وادعُ عبــاد الله يــأتوا مــددا

إلىٰ آخر الأبيات. (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٧٨٩).

وهنا قرر الرسول □ نصرة خزاعة، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «قام رسول الله □ وهو يجر طرف ردائه، وهو يقول: «لا نُصِرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٧٩١).

وفي رواية لابن عباس عن الزهري، عن عروة بن الزبير،عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: قال عليه الصلاة والسلام: «نصرت يا عمرو بن سالم»، فما برح حتىٰ مرت بنا عنانة[1] في السماء فقال رسول الله □:«إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»، وأمر رسول الله □ الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه وسأل الله أن يعمي علىٰ قريش خبره حتىٰ يبغتهم في بلادهم. (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٧٨).

هذان السببان هما اللذان ورد ذكرهما في كثير من كتب السير، ومع أهميتهما، إلا أن هناك أسباباً لا تقل أهمية عنهما. منها:

أولاً: أهمية إنهاء الهجرة والرجوع إلىٰ الوطن وأرضه الحبيبة، الوطن بما فيه، الأهل، والحرم الشريف، وتاريخ الدعوة التليد، وذكرىٰ الانطلاق.

إنها مهمة التبليغ التي جاء بها الرسول □: (ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ) [المائدة: ٦٧]، والتي لابد من إيصالها وإنهاء الضلالة فيها.

إنه حق إثبات الحق، وحق إثبات الوجود، ولو لم يفتح الرسول □ مكة يبقىٰ ذلك الطريد الشريد، ولو فتح الأرض بأكملها دون مكة، وبقواهم أولئك الصامدون المتحدون، ولكن: (ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ) [الأنفال: ٤٢].

ثانياً: كثرة من أسلم من أهل مكة، وبسبب صلح الحديبية، حتىٰ فشا الدين، وظهر أمره بينهم ... فكان لابد من التفكير بجدية في ضرورة تخليص المؤمنين الموجودين في ديار الشرك القريشي، وإنقاذهم من مخالب لا تزال تنهش أجسادهم ودينهم الغض الفتي.

يضاف إلىٰ ذلك إسلام بعضهم، كخالد بن الوليد أحد قادتهم، والمعتمد في الحرب عليه، وعمرو بن العاص صاحب الرأي والدهاء والحيلة، وجماعة آخرون.

ثالثاً: بات من الضروري إنهاء هذه المرحلة ...، والتي لازالت تحمل القلق للرسول □ وتحمله العبء الثقيل من جهة استمرار قريش بحياكة مؤامراتها في الظلام

---

(١) عنانة: «العَنَانَة: السحابة وجمعها عَنَان» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٣، ص٢٩٤).

الدامس. ولابد للرسول الكريم من أن يبدأ بفتح مرحلة جديدة اسمها مرحلة ما بعد الفتح، إنها مرحلة توفر له انطلاقة مفعمة بالقوة، وتهيئ له قاعدة غاية في الأهمية ... وتضيف له جنداً آخرين ...

رابعاً: الوعد الإلهي للرسول - بفتح مكة المكرمة – فقد قال تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ) [القصص: ٨٥]، فقد ذهب أغلب المفسرين إلىٰ القول بأن المعاد المقصود في الآية مكة المكرمة، وإن كان ورد في معنىٰ ذلك أقوال متعددة. (الزهيري، ١٤٢٣هـ، ج١، ص٤١٩).

فقد ذكر ابن جرير عدة أقوال في تأويل قوله تعالىٰ: (پ پ پ) ووجه تلك الأقوال بقوله: «ويكون تأويله: إن الذي فرض عليك القرآن لمصيرك إلىٰ أن تعود إلىٰ مكة مفتوحة لك» (الطبري، ١٤٠٥هـ، ج٦، ص٥١).

وفسر ابن عباس: (پ پ پ)، قال: «إلىٰ مكة» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٧٧٣، ص٥١)، «وفسرها تارة أخرىٰ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره علىٰ أداء رسالته وإبلاغها إلىٰ الثقلين الجن والإنس» (ابن كثير، ١٤٢١هـ، ص١٠٠٧).

يضاف إلىٰ ذلك أسباباً أخرىٰ تزيد من قوة موقف الرسول والمسلمين، وتجعلهم علىٰ استعداد للبدء بهذه الخطوة المهمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وهي:

١- قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها، فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود، وتم القضاء علىٰ يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.
٢- ضعف جبهة الأعداء في الداخل: وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركين لهم وهم يهود المدينة، فهم أساتذتهم الذين يوجهونهم ويشيرون عليهم.
٣- اهتم رسول الله بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا في فترة الصلح وبذلك أصبحت متفوقة علىٰ قوة قريش، حيث العدد والعدة والروح المعنوية.
٤- كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصادياً، وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصادياً، فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالاً كثيرة.
٥- انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها (الصلابي، ١٤٢٥هـ، ج٢، ص١٢١٥ – ١٢١٦).

المبحث الثاني

أحداث فتح مكة المكرمة

جاء فتح مكة المكرمة علىٰ أنقاض صلح الحديبية، حيث نقضت قريش وحلفاؤها بنو بكر الهدنة والصلح الذي جرىٰ بينهم وبين رسول الله يوم الحديبية، بمهاجمتهم قبيلة خزاعة، وقتلهم «وبعد أن ارتكب بنو بكر بن كنانة، ومن ساندهم من قريش ما ارتكبوا من الغدر بخزاعة ندمت قريش وخافت، بعد أن أدركت أن صنيعها هو نقض صريح للعهد الذي أبرمته يوم الحديبية، لاسيما وأن الذين وقَّعوا نيابة عن قريش علىٰ وثيقة صلح الحديبية (سُهَيْل بن عمرو، ومكرز بن حفص، وحويطب بن عبدالعزىٰ) قد اشتركوا في جريمة الغدر بخزاعة مستغلين ومغتنمين هدنة الحديبية» (باشميل، ١٣٩٤هـ، ج٨، ص٨٣).

عند ذلك شعرت قريش بحرج موقفها، وعلمت أن رسول الله لن يغفر لها صنيعها متىٰ ما بلغه ذلك، لذلك رأت أن هذا الأمر لابد له من أن يصلح، «فمشىٰ الحارث بن هشام وعبدالله بن أبي ربيعة إلىٰ أبي سفيان فقالا: هذا أمر لابد له من أن يصلح، والله لئن لم يُصْلَح هذا الأمر لا يروعكم إلا محمداً في أصحابه! فلما رأىٰ أبو سفيان ما رأىٰ من الشر قال: هذا والله أمر لم أشهده ولم أغب عنه، لا حُمِلَ هذا إلاَّ عليَّ، ولا والله ما شورت ولا هويت حيث بلغني! والله ليغزونا محمدٌ إن صدقني ظني وهو صادقي، ومالي بدأ أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في الهدنة ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر. فقالت قريش: قد والله أصبت الرأي» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٤، ص٧٨٥).

وهكذا تبدأ مجريات أحداث فتح مكة المكرمة بسفارة أبي سفيان إلىٰ المدينة المنورة، وسيتناول الباحث تلك الأحداث بشيء من التفصيل خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: سفارة أبي سفيان إلى المدينة المنورة لتجديد صلح الحديبية والزيادة في مدته:

وذلك أن وفد خزاعة لمـّا قدم علىٰ رسول الله وأخبروه بما فعلت بنو بكر بهم، وبمظاهرة قريش لبني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلىٰ مكة، قال رسول الله للناس: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٦).

وتحقق ما أخبر به النبي فقد «خرج أبو سفيان حتىٰ قدم علىٰ رسول الله المدينة المنورة، فدخل علىٰ ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس علىٰ فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس علىٰ فراش رسول الله ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، ثم خرج

حتىٰ أتىٰ رسول الله فكلمه فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلىٰ أبي بكر، فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتىٰ عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلىٰ رسول الله ؟! فوالله لو لم أجد إلا الذّرّ لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل علىٰ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله ورضي عنها، وعندها حسن بن علي، غلام يَدِبُّ بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلىٰ رسول الله، فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله علىٰ أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلىٰ فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنيَّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلىٰ آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بنيَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد علىٰ رسول الله » (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٧).

وعندها أحس أبو سفيان بأنه لن يجير علىٰ رسول الله أحدٌ، فهؤلاء هم كبار أصحابه ومستشاريه، لم يقبل أحدٌ منهم بذلك، بل كان ردهم واحداً وهو عدم الجوار علىٰ رسول الله ، فلما رأىٰ أبو سفيان أن الأمر قد اشتد عليه عاد لاستشارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وطلب النصح منه، فقال له علي: «والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، قال: أوترىٰ ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال:لا والله، ما أظنّه، ولكني لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره وانطلق، فلما قدم علىٰ قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد عليَّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب، فوجدته أدنىٰ العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل علىٰ أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت، قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك. (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٧ ـ ٢٤٨).

وهكذا عاد أبو سفيان كما جاء لم يحقق مما أراد شيئاً، وظلت قريش تترقب وتخشىٰ أن يغزوها رسول الله في أي وقت، وقد وقع ما خشيته قريش فلقد عقد رسول الله العزم علىٰ غزو مكة، وأمر أهله بأن يجهزوه لذلك وأمر الناس بالجهاز أيضاً.

المطلب الثاني: استعداد الرسول لفتح مكة المكرمة:

«إن حركة النبي في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا، وخروجه في الغزوات تعلمنا كيفية التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنة واضحة في هديه ، فعندما قرر السير لفتح مكة، حرص علىٰ كتمان هذا الأمر حتىٰ لا يصل إلىٰ قريش فتعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة» (الصلابي، ١٤٢٥هـ، ج٢، ص١٢١٦).

١ـ أنه كتم أمره حتىٰ علىٰ أقرب الناس إليه:

«فقد أخذ النبي بمبدأ السرية المطلقة والكتمان الشديد حتىٰ عن أقرب الناس إليه، وهو أبو بكر رضي الله عنه أقرب أصحابه إلىٰ نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئاً عن أهدافه الحقيقية، ولا باتجاه حركته ولا بالعدو الذي ينوي قتاله» (الصلابي، ١٤٢٥هـ، ج٢، ص١٢١٧).

ومما يؤيد ما ذهب إليه الصلابي ما رُوِيَ من أن رسول الله أمر بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر علىٰ ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تحرك بعض جهاز الرسول فقال: أي بنية أأمركم رسول الله أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهزْ، قال فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري، ثم إن رسول الله أعلم الناس أنه سائر إلىٰ مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتىٰ نبغتها في بلادها. (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٨).

وما رواه أبو سعيد الخدري قال: ... فلما نزل رسول الله العرْج[١]، والناس لا يدرون أين توجَّه رسول الله ... قال كعب بن مالك: آتي رسول الله فأعلم لكم علم وجهه. فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله علىٰ ركبتيه، ثم قال:

قضينا من تهامة كلَّ ريب ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا

نُسَائِلُها ولو نطقت لقالت ... قواطِعُهُن دوساً أو ثقيفا

إلىٰ آخر ما أنشده، قال: فتبسم رسول الله ولم يزد علىٰ ذلك، فجعل الناس يقولون: والله ما بين لك رسول الله شيئاً، ما ندري بمن يُبْدي، بقريش أو ثقيف أو هوازن. (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٠٢).

من الروايات السابقة يتضح أن رسول الله كان شديد الحرص علىٰ كتمان أمره، وعدم إفشائه حتىٰ لا يصل إلىٰ قريش شيء مما عزم عليه، وإن كانت بعض الروايات ذكرت أنه أخبر الناس بذلك، أو أخبر بعض أصحابه.

٢ـ أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلىٰ بطن إضم[٢]:

«وزيادة في إحكام الخطة والكتمان والتعمية والتضليل علىٰ العدو، بعث رسول الله في أول شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة بسرية عسكرية إلىٰ ناحية نجد شرقي المدينة المنورة ... وهو إيهام للناس جميعاً أن الحشد الذي يجري في المدينة مقصود به منطقة نجد لا مكة المكرمة التي تقع في الجنوب من المدينة» (باشميل، ١٣٩٤هـ، ج٨، ص١٢١).

قال ابن سعد ١٤١٠هـ: «لما هم رسول الله بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلىٰ بطن إضم ...، ليظن ظان أن رسول الله توجه إلىٰ تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار ... فمضوا ولم يلحقوا جمعاً فانصرفوا حتىٰ

---

(١) العرج: قرية جامعة علىٰ طريق مكة من المدينة، وهي من بلاد أسلم (البكري، ١٤٠٣هـ، ج٣، ص٩٣٠، ٩٣١).

(٢) إضم: (ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السُّمَينة) (الحموي، ١٤١٠هـ، ج١، ص٢٥٤).

انتهوا إلىٰ ذي خُشُب[1] فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلىٰ مكة فأخذوا علىٰ بيْن [2] حتىٰ لقوا النبي بالسقيا»[3] (ج٢، ص١٠١).

وبهذا أوهم رسول الله الناس أنه يريد جهة غير مكة المكرمة، وهذا يعزز ما ذُكر في النقطة السابقة من أنه كتم أمره، ولم يبلغ أحداً بوجهته إلا خاصة أصحابه، ويؤيد ذلك «ما ورد في تفسير ابن سلام أن حاطباً كتب: إن محمداً قد نفر فإما إليكم وإما إلىٰ غيركم فعليكم الحذر» (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٨٣).

٣- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلىٰ الأعداء:

بث الرسول رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتىٰ لا تنتقل أخباره إلىٰ قريش، «وأخذ رسول الله بالأنقاب[4]، فكان عمر رضي الله عنه يطوف علىٰ الأنقاب قَيِّماً بهم فيقول: لا تدعو أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه ... إلا من سلك إلىٰ مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه، أو ناحية مكة» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٧٩٦).

وهكذا حال رسول الله دون خروج أي خبر من المدينة إلىٰ خارجها، حتىٰ لا يستفيد العدو من ذلك ويعد العدة لمواجهة الرسول وجيشه، «وليس أدل علىٰ نجاح السرية من أن الجيش الإسلامي وقد بلغ عدة آلاف تحرك من المدينة حتىٰ أصبح علىٰ مشارف مكة دون أن تدري قريش أو تعرف» (فرح، ١٩٧٧م، ص٥٦٠ -٥٦١).

٤- دعاءه بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله بالأسباب المادية التي في استطاعته توجه إلىٰ الله عز وجل بالدعاء والتضرع قائلاً: «اللهم خذ علىٰ أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فجأة» (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٨١).

وهذا شأن النبي في أموره يأخذ بكافة الأسباب المادية، ولا ينسىٰ التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

٥- إحباط محاولة تجسس حاطب – رضي الله عنه – لمصلحة قريش:

حادثة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه تبين أن المجتمع الإسلامي المدني مجتمع بشري يعيش في واقع الحياة، ويخطئ أفراده ويصيبون، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من البشر، وكان رسول الله حين لايقرُّهم علىٰ أخطائهم تراه يلتمس لهم الأعذار، ويتسامح معهم، ويعفو ويصفح، يعرف لكل منهم فضله، وينزله المنزلة التي يستحقها، ولا يؤاخذه بأول هفوة أو زلة.

ومن ذلك ما وقع من الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، فقد

---

(١) ذي خشب: «وادٍ علىٰ مسيرة ليلة من المدينة» (الحموي، ١٤١٠هـ، ج٢، ص٣٧٢).

(٢) بيْن: (قرية من قرىٰ المدينة، تقرب من السيَّالة) (البكري، ١٤٠٣هـ، ج١، ص٢٩٧).

(٣) السقيا: (قرية جامعة من عمل الفُرْع، بينها مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلاً ...) (الحموي، ١٤١٠هـ، ج٣، ص٢٥٨).

(٤) الأنقاب: جمع نقب وهي الطريق. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٤، ص٢٥٠).

بعث بكتاب إلىٰ قريش يخبرهم فيه بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم، فعن الحسن بن محمد: أنه سمع عبيد الله بن أبي رافع يقول: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، قال: فانطلقنا تعادىٰ بنا خيلنا حتىٰ أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، يقول:كنت حليفاً، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين، من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يداً يحمون به قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطَّلع علىٰ من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله السورة: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ- إلىٰ قوله - ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ) [الممتحنة: ١]، (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٧٤، ص٥٨١)، (ومسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٤٩٤،ص٦٤٠).

وهكذا شاء الله تعالىٰ أن تحبط محاولة إفشاء سر الغزو الذي عزم عليه النبي ﷺ، وتعامل مع الموقف بما يستحقه، حيث أحضر حاطباً، وسأله عن سبب عمله ذلك، فأجاب حاطب رضي الله عنه عن ذلك بكل صدق، ولم يخف من الحقيقة شيئاً، وحين علم رسول الله ﷺ صدقه عَذَرَهُ وعفا عنه، وعامله معاملة رحيمة تدل علىٰ حرصه ﷺ ووفائه لأصحابه، وإقالة عثرات ذوي الفضل منهم، وكلهم ذوو فضل، «وفي هذا توجيه للمسلمين إلىٰ أن ينظروا إلىٰ أصحاب الأخطاء نظرة تكاملية، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال الدعوة والجهاد والعلم والتربية ...» (الصلابي، ١٤٢٥هـ، ج٢، ص١٢١).

المطلب الثالث: الشروع في الخروج وأحداث في الطريق:

١- بعد أن استكمل رسول الله ﷺ استعداداته لفتح مكة المكرمة، واجتمع له جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار ومسلمي القبائل العربية التي توافدت إلىٰ النبي ﷺ في المدينة بعد أن أرسل إليها رسله تدعوهم لحضور رمضان بالمدينة، فقد أرسل إلىٰ أهل البادية وإلىٰ من حوله من المسلمين، يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسولاً في كل ناحية حتىٰ قدموا علىٰ رسول الله ﷺ أسلم، وغِفَار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وبعث إلىٰ بني سليم، فأما بنو سُليم فلقيته بقديد[1]، وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٧٩٩).

---

(١) قديد: «موضع بين مكة والمدينة». (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٣، ص٣٤٦).

وخرج رسول الله لعشر مضين من رمضان، كما رویٰ ابن إسحاق، عن ابن عباس، قال: «ثم مضیٰ رسول الله لسفره، واستخلف علیٰ المدينة أبارُهم كلثوم بن عتبة بن خلف الغِفَاري، وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام رسول الله وصام الناس معه، حتیٰ إذا كان بالكُدَيد[1]، بين عسفان[2] وأمج[3] أفطر» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٩).

وقد أفطر نهاراً ليقتدي به الناس فقد رویٰ ابن عباس قال: «سافر رسول الله في رمضان، فصام حتیٰ بلغ عسفان، ثم دعا بإناء من ماء، فشرب نهاراً لِيَرِيَهُ الناس، فافطر حتیٰ قدم مكة» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٧٩، ص٥٨١).

قال ابن إسحاق: «ثم مضیٰ حتیٰ نزل مرَّ الظهران[4] في عشرة آلاف من المسلمين، فسبعت سليم، وبعضهم يقول ألفت سُلَيم، وألفت مزينة – أي صاروا ألفاً – وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب[5] مع رسول الله المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٩).

وهكذا أصبح الجيش الإسلامي علیٰ مقربة من مكة، ولم تعلم به قريش؛ لأن الله سبحانه وتعالیٰ قد عمَّیٰ عليهم الأخبار، استجابة لدعاء نبيه ولكنها كانت ترسل من يتحسس لها الأخبار، لعله يجد لها خبراً أو يسمع به، وكذا فعلت هوازن، ولكن الله تعالیٰ أراد لهذا الأمر أن يتم في سرِّية كاملة، حتیٰ تفاجأ قريش بالجيش الإسلامي فتعجز عن مقاومته، وتستسلم، ويدخل الرسول مكة دون قتال، ودون إراقة دماء.

٢- قريش تستطلع خبر محمد وجيشه:

في تلك الأثناء التي كان الجيش الإسلامي يتحرك من المدينة، كانت قريش خائفة وجلة تترقب، وتحاول أن تعرف أخبار محمد وأصحابه، فكانت ترسل من يتحسس الأخبار لعله أن يأتيها بخبر أو يسمع به.

قال ابن إسحاق: «فلما نزل رسول الله مرَّ الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول الله ولا يدرون ما هو فاعل، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٩ – ٢٥٠).

ولم يكن هدف إرسال أبي سفيان بن حرب ورفيقيه هو التجسس فقط، بل كان لمعرفة أحوال النبي وجيشه، وطلب الأمان منه، إلا أن يجد أبو سفيان رقة في أصحابه، فليأذنه بالحرب؛ لأن قريش أجمعت بعثة أبي سفيان بن حرب يتحسس الأخبار، قالوا له: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه جواراً إلا أن تریٰ رقة في أصحابه فآذنه

---

(١) الكُدَيد: «موضع بالحجاز، علیٰ اثنين وأربعين ميلاً من مكة». (الحموي، ١٤٠٠هـ، ج٤، ص٤٤٢).
(٢) عسفان: «هي قرية جامعة بين مكة والمدينة». (ابن الأثير، ١٣٩٩هـ، ج٣، ص٢٣٧).
(٣) أمج: «موضع بين مكة والمدينة». (ابن الأثير، ١٣٩٩هـ، ج١، ص٦٥).
(٤) مرّ الظهران: بينه وبين البيت ستة عشر ميلاً (البكري، ١٤٠٣هـ، ج٤، ص١٢١٢).
(٥) أوْعَب: أوْعَبَ القوم إذا خرجوا كلهم إلیٰ الغزو. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١، ص٨٠٠).

بالحرب. (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨١٤)، وهكذا بدأت مهمة أبي سفيان بن حرب في مفاوضة النبي نيابة عن قومه.

٣- إسلام أبي سفيان بن حرب:

وقد ورد في قصة إسلامه روايات منها:

ما رواه ابن إسحاق وفيها أن العباس بن عبدالمطلب وجد أبا سفيان وأردفه علىٰ بغلة رسول الله حتىٰ دخل به عليه، وتجادل فيه مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بين يدي رسول الله ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام للعباس: «اذهب به يا عباس إلىٰ رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، قال: فذهبت به إلىٰ رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلىٰ رسول الله فلما رآه رسول الله قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنىٰ عني شيئاً بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتىٰ الآن شيئاً، فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم، قال العباس: قلت يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله : يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتىٰ تمر به جنود الله فيراها، قال: فخرجتُ حتىٰ حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله أن أحبسه» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥١، ٢٥٢).

وقد رأىٰ أبو سفيان – رضي الله عنه – في صبيحة تلك الليلة من المسلمين أموراً أدهشته وعجلت بإسلامه منها: «أنه لما كان أبو سفيان في منزل العباس، أذَّن الصبح فأذَّن العسكر كلهم، ففزع أبو سفيان من أذانهم، وقال: ما يصنعون؟ قال العباس: فقلت الصلاة، قال أبو سفيان: كم يصلون في اليوم والليلة؟ قال العباس: يصلون خمس صلوات، قال أبو سفيان: كثير والله! قال:ثم رآهم يبتدرون وضوء النبي ، فقال: ما رأيت يا أبا الفضل ملكاً كهذا قط، لا ملك كسرىٰ، ولا ملك بني الأصفر! قال العباس: ويحك، آمن! قال: أدخلني عليه يا أبا الفضل! فأدخله العباس عليه، وقال: يا محمد استنصرتُ إلهي واستنصرت إلهك، فلاوالله ما لقيتك في مرة إلا ظفرت عليَّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً غلبتك! فتشهد أبو سفيان أن محمداً رسول الله» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨١٥ – ٨١٦).

لقد كان أبو سفيان ينظر إلىٰ الأمر نظر أهل الجاهلية، الذين لا يهمهم سوىٰ المظاهر الدنيوية، من مال، وجاه، ومنصب، بها يتفاخرون، وعليها يتنافسون، ومن أجلها يبذلون كل ما يملكون، أما محمدٌ ، فلم يكن ينظر إلىٰ شيء من ذلك، ولو أرادَه لحصل عليه في مكة المكرمة حين عرضت عليه قريش كل ذلك، فرفضه، واختار أن يكون عبدالله ورسوله، يدعو إليه، ويبلغ رسالته، وينشر دين الله في الأرض، ويضحي من أجل ذلك بكل شيء، وقد تكفل الله بنصره، وما أصدق كلام أبي سفيان حين يقول:

«يا محمد استنصرتُ إلهي واستنصرتَ إلهك، فلا والله ما لقيتك في مرة إلا ظفرت علي، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً غلبتك». نعم إنه كلام حق لأن محمداً يستنصر إلهاً قاهراً قادراً عظيماً، بيده جلب النفع ودفع الضر وتحقيق النصر، وأبو سفيان كان يستنصر إلهاً عاجزاً، لا يملك جلب نفع أو دفع ضر عن نفسه فضلاً عن غيره، لذلك كان يُنْصَرُ محمد ، ويُهْزَمُ أبو سفيان.

ومنها أيضاً: أن أبا سفيان لما أصبح تلك الليلة التي كان فيها عند العباس ورأىٰ الناس يجنحون للصلاة وينتشرون في استعمال الطهارة خاف وقال للعباس: ما بالهم؟ قال: إنهم سمعوا النداء فهم ينتشرون للصلاة، فلما حضرت الصلاة ورآهم يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال: يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه؟ قال: نعم، والله لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٩٠).

وهكذا يربى الإسلام أتباعه على الطاعة المطلقة لله عز وجل ولرسوله ، الطاعة الممزوجة بالحب والتسليم والقبول، والتي تجعل المسلم يقدم أمر الله تعالىٰ وأمر رسوله علىٰ كل أمر، ولو أدىٰ ذلك إلىٰ ترك جميع الملذات، وتحمل المصاعب والمشقات، والدليل علىٰ ذلك أنهم قدموا أنفسهم وأموالهم وأولادهم رخيصة في سبيل الله.

إنه منظر مؤثر حقاً، جعل أبا سفيان في غاية التعجب والدهشة، ثم دفعه إلىٰ أن يسلم حينها دون تردد، إنه دين الإسلام، منهج حياة كامل، لو طبقه المسلمون في حياتهم كما أراد الله تعالىٰ لآمن كثير من الناس به دون تردد، ودون كثرة خطب ومواعظ، لأن الذي ينقص الناس في زمننا التطبيق العملي، ووجود القدوات، التي تدعو الناس بأفعالها لا بأقوالها.

٤- عرض الجيش الإسلامي علىٰ أبي سفيان رضي الله عنه:

كان رسول الله قد أمر العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه بحبس أبي سفيان عند خطم الجبل حتىٰ يرىٰ الجيش الإسلامي، ويدرك قوته، وقد فعل العباس ذلك، قال العباس: «ومرت القبائل علىٰ راياتها، كلما مرَّت قبيلة قال: يا عباس، من هذه؟ فأقول: سليم، فيقول: مالي ولسُليم، ثم تمرُّ القبيلة، فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتىٰ نفدت القبائل، ما تمر قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم، قال: ما لي ولبني فلان، حتىٰ مرَّ رسول الله في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، رضي الله عنهم، لا يرىٰ منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله، يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٢).

نعم إنها النبوة التي رفع الله بها ذكر محمد وأعلا بها شأنه، مع ما كان يتميز به من جميل الصفات ومحمود الخصال قبل النبوة، شهد له بذلك خصومه قبل أتباعه، فلا عجب حين يُدْهِشُ هذا الموقف أبا سفيان ويجعله يَصِفُهُ بالملك العظيم.

وفي رواية أخرىٰ «أنه حين مرَّت الأنصار، قال أبو سفيان: من هذه؟ قال

العباس: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان:يا عباس حبذا يوم الذِّمار، ثم جاءت كتيبة، وهي أقل الكتائب، فيهم رسول الله وأصحابه، وراية النبي مع الزبير بن العوام، فلما مرَّ رسول الله بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: ما قال؟ قال: كذا وكذا، فقال: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تُكْسَىٰ فيه الكعبة، قال: وأمر رسول الله أن تركز رايته بالحجون» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٨٠، ص٥٨٢).

وقد روىٰ الواقدي ١٤٠٤هـ: «أن رسول الله أرسل إلىٰ سعد فعزله، وجعل اللواء إلىٰ قيس ابن سعد (ج٢، ص٨٢٢).

وذكر موسىٰ بن عقبة عن الزهري: «أن أبا سفيان وبديلاً وحكيم بن حزام كانوا وقوفاً مع العباس عند خطم الجبل، وذكر أن سعداً لما قال لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، شكىٰ أبو سفيان إلىٰ رسول الله فعزله عن راية الأنصار، وأعطاها الزبير بن العوام فدخل بها من أعلا مكة وغرزها بالحجون» (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٨٩).

هكذا عالج الرسول خطأ سعد رضي الله عنه، لأن مثل هذا الخطأ لا يحتمل التأخير، فالجيش الإسلامي زاحف علىٰ مكة، ويُخْشَىٰ من حدوث ما حدَّث به سعد بن عبادة رضي الله عنه، وفي تسليم الراية لغير سعد، وقبول سعد بذلك دلالة كبيرة علىٰ طاعة واستسلام وانقياد أصحاب رسول الله لله ولرسوله.

«وكان الهدف من عرض الجيش الإسلامي علىٰ أبي سفيان أن يرىٰ أبو سفيان بعيني رأسه قوة الجيش الإسلامي، ويدرك أنه لا قبل لقومه به، وينقل إليهم الصورة كاملة واضحة المعالم، فلا يجدون أمامهم من سبيل سوىٰ الرضوخ والاستسلام، ويكون رسول الله قد اطمأن إلىٰ تدهور معنوياتهم وتخلخل نفسياتهم، وفقدان القدرة علىٰ المقاومة والرغبة في القتال، فيتم دخول مكة دون قتال» (فرح، ١٩٧٧م، ص٥٦٩).

٥- أبو سفيان ينذر قومه:

حينما تمَّ عرض الجيش الإسلامي علىٰ أبي سفيان بن حرب، ورأىٰ قوته، وأدرك أن لا قبل لقريش بمواجهته، انطلق منذراً قومه وواصفاً لهم ما رآه من قوة جيش المسلمين، روىٰ ذلك العباس بن عبدالمطلب حيث قال العباس: «قلت: النجاة إلىٰ قومك، حتىٰ جاءهم صرخ بأعلىٰ صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحميت الدسم، الأحمس(١)، قبح من طليعة قوم! قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلىٰ دورهم وإلىٰ المسجد» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢،

---

(١) الحميت: الزقُّ، نسبة إلىٰ الضخم والسِّمن، والأحمس: الذي لا خير فيه. (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٣).

ص٢٥٢ ــ ٢٥٣).

لقد نجحت خطة رسول الله التي اتبعها للإعداد لهذه الغزوة حتىٰ هذه اللحظة نجاحاً عظيماً، فلم يصل إلىٰ قريش من أخبار الجيش الإسلامي حرف واحد، حتىٰ جاءهم أبو سفيان ينذرهم ويحذرهم، ويدعوهم إلىٰ الاستسلام وعدم المقاومة.

وقد كانت مفاجأة ذهلت لها قريش، ويمكن القول: «إن ما حدث كان خيراً أراده الله لقريش حين فاجأها الجيش النبوي الذي لا رغبة لقائده الأعلىٰ النبي في أن تراق قطرة دم واحدة في الحرم الآمن مكة» (باشميل، ١٣٩٤هـ، ج٨، ص١٨٦).

وهكذا أصبح الجيش الإسلامي علىٰ مقربة من مكة المكرمة، وكان لابد من وضع خطة محكمة لدخول مكة، تكفل سلامة الجيش الإسلامي، وإفشال أي محاولة للتصدي له، وتضعف محاولة المقاومة لو حدثت، وقد أعد رسول الله خطة للدخول ستتناولها الدراسة فيما يلي:

المطلب الرابع: خطة الرسول ﷺ لدخول مكة المكرمة وفتحها:

توزيع القيادات استعداداً لدخول مكة:

«من المرجح أن النبي ﷺ خرج بجيشه من المدينة المنورة علىٰ غير تعبئة، وأنه لم يُعَبّئه ويُكَتّب كتائبه ويوزع راياته علىٰ قادة الألوية والفرق إلا عندما وصل إلىٰ قديد بديار حلفائه خزاعة، لأن الجيش الإسلامي لم يكتمل عدده إلا في قديد حيث وافت النبي ﷺ بنو سليم..، وهم آخر قوة من قوات البادية التي انضمت إلىٰ الجيش النبوي وهو في طريقه إلىٰ مكة المكرمة». (باشميل، ١٣٩٤هـ، ج٨، ص١٣٦ – ١٣٧).

ذكر ذلك الواقدي ١٤٠٤هـ فقال: «لم يعقد الرسول ﷺ الألوية والرايات حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قديد» (ج٢، ص٨٠١).

«وقد كانت تعبئة النبي ﷺ لجيشه بقديد علىٰ أساس قَبَلِي، وقد تحرك الجيش من قديد في اتجاه مكة المكرمة وهو في حالة تعبئة تامة، غير أن الرسول ﷺ لما وصل ذي طوىٰ – وهو المنطقة المسماة اليوم في مكة بالزاهر – قسم جيشه البالغ عشرة آلاف مقاتل إلىٰ خمس فرق، كان هو ﷺ قائداً للفرقة الأولىٰ التي ضمت هيئة أركان حربه من كبار المهاجرين والأنصار وشيوخ القبائل العربية وساداتها.

أما الفرق الأربع الأخرىٰ التي كُلفِت بالسيطرة علىٰ مكة وفتحها وسحق أي مقاومة مسلحة يبديها أي من القرشيين فقد أسندت قيادتها إلىٰ أربعة من كبار الصحابة، ثلاثة من المهاجرين، وواحد من الأنصار». (باشميل، ١٣٩٤هـ، ج٨، ص٢٤٤).

الجهات التي دخلت منها فرق الجيش الإسلامي إلىٰ مكة المكرمة وأسماء قاداتها:

١- **الزبير بن العوام**: كلفت فرقته بأن تستولي علىٰ الناحية الشمالية من مكة عند منطقة يقال لها كُدي[١].

٢- **خالد بن الوليد**: كلف بأن يدخل مكة من ناحية الجنوب من منطقة يقال لها: الليط، وهي المسماة اليوم بمحلة المسفلة.

٣- **أبو عبيد بن الجراح**: وقد كلفه الرسول ﷺ أن يدخل بفرقته من الناحية الشمالية الغربية.

٤- **قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري**: كلفت فرقته (وكلها من الأنصار) أن تدخل مكة من جنوبها الغربي. (باشميل، ١٣٩٤هـ، ج٨، ص٢٤٥ – ٢٤٦). يؤكد ذلك ما رواه الواقدي ١٤٠٤هـ قال: «ثم أمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوام أن يدخل مكة من كُدي، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من اللِّيط، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل من كَدَاء[٢]. ومضىٰ رسول الله ﷺ فدخل من أذاخر[١]». (ج٢، ص٨٢٥).

---

(١) كُدِي: «موضع بأسفل مكة شرفها الله تعالىٰ» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٥، ص٢١٨).

(٢) كَدَاء: «الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر وهو المعْلىٰ» (ابن منظور: ١٤١٠هـ، ج١٥، ص٢١٨).

وقال الحموي، ١٤٠٠هـ: «كَدَاء: بأعلىٰ مكة عند المحصب –دار- النبي ﷺ من ذي طوىٰ إليها» (ج٤، ص٤٣٩).

وقد قسم النبي جيشه إلىٰ مجنبة يمنىٰ، عليها خالد بن الوليد – رضي الله عنه – ومجنبة يسرىٰ عليها الزبير بن العوام – رضي الله عنه – وبقية الجيش جعله كقلب وجعل عليهم أبا عبيدة – رضي الله عنه – ثم كلف الأنصار بمهمة خاصة، وهي القضاء علىٰ من تجمع مع أوباش قريش لصد الجيش الإسلامي ومنعه من الدخول إلىٰ مكة المكرمة، يؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله يوم الفتح، فجعل خالد بن الوليد علىٰ المجنبة اليمنىٰ، وجعل الزبير بن العوام علىٰ المجنبة اليسرىٰ، وجعل أبا عبيدة علىٰ البيادقة (الرجالة) وبطن الوادي فقال: «يا أبا هريرة ادع الأنصار«فدعوتهم فجاءوا يهرولون فقال: «يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش؟» قالوا: نعم. قال: «انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً» وأخفىٰ بيده. ووضع يمينه علىٰ شماله، وقال: «موعدكم الصَّفَا» قال: فما أشرف يومئذ لهم أحدٌ إلا أناموه، قال: وصعد رسول الله الصفا، وجاءت الأنصار فأطافوا بالصفا، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله: أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، قال أبو سفيان: قال رسول الله : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقىٰ السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»»». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٧٨٠، ص٤٦٦).

وقد روىٰ ابن إسحاق «عن عبدالله بن أبي نجيح أن رسول الله حين فرق جيشه في ذي طوىٰ، أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدَي، وكان الزبير علىٰ المجنبة اليسرىٰ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في الناس من كَدَاء..، وأمر خالد بن الوليد، فدخل من الليط، أسفل مكة، في بعض الناس، وكان خالد علىٰ المجنبة اليمنىٰ، وفيها أسلم وسُليم وغفار ومُزَينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب. وأقبل أبو عبيدة بن الجرَّاح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ، ودخل رسول الله من أذاخر، حتىٰ نزل بأعلىٰ مكة، وضربت له هنالك قبته». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٤، ٢٥٥).

دخول الجيش الإسلامي مكة المكرمة:

عندما أنهىٰ النبي تعبئة جيشه، وعين أمراءه وقادته، وحدد الجهة التي يدخل منها كل واحد منهم، وكان ذلك بذي طوىٰ، نهاهم عن القتال، وأمر بقتل أناس خصهم وذكرهم بأسمائهم لأسباب استوجبت هدر دمائهم - وسيرد ذكرهم لاحقاً بإذن الله تعالىٰ -، ودخل الجيش الإسلامي مكة، ولم يلق قتالاً، إلا ما حدث مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وفرقته حيث «وجد جمعاً من قريش وأحابيشها قد جمعوا له، فيهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسُهيل بن عمرو، فمنعوه الدخول، وشهروا السلاح، ورموا بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة أبداً! فصاح خالد بن الوليد في أصحابه وقاتلهم، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلاً من قريش، وأربعة من هذيل، وانهزموا أقبح انهزام حتىٰ قتلوا بالحزورة[٢] وهم مولون في كل وجه... ». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢،

---

(١) أذاخر: «ثنية بين مكة والمدينة» (البكري، ١٤٠٣هـ، ج١، ص١٢٨).

(٢) الحزورة: سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه. (الحموي، ١٤١٠هـ، ج٣، ص٣٧١).

ص٨٢٥ – ٨٢٦).

وقد ذكر ابن إسحاق: «أن قتلىٰ المشركين كانوا قريباً من اثني عشر، أو ثلاثة عشر رجلاً». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٥). وذكر موسىٰ بن عقبة أنهم بلغوا قريباً من أربعة وعشرين. (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٤٤). «وأقوىٰ هذه الروايات ما ذكره ابن إسحاق وموسىٰ بن عقبة فهما أوثق كتب المغازي، ومغازي ابن عقبة أوثق بالجملة من سيرة ابن إسحاق كما أن أبا سفيان أشار إلىٰ كثرة القتل من قريش فربما ترجح هذه القرائن رواية موسىٰ بن عقبة». (العمري، ١٤١٣هـ، ج٢، ص٤٧٩).

«ولما ظهر رسول الله علىٰ ثنية أذاخر نظر إلىٰ البارقة (بارقة السيوف) فقال: ما هذه البارقة، ألم أنه عن القتال؟ قيل: يا رسول الله، خالد بن الوليد قوتل، ولو لم يُقاتل ما قاتل! فقال رسول الله : قضىٰ الله خيراً! ». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٢٦).

«وأقبل الزبير بن العوام بمن معه من المسلمين حتىٰ انتهىٰ بهم إلىٰ الحجون فغرز الراية عند منزل رسول الله ولم يقتل من المسلمين أحد إلا رجلان من أصحابه أخطأ طريقه فسلكا غيرها فقتلا، كرز بن جابر الفهري، فقام عليه خالد الأشقر حتىٰ قتل». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٢٨).

«وكان شعار أصحاب النبي يوم فتح مكة وحنين والطائف، شعار المهاجرين: يا بني عبدالرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبدالله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٦).

إسلام أبي قحافة:

وذلك أنه: «لما وقف رسول الله بذي طوىٰ قال أبو قحافة لابنة من أصغر ولده: أي بُنَيَّة، اظهري بي علىٰ أبي قبيس، قالت: وقد كُف بصره، قالت: فأشرفت به عليه، فقال: أي بنية، ماذا ترين، قالت: أرىٰ سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل، قالت: وأرىٰ رجلاً يسعىٰ بين يدي ذلك مقبلاً ومدبراً، قال: أي بنية، ذلك الوازع، يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها، ثم قالت: قد والله انتشر السواد، قالت: فقال: قد والله دُفِعت الخيل، فأسرعي بي إلىٰ بيتي، فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلىٰ بيته، قالت: وفي عنق الجارية طوق من ورق، فتلقاها رجل فيقتطعه من عنقها، قالت: فلما دخل رسول الله مكة، ودخل المسجد، أتىٰ أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتىٰ أكون أنا آتيه فيه»؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قال: قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال: «أسلم» فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثقامة (نبات أبيض الشجر والزهر، يشتد بياضه إذا يبس)، فقال رسول الله : «غيروا هذا من شعره» ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته، وقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي، فلم يجبه أحد، قالت: فقال: أي أخية، احتسبي طوقك، فوالله إن الأمانة في الناس اليوم قليل». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٤).

«وقول الصديق – رضي الله عنه -: إن الأمانة في الناس اليوم قليل. يعني به

ذلك اليوم علىٰ التعيين لأن الجيش فيه كثرة، ولا يكاد أحد يلوي علىٰ أحد مع انتشار الناس ولعل الذي أخذه تأول أنه من حربي والله أعلم». (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٩٣).

وقد هنأ رسول الله أبا بكر بإسلام أبيه، فقد قال ابن وهب: «وأخبرني عمر ابن محمد عن زيد بن أسلم، أن رسول الله هنأ أبا بكر بإسلام أبيه». (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٩٣).

خبر من أمر النبي بقتلهم:

ذُكِر سابقاً أن النبي نهىٰ أمراءه عن القتال، إلا أن يقاتلوا، وأمرهم بقتل أناس سماهم، حتىٰ وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهؤلاء النفر ذكرهم ابن إسحاق، ومنهم:

١- «عبدالله بن سعد بن أبي سرح»: أخو بني عامر بن لؤي، وإنما أمر رسول الله بقتله لأنه كان قد أسلم، وكان يكتب لرسول الله الوحي، فارتد مشركاً راجعاً إلىٰ قريش، ففر إلىٰ عثمان بن عفان (يوم الفتح) وكان أخاه من الرضاعة، فغيبه حتىٰ أتىٰ به رسول الله بعد أن اطمأن أهل مكة، فاستأمن له، فزعموا أن رسول الله صَمَتَ طويلاً، ثم قال: نعم، فلما انصرف عنه عثمان، قال رسول الله لمن حوله من أصحابه: لقد صمَتُّ ليقوم إليه بعضكم فيضربن عنقه، فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إليّ يا رسول الله؟ قال: إن النبي لا يقتل بالإشارة.

قال ابن هشام: ثم أسلم بعد، فولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر.

٢- وعبدالله بن خطل: رجل من بني تميم بن غالب: إنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً، فبعثه رسول الله مصدقاً، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولىٰ له يخدمه، وكان مسلماً، فنزل منزلاً، وأمر المولىٰ أن يذبح له تيساً، فيصنع له طعاماً، فنام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً، فعدا عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، فقتله سعيد بن حُرَيث المخزومي وأبو برزة الأسلمي، اشتركا في دمه، وكانت له قينتان: فرتني وصاحبتها، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ، فأمر رسول الله بقتلهما معه، فقتلت إحداهما، وهربت الأخرىٰ، حتىٰ استؤمن لها رسول الله بعد، فأمنها.

٣- والحويرث بن نقيد بن وهب بن عبد بن قصي، وكان ممن يؤذيه بمكة.

قال ابن هشام: «وكان العباس بن عبدالمطلب حمل فاطمة وأم كلثوم، ابنتي رسول الله من مكة يريد بهما المدينة، فنخس بهما الحويرث بن نقيد، فرمىٰ بهما إلىٰ الأرض، وقد قتله علي بن أبي طالب.

٤- ومقيس بن صبابة: وإنما أمر الرسول بقتله، لقتله الأنصارىٰ الذي كان قتل أخاه

خطأ[1]، ورجوعه إلىٰ قريش مشركاً، فقتله نميلة بن عبدالله، رجل من قومه، فقالت أخت مقيس في قتله:

لعمري لقد أخزىٰ نُمَيلةُ رهطَه وفَجَّع أضْيافَ الشتاء بمِقْيسِ
فلله عينا من رأىٰ مثل مِقْيسٍ إذا النُّفساءِ أصبحت لم تَخرَّس[2]

٥- وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وكانت ممن يؤذيه بمكة، فاستؤمن لها فأمنها، ثم بقيت حتىٰ أوطأها رجل من الناس فرساً في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها.
٦- وعكرمة بن أبي جهل، وكان قد هرب إلىٰ اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ، فأمنه، فخرجت في طلبه إلىٰ اليمن، حتىٰ أتت به رسول الله ﷺ، فأسلم». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٦ ـ ٢٥٧).
٧- وهند بنت عتبة، وقد أسلمت يوم الفتح وسيرد خبر إسلامها في الحديث عن البيعة العامة إن شاء الله. وقد أمر النبي ﷺ بقتلها لتمثيلها بالقتلىٰ يوم أحد مع نساء أخريات، قال ابن إسحاق: «ووقفت هند بنت عتبة، كما حدثني صالح بن كيسان، والنسوة اللاتي معها، يمثلن بالقتلىٰ من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والأنف، حتىٰ اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خَدَمًا وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحْشِياً، غلام جبير بن مطعم، وبقرت كبد حمزة، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها...» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٥٩).
٨- وهبار بن الأسود «فكان شديد الأذىٰ للمسلمين وعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت فنخس بعيرها فأسقطت، ولم يزل ذلك المرض بها حتىٰ ماتت، فلما كان يوم الفتح بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه أعلن بالإسلام فقبل منه فعفا عنه.
٩- وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلاطل قتله علي.
١٠- وذكر الحاكم أيضاً ممن أهدر دمه كعب بن زهير وقصته مشهورة[3]، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح.
١١- ووحشي بن حرب (وقد أمر النبي بقتله لقتله حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه يوم أحد).
١٢- وأرنب مولاة ابن خطل.

---

(١) «مقيس بن صبابة قُتِل أخوه هشام يوم بني المصطلق قتله رجل من المسلمين وهو يظنه مشركاً فقدم مقيس مظهراً للإسلام ليطلب دية أخيه، فلما أخذها عدا علىٰ قاتل أخيه فقتله ورجع إلىٰ مكة مشركاً فلما أهدر رسول الله ﷺ دمه قتل وهو بين الصفا والمروة» (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٨٩).
(٢) تَخَرَّس: التخريس: نوع من الطعام يصنع للمرأة بعد ولادتها. (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٧).
(٣) أما كعب بن زهير فقد أمر النبي ﷺ بقتله؛ لأنه «هجا النبي ﷺ وأقام يُشَبِّب بنساء المسلمين، فهدر النبي دمه، فجاءه (كعب) مستأمناً، وقد أسلم، وأنشده لاميته المشهورة... فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته» (الزركلي، ١٩٩٥م، ج٥، ص٢٢٦).

١٣- وأم سعد قتلت فيما ذكر ابن إسحاق». (ابن حجر، ١٤٢١هـ، ج٧، ص٦٠٤ – ٦٠٥).

«ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد هما القينتان اختلف في اسمهما أو باعتبار الكنية». (ابن حجر، ١٤٢١هـ، ج٧، ص٦٠٥).

<u>المطلب الخامس: صفة دخول رسول الله ﷺ مكة المكرمة يوم الفتح، وبعض أحداث ذلك اليوم:</u>

<u>١- دخوله ﷺ خاشعاً متواضعاً بدون إحرام يتلو سورة الفتح:</u>

دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة يوم الفتح في غير إحرام، دلت علىٰ ذلك أحاديث كثيرة منها ما ثبت في الصحيحين «أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعلىٰ رأسه المغفر! فلما نزعه جاءه رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقتله»»، فقال مالك: ولم يكن النبي ﷺ - فيما نرىٰ – والله أعلم – يومئذ محرمًا» (البخاري، ١٤٢٥هـ،حديث رقم ٤٢٨٦، ص٥٨٢)، و(مسلم، ١٤٢٢هـ، ح١٣٥٧، ص٣٣٥).

وما رواه عمرو بن حُريث عن أبيه، «قال: أن رسول الله ﷺ خطب الناس وعليه عمامة سوداء، وفي رواية أخرىٰ قال: كأني أنظر إلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ المنبر، وعليه عمامة سوداء قد أرخىٰ طرفها بين كتفيه» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٣٥٩، ص٣٣٥).

وقد دخلها ﷺ وهو علىٰ ناقته يقرأ سورة الفتح، فعن معاوية بن قرة قال: «سمعت عبدالله بن مغفل يقول: رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح علىٰ ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجع» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٨١، ص٥٨٢).

كما دخلها خاشعاً متواضعاً لله تعالىٰ حين رأىٰ ما أكرمه به من الفتح، فقد روىٰ ابن إسحاق قال: «حدثني عبدالله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ لما انتهىٰ إلىٰ ذي طوىٰ وقف علىٰ راحلته متعجزاً بشقة برد حِبَرة[1] حمراء، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأىٰ ما أكرمه به من الفتح، حتىٰ إن عثنونَهُ[2] ليكاد يمس واسطة الرحل» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٣).

وعن أنس قال: «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه علىٰ راحلته متخشعاً» (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٦٨ – ٦٩).

كما روي عن ابن مسعود: «أن رجلاً كلم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال: «هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد». (ابن كثير،

---

(١) برد حِبَرة: «الحِبَرَةُ والحَبَرَة: ضرب من بُرُود اليمن مُنَمَّر». (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٤، ص١٥٩).

(٢) عُثنونهُ: «العثنون من اللحية: ما ينبت علىٰ الذقن وتحته سِفْلاً، وقيل: هو كل ما فَضَل من اللحية بعد العارضين من باطنهما، ... وقيل اللحية كلها». (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٣، ص٢٧٦).

١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٩٢).

هذه الروايات تدل علىٰ شدة تواضع الرسول ﷺ لربه، واعترافه بفضل الله عليه ومنته، حيث أكرمه بذلك النصر المؤزر المبين، في ذلك اليوم العظيم، علىٰ عدوه الذي آذاه وعذبه وأخرجه، ومع ذلك فلم يدخل دخول الفاتحين المتكبرين، بل دخل دخول الخاشعين الخاضعين المتواضعين؛ لعلمه أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء، ويمنعه عمن يشاء.

٢ـ الجهة التي دخل منها رسول الله ﷺ وفي ذلك روايات منها:

ما رواه الواقدي ١٤٠٤هـ قال: «.... ومضىٰ رسول الله ﷺ فدخل من أذاخر» (ج٢، ص٨٢٥).

ورواه ابن إسحاق عن عبدالله بن نجيح قال: «... ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر، حتىٰ نزل بأعلىٰ مكة، وضربت له هناك قبته» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٥).

كما روىٰ هشام بن عروة عن أبيه: «أن عائشة رضي الله عنها أخبرته: أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلىٰ مكة» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٩٠، ٤٢٩١، ص٥٨٣). وكذلك رواه (مسلم ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٢٥٧، ص٣١١).

وفي رواية أخرىٰ: «أن رسول الله ﷺ دخل من كدا» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٨٠، ص٥٨٢).

والذي يترجح والله أعلم أنه دخل من أعلىٰ مكة من كداء، حيث أكثر الروايات علىٰ ذلك،وقد ذهب إلىٰ ذلك السهيلي حيث قال:

«كداء بفتح الكاف والمد، وهو بأعلىٰ مكة، وكدي وهو من ناحية عرفة، وبمكة موقع ثالث يقال له: كدا[1] بضم الكاف والقصر، وأنشدوا في كداء وكدي:

أقفـرت بعـد عبـد شـمس كـداء   فكـــدي فـــالركن فالبطحـــاء

وبكداء وقف إبراهيم عليه السلام حين دعا لذريته بالحرم، كذلك روىٰ سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: (ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ) [سورة إبراهيم:٣٧]. فاستجيبت دعوته، وقيل له: أذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً، ألا تراه يقول يأتوك، ولم يقل يأتوني، لأنها استجابة لدعوته، فمن ثم – والله أعلم – استحب النبي ﷺ إذا أتىٰ لمكة أن يدخلها من كداء، لأنه الموضع الذي دعا فيه إبراهيم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم» (السهيلي، "د . ت"، ج٤، ص٩٨ – ٩٩).

وقد روىٰ ابن عمر، قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح، رأىٰ النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم إلىٰ أبي بكر، فقال: «يا أبا بكر، كيف قال حسان؟ فأنشده قوله:

عـــدمتُ بنيتـــي إن لـــم تروهـــا   تثيـــر النقـــع موعـــدها كـــداء

---

(١) كُدَا: الثنية السفلىٰ مما يلي باب العمرة. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٥، ص٢١٨).

ينـازعــن الأسنـــة مسرجــــات يلطمهـــن بـــالخمر النســـاء

فقال: ادخلوها من حيث قال حسان». (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٦٦).

٣- منزل رسول الله ﷺ يوم الفتح وما بعدها حتىٰ ارتحل من مكة المكرمة:

حين فتح الله علىٰ رسوله ﷺ - مكة المكرمة، لم ينزل أي بيت من بيوتها، بل ضربت له قبته في الحجون، وكان يأتي منها إلىٰ المسجد، ولم يرد أنه نزل بيتاً غير بيت أم هاني حيث صلىٰ به ثمان ركعات، والروايات في منزل الرسول ﷺ يوم الفتح كثيرة منها ما رواه الزهري عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: «يا رسول الله أين تنزل غداً؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من منزل» ثم قال: «لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر»» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٨٢، ٤٢٨٣، ص٥٨٢).

وما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «منزلنا - إن شاء الله إذا فتح الله – الخيف[1] حيث تقاسموا علىٰ الكفر». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٨٤، ص٥٨٢).

٤- إجازته ﷺ جوار المرأة: فقد أجاز النبي ﷺ جوار أم هانئ، فقد روىٰ يحيىٰ بن يحيىٰ، قال: «قرأت علىٰ مالك بن أبي النضر، أن أبا مرة مولىٰ أم هانئ بنت أبي طالب، أخبره، أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب تقول: ذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره بثوب، قالت: فسلمت عليه فقال: «من هذه؟» قلت: أم هانئ بنت أبي طالب، قال: «مرحباً بأم هانئ» فلما فرغ من غسله قام فصلىٰ ثماني ركعات، ملتحفاً في ثوب واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله! زعم ابن أمي علي بن أبي طالب أنه قاتل رجلاً أجرته، فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ». قالت أم هانئ: وذلك ضحىٰ» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٣٣٦، ص١٧٣).

المطلب السادس: خروجه ﷺ إلى البيت الحرام وما قام به من أعمال خلال وجوده فيه:

بعد أن دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة واطمأن الناس خرج إلىٰ البيت الحرام وقام ببعض الأعمال فيه من أهمها:

١- الطواف بالبيت وتحطيم الأصنام: قال ابن إسحاق: عن صفية بنت شيبة، «أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة، واطمأن الناس، خرج حتىٰ جاء البيت، فطاف به سبعاً علىٰ راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضىٰ طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف علىٰ باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٨).

---

(١) الخيف: «ما ارتفع من موضع مجرىٰ السيل ومَسيل الماء وانحدر عن غِلَظِ الجبل، ... وخيف مكة موضع فيها عند منىٰ» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٩، ص١٠٣).

وقال موسىٰ بن عقبة: «ثم سجد سجدتين ثم انصرف إلىٰ زمزم فاطلع فيها ودعا بماء فشرب منها وتوضأ والناس يبتدرون وضوءه والمشركون يتعجبون من ذلك ويقولون ما رأينا ملكاً قط ولا سمعنا به - يعني مثل هذا – وأخر المقام إلىٰ مقامه اليوم وكان ملصقاً بالبيت» (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٩٩).

وقد دخل النبي مكة المكرمة، وخرج إلىٰ البيت وحوله الأصنام، فأخذ يطعنها بقوس في يده فتقع علىٰ الأرض مكسرة، وهو بهذا يقضي علىٰ كل معالم الشرك، ويمكّن للتوحيد في بلد الله الحرام.

فقد روىٰ أبو معمر، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النبي مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاث مئة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: (ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ) [سورة الإسراء: ٨١]، و(ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ) [سورة سبأ: ٤٩]» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٨٧، ص٥٨٢).

«وقد أقبل رسول الله يوم الفتح من أعلىٰ مكة علىٰ راحلته مردفاً أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن أبي طلحة من الحجبة، حتىٰ أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً طويلاً، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبدالله بن عمر أول من دخل، فوجد بلالاً وراء الباب قائماً، فسأله: أين صلىٰ رسول الله ؟ فأشار له إلىٰ المكان الذي صلىٰ فيه. قال عبدالله: فنسيت أن أسأله كم صلىٰ من سجده؟» (البخاري، ١٤٢٥هـ، ح٤٢٨٩، ص٥٨٣)، «فكان ابن عمر إذا دخل الكَعْبة مشىٰ قِبَل وجهه، وجعل الباب قِبَل ظهره، حتىٰ يكون بينه وبين الجدار الذي قِبَل وجهه ثلاثة أذرع، ثم يصلي، يتوخىٰ بذلك الموضع الذي قال له بلال». (الأزرقي، ١٤٠٣هـ، ج١، ص٢٦٩).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله لما قدم مكة، أبىٰ أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فَأَمَرَ بها فَأُخرجت، فأُخْرِج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال النبي : «قاتلهم الله، لقد علموا: ما استقسما بها قط». ثم دخل البيت، فكبر في نواحي البيت، ولم يصل فيه ». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٨٨، ص٥٨٢).

ويدفع التعارض بين رواية بلال أنه عليه السلام صلىٰ في الكعبة، وحديث ابن عباس أنه لم يصل فيها: «بأن الناس قد أخذوا بحديث بلال؛ لأنه أثبت الصلاة وابن عباس نفىٰ، وإنما يؤخذ بشهادة المثبت، لا بشهادة النافي... ؛ ولأن بلالاً كان مع النبي ، وابن عباس لم يكن معه، وإنما استند في نفيه إلىٰ أسامة تارة، وإلىٰ الفضل تارة، وقد وقع إثبات صلاته في الكعبة عن أسامة من رواية ابن عمر، ولهذا تترجح رواية بلال، إذ ليس فيها مثل هذا التعارض » . (السُّهيلي، "د . ت"، ج٧، ص١١٣).

٢- بر ووفاء: «ثم جلس رسول الله في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلىٰ الله عليك، فقال رسول الله : «أين عثمان بن طلحة؟ فدُعِيَ له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٨).

وذكر ابن سعد ١٤١٠هـ أن رسول الله قال يوم الفتح: «خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحدٌ إلا ظالم» (ج٢، ص١٠٤).

٣- الأذان من فوق الكعبة إعلاناً بزوال دولة الشرك وقيام دولة التوحيد: ثم أمر رسول الله بلالاً أن يؤذن بالصلاة من علىٰ الكعبة، روىٰ ذلك ابن هشام ١٤٢٧هـ فقال: «حدَّثني بعض أهل العلم: أن رسول الله دخل الكعبة ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتَّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتَّاب بن أسيد لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصىٰ، فخرج عليهم النبي ، فقال: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتَّاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع علىٰ هذا أحدٌ كان معنا، فنقول أخبرك» (ج٢، ص٢٥٩).

٤- البيعة العامة:

أ- بيعة الرجال:

وبعد أن أعلن العفو العام، وأمِن الناس،شرع يبايع الناس علىٰ السمع والطاعة لله ولرسوله، فقد روىٰ الطبري ١٤١١هـ قال: «... ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ، فجلس لهم – فيما بلغني – علىٰ الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ علىٰ الناس، فبايع رسول الله علىٰ السمع والطاعة لله ولرسوله – فيما استطاعوا – وكذلك كانت بيعتُه لمن بايع رسول الله من الناس علىٰ الإسلام». (ج٢، ص١٦١).

ب- بيعة النساء:

«فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش، فيهن هند بنت عتبة، متنقبة متنكرة لحدَثِها وما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها ذلك، فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله - فيما بلغني – تبايعنني علىٰ ألا تشركن بالله شيئاً! فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه علىٰ الرجال وسنؤتيكه، قال: ولا تسرقن، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلاً لي أم لا؟! فقال أبو سفيان – وكان شاهداً لما تقول-: أما ما أصبت فيما مضىٰ فأنت منه في حِلٍّ ، فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة! فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك! قال: ولا تزنين، قالت: يا رسول الله، هل تزني الحرة؟! قال: ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتىٰ استغرب (أي استلقىٰ علىٰ قفاه)، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل، قال: ولا تعصينني في معروف، قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف، فقال رسول الله لعمر: بايعهن، واستغفر لهن رسول الله، فبايعهن عمر، وكان رسول الله

□ لا يصافح النساء، ولا يمس امرأة ولا تمسه إلا امرأة أحلها الله له، أو ذات محرم منه» (الطبري، ١٤١١هـ، ج٢، ص١٦١، ١٦٢).

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لا والله، ما مست يد رسول الله □ يد امرأة قط غير أنه يبايعهن بالكلام» (البخاري، ١٤٢٥هـ، ح٥٢٨٨، ص٧٥٦)، و(مسلم، ١٤٢٢هـ، ح١٨٦٦، ص٤٩١).

وقد بايع رسول الله □ الناس علىٰ الإسلام والإيمان والجهاد، وبين أنه لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية. فعن مجاشع قال: أتيت النبي □ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله، جئتك بأخي لتبايعه علىٰ الهجرة، قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقلت: علىٰ أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه علىٰ الإسلام، والإيمان، والجهاد» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم٤٣٠٦، ص٥٨٥).

وقد روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي □ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٨٢٥، ص٣٨٣).

«والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة، فقد عز الإسلام، وثبتت أركانه ودعائمه، ودخل الناس فيه أفواجاً، أما الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام، أو من بلد لا يقدر أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلىٰ بلد يتمكن فيه من ذلك فهي باقية إلىٰ يوم القيامة، ولكن هذه دون تلك، فقد تكون واجبة، وقد تكون غير واجبة، كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلىٰ يوم القيامة ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة. (أبو شهبة، ١٤٠٩هـ، ج٢، ص٤٥٧)، قال تعالىٰ: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭪ □ى ﭫ ﭬ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □) [سورة الحديد: ١٠].

المبحث الثالث

مدة بقاء النبي في مكة المكرمة زمن الفتح، وبعض الأحداث التي حصلت خلالها

المطلب الأول: المدة التي بقيها النبي بمكة زمن الفتح:

أقام النبي بمكة زمن الفتح بضع عشرة ليلة يقصر الصلاة، فقد روىٰ أنس رضي الله عنه قال: «أقمنا مع النبي عشراً نقصر الصلاة» (البخاري، ١٤٢٥هـ، الحديث رقم ٤٢٩٧، ص٥٨٤).

وفي رواية أخرىٰ عن يحيىٰ بن أبي إسحاق، عن أنس بن مالك، قال: «خرجنا مع رسول الله من المدينة إلىٰ مكة، فصلىٰ ركعتين ركعتين، حتىٰ رجع، قلت: كم أقام بمكة؟ قال: عشراً» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٦٩٣، ص١٦٦).

وروىٰ ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقام النبي صلىٰ الله عليه وسلم بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٩٨، ص٥٨٤).

وروىٰ أيضاً: «أن رسول الله أقام سبعة عشر بمكة يَقْصِرُ الصلاة . قال ابن عباس: ومن أقام سبع عشرة قصر ومن أقام أكثر أتم» (أبو داود، "د.ت"، ج٢، حديث رقم ١٢٣٠، ص١٠).

وفي رواية عمران بن حصين، قال: «غزوت مع النبي وشهدتُ معه الفتح فأقام بمكة ثمان عشرة ليلة لا يصلي إلا ركعتين يقول يا أهل البلد صلوا أربعاً فإنا قوم سفر» (أبو داود، "د . ت"، ج٢، حديث رقم١٢٢٩، ص٩ – ١٠).

وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس قال: «أقام رسول الله عام الفتح خمسة عشر يقصر الصلاة» (أبو داود، "د . ت"، ج٢، حديث رقم ١٢٣١، ص١٠).

والمُلاحَظُ أن هذه الروايات اختلفت في مدة إقامته بين عشر، وخمس عشرة، وسبع عشرة، وثمان عشرة، وتسع عشرة.

وقد جمع البيهقي بين هذه الأقوال بأن من قال تسع عشرة عدَّ يومي الدخول والخروج، ومن قال سبع عشرة حذفهما، ومن قال ثماني عشرة عدّ أحدهما، أما رواية (خمسة عشر) فضعفها النووي في الخلاصة، وليس بجيد، لأن رواتها ثقات، ولم ينفرد بها ابن إسحاق، فقد أخرجها النسائي من رواية عراك بن مالك عن عبيدالله كذلك، وإذا ثبت أنها صحيحة فليحمل علىٰ أن الراوي ظن أن الأصل رواية سبعة عشر فحذف منها يومي الدخول والخروج، فذكر أنها خمسة عشر، واقتضىٰ ذلك أن رواية تسعة عشر أرجح الروايات، وبهذا اخذ إسحاق بن راهوية، ويرجحها أيضاً أنها أكثر ما وردت به الروايات الصحيحة...» (ابن حجر، ١٤٢١هـ، ج٢، ص٦٥٤).

المطلب الثاني: بعض خطب النبي خلال مدة الفتح:

أقام رسول الله □ في مكة المكرمة زمن الفتح تسع عشرة ليلة – علىٰ أصح الأقوال كما رجحه البيهقي في الفقرة السابقة – خطب فيها □ عدة خطب منها:

الأولىٰ: كانت يوم الفتح، بين فيها دية القتل الخطأ شبه العمد، وأسقط مآثر الجاهلية، وثاراتها، واستثنىٰ من ذلك سدانة البيت وسقاية الحاج، فقد روىٰ ابن إسحاق قال: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله □ قام علىٰ باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعىٰ فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدِّية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ) [سورة الحجرات: ١٣]، ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٨).

الثانية: كانت في الغد من يوم الفتح أعلن فيها رسول الله □ حرمة مكة، وحرمة شجرها، وحرمة القتال فيها، ففي الصحيحين من حديث أبي شريح العدوي: «أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلىٰ مكة: ائذن لي أيها الأمير، أحدثك قولاً قام به رسول الله □ الغد يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به: حمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجراً، فإن أحدٌ ترخص لقتال رسول الله فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أَذِن له ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»»، فقيل لأبي شريح: ماذا قال لك عمرو؟ قال: قال أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً، ولا فاراً بدم، ولا فاراً بِخَرْبة» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٩٥، ص٥٨٣) و(مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٣٥٤، ص٣٣٤).

الثالثة: بين فيها □ أن من قُتِل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يُوْدَىٰ وإما أن يُقَاد، فعن أبي سلمة: «أنه سمع أبا هريرة يقول: إن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث، عام فتح مكة، بقتيل منهم قتلوه، فأخبر بذلك رسول الله □ فركب راحلته فخطب فقال: إن الله عز وجل حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي، ألا وإنها أُحلت لي ساعة من النهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرامٌ، لا يُخْبَطُ شوكها، ولا يعضد شجرها، ولا يَلْتَقِط ساقطتها إلا منشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يُعْطىٰ (يعني الدية) وإما أن يُقَاد (أهل القتيل) قال: فجاء رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاة فقال: اكتب لي يا رسول الله! قال: اكتبوا لأبي شاة، فقال رجل من قريش: إلا الإذْخر، فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله □: إلا الإذخر» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٣٥٥، ص٣٣٤).

وفي رواية الإمام أحمد عن أبي شريح الهذلي أن الرسول □ غضب غضباً شديداً لقتل الهذلي، وأكد على حرمة مكة المكرمة، وزاد فيها فقال: «وإن أعتىٰ الناس علىٰ الله عز وجل ثلاثة: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل في الجاهلية (أي بثأر في الجاهلية) وإني والله لأدين هذا الرجل الذي قتلتم فوداه □ »

(البنا، "د.ت"، ج٢١، ص١٦٠).

الرابعة: بين فيها عليه الصلاة والسلام أنه لا حلف في الإسلام، وأنه لا هجرة بعد الفتح، والمسلمون يد واحدة علىٰ من سواهم...، فقد روىٰ عبدالله بن عمر قال: «لما دخل رسول الله مكة عام الفتح قام في الناس خطيباً فقال يا أيها الناس إنه ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا حلف في الإسلام. (وفي رواية ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام) (وفي رواية أيضاً ولا هجرة بعد الفتح، والمسلمون يد واحدة علىٰ من سواهم تكافأ دماؤهم يجير عليهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم ترد سراياهم علىٰ قعدهم، لا يقتل مؤمن بكافر، دية الكافر نصف دية المسلم، لا جلب ولا جنب. (زاد في رواية ولا شغار في الإسلام) ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في ديارهم». (البنا، "د.ت"، ج٢١، ص١٦٠ – ١٦١).

ومعنىٰ لا جَلَب ولا جَنَب: «الجلب يكون في شيئين أحدهما في الزكاة، وهو أن يقدم المصدق علىٰ أهل الزكاة فينزل موضعاً، ثم يرسل من يجلب إليه الأموال من أماكنها؛ ليأخذ صدقتها، فنهىٰ عن ذلك وأمر أن تؤخذ صدقاتهم علىٰ مياههم وأماكنهم، والثاني أن يكون في سباق، وهو أن يتبع الرجل فرسه فيزجره ويجلب عليه ويصيح حثّاله علىٰ الجري، فنهىٰ عن ذلك» (ابن الأثير، "د.ت"، ج١، ص٢٨١).

«والجنب في السباق أن يجنب فرساً إلىٰ فرسه الذي يسابق عليه فإذا فتر المركوب تحول إلىٰ المجنوب، وهو في الزكاة أن ينزل العامل بأقصىٰ مواضع أصحاب الصدقة ثم يأمر بالأموال أن تجنب إليه، أي تحضر، فنهوا عن ذلك. وقيل هو أن يجنب رب المال بماله أي يبعده عن موضعه حتىٰ يحتاج العامل إلىٰ الإبعاد في إتباعه وطلبه». (ابن الأثير، "د.ت"، ج١، ص٣٠٣).

كما أخبر أنه لا تغزا مكة المكرمة بعد عام الفتح، فقد روىٰ الحارث بن مالك قال: «سمعت رسول الله يوم فتح مكة، يقول: لا تغزا بعد هذا اليوم إلىٰ يوم القيامة، وإنما أراد النبي - والله أعلم – أنها لا تغزىٰ بعده علىٰ كفر أهلها فكان كما قال ». (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٧٥).

كما بين أنه لا يقتل قرشي بعد فتح مكة المكرمة صبراً، فقد روىٰ عبدالله بن مطيع عن أبيه، قال: «سمعت رسول الله يقول يوم فتح مكة: لا يقتل قرشي صبراً بعد هذا اليوم، إلىٰ يوم القيامة». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٧٨٢، ص٤٦٦).

«وهذا وإن كان علىٰ طريق الخبر فالمراد به والله أعلم النهي وفيه أيضاً إشارة إلىٰ إسلام أهل مكة وأنها لا تغزا أبداً كما روينا في حديث الحارث بن مالك بن برصاء». (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٧٦).

وهكذا بين الكثير من الأحكام في خطبة خلال فترة فتح مكة المكرمة.

المطلب الثالث: ما نزل من القرآن في فتح مكة المكرمة:

«لم يتحدث القرآن عن فتح مكة كثيراً، كما تحدث عن غزوات كبدر، وأحد، والأحزاب، وغيرها، ولذا يعتقد البعض أن القرآن أوجز في حديثه عن فتح مكة، والحقيقة أن غزوة الحديبية كانت هي مقدمة الفتح، والدروس التي أشار إليها القرآن في

سورة الفتح كانت المقدمات الأساسية لهذا الفتح المبين، فلما تم الفتح – فتح مكة – أشار إليه القرآن الكريم مبيناً تمام النعمة التي أنعمها الله علىٰ المسلمين في الحديبية». (آل عابد، ١٤٠٩هـ، ج٢، ص٥٦٥).

ومن الآيات التي أشارت إلىٰ فتح مكة شرفها الله ما يلي:

أولاً: قوله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ). [سورة الممتحنة:١].

فقد نزلت والرسول ﷺ يستعد للخروج لفتح مكة، وكان سبب نزولها ما ذكر سابقاً (ص٣٤) من هذه الدراسة، من قصة حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه - حينما بعث بكتاب إلىٰ أناس من مشركي مكة يخبرهم فيه بما عزم عليه الرسول ﷺ من غزوهم.

ثانياً: سورة النصر:

مما نزل من القرآن الكريم في فتح مكة المكرمة سورة النصر حيث نزلت كاملة وهي:

قال تعالىٰ: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ) [سورة النصر: ١ – ٣].

فقد روىٰ عبيد الله بن عبدالله بن عتبة قال: «قال لي ابن عباس:تعلم (وقال هارون: تدري) آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم، إذا جاء نصر الله والفتح. قال: صدقت ». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٣٠٢٤، ص٧٦٣).

كما روت عائشة – رضي الله عنها – قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول، قبل أن يموت: «سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك». قالت: قلت: يا رسول الله! ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: «جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها (إذا جاء نصر الله والفتح) إلىٰ آخر السورة». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٤٨٤، ص١٢٠).

ثالثاً: قول الله تعالىٰ: (ﯜ □ ﯼ ﯽ ﯾ □) [سورة الحديد: ١٠].

قال ابن كثير ١٤٢١هـ: «والجمهور علىٰ أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة، وعن الشعبي وغيره، أن المراد بالفتح هاهنا صلح الحديبية». (ص١٢٩٧).

ثم قال في تفسير قول الله تعالىٰ: « (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) أي: «لا يستوي هذا ومن لم يفعل كَفِعْلِه، وذلك أن قبل فتح مكة، كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح، فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ولهذا قال تعالىٰ: (ﯼ ﯽ ﯾ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □). يعني المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثوابُ علىٰ ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء». (ابن كثير، ١٤٢٤هـ، ص١٢٩٧).

«ثم ختم الله الآية بقوله: (□ □ □ □ □).

أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول، وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة

والضيق». (ابن كثير، ١٤٢٤هـ، ص١٢٩٧).

المطلب الرابع: بَعْثُ البعوث والسرايا للقضاء على بقايا الشرك في المناطق المجاورة لمكة

بعد أن أسلمت قريش، وتم تطْهيرَ البيت الحرام من الأصنام، وأزيلت بقايا الشرك من مكة المكرمة، بث النبي ﷺ السرايا في كل وجه، ليغيروا علىٰ من لم يكن علىٰ الإسلام، ويهدموا ما تبقىٰ من أصنام تعظمها العرب، وسيرد ذكر أهم تلك السرايا ضمن المطالب التالية:

أولاً: سرية خالد بن الوليد – رضي الله عنه – لهدم العزى:

قال ابن إسحاق: «ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلىٰ العزىٰ، وكانت بنخلة[١]، وكانت بيتاً عظيماً يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من بني سُلَيم، حلفاء بني هاشم، فلما سمع صاحبها السُّلمي بمسير خالد إليها، علق عليها سيفه، وأسند في الجبل الذي هي فيه وهو يقول:

أيا عُزَّ شُدِّي شدَّة لا شوىٰ لها ... علىٰ خالد ألقِي القناع وشمري

أيا عزٌّ إن لم تقتلي المرء خالداً ... فبوئي بإثم عاجل أو تنصري

فلما انتهىٰ إليها خالد هدمها، ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ » . (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٧٤).

وقد رُوِيَ أنه حين رجع إلىٰ النبي ﷺ قال له: «هُدِمَتْ؟ قال: نعم يا رسول الله.فقال رسول الله ﷺ: هل رأيت شيئاً مّا؟ قال: لا. قال: فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها، فرجع خالد وهو متغيظ، فلما انتهىٰ إليها جرد سيفه، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة، وناشرة الرأس... قال: فضربها بالسيف فجزلها[٢] باثنين، ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: نعم، تلك العُزَّىٰ وقد يئست أن تُعبدَ ببلادكم أبداً. ثم قال خالد: أي رسول الله، الحمد لله الذي أكرمنا وأنقذنا من الهلكة! إني كنت أرىٰ أبي يأتي إلىٰ العُزَّىٰ بحِتْره[٣]، مائة من الإبل والغنم، فيذبحها للعزىٰ، ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا مسروراً، فنظرت إلىٰ ما مات عليه أبي، وذلك الرأي الذي كان يُعَاش في فضله، كيف خُدع حتىٰ صار يذبح لحجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا الأمر إلىٰ الله، فمن يسره للهدىٰ تيّسر، ومن يسّره للضلالة كان فيها. وكان هدمها لخمس ليالٍ بقين من رمضان سنة ثمان» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٣،

---

(١) نخلة: موضع علىٰ ليلة من مكة، وهي التي ينسب إليها بطن نخلة، وهي التي ورد فيها الحديث ليلة الجن. (البكري، ١٤٠٣هـ، ج٤، ص١٣٠٤).

(٢) فجزلها: قطعها نصفين. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١١، ص١٠٨).

(٣) الحِتْرُ: العطية اليسيرة. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٤، ص١٦٤).

ص٨٧٣ – ٨٧٤).

وهكذا قُتِلَت العُزَّىٰ، وهُدِم بيتها، وأحسَّ خالد بن الوليد – رضي الله عنه – بما أكرمه الله به من الإسلام، ثم عادت به الذاكرة ليتذكَّر والدَه، وما كان يُقَدِم للعزَّىٰ من إبل وغنم، ويقيم عندها أياماً ثم يعود مسروراً، ثم يتعجب خالد رضي الله عنه من حال والده غيره من عبدة الأصنام في وقته! كيف خُدِعُوا بتلك الأحجار التي لا تضر ولا تنفع، مع أنهم أصحاب عقول رزينة راجحة، ثم يَذْكر ما مات عليه والده من الشرك، ويتحسر علىٰ ذلك. فيبيّن له الرسول أن أمر الخلق بيد الله عز وجل، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

ثانياً: سرية عمرو بن العاص – رضي الله عنه – لهدم سُوَاع:

«وبعث عمرو بن العاص إلىٰ صنم هذيل – سواع – فهدمه، فكان عمرو يقول: انتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ فقلت: هَدْم سواع. فقال: ما لك وله؟ فقلت: أمرني رسول الله ! قال: لا تقدر علىٰ هدمه، قلت: لِمَ؟ قال: يمتنع، قال عمرو: فدنوت إليه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا خزائنه، ولم يجدوا فيه شيئاً، ثم قال للسادن: كيف رأيت: قال: أسلمت لله» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٧٠).

ثالثاً: سرية الطفيل بن عمرو الدَّوسي – رضي الله عنه – لهدم ذي الكفين:

«ثم سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلىٰ ذي الكفين صنم عمرو بن حممة الدوسي في شوال سنة ثمان من مهاجر رسول الله ، قالوا: لما أراد رسول الله السير إلىٰ الطائف بعث الطفيل بن عمرو إلىٰ ذي الكفين صنم عمرو بن حممة الدوسي يهدمه وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف فخرج سريعاً إلىٰ قومه فهدم ذا الكفين وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حششت النار في فؤادكا

قال وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً فوافوا النبي بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدِم بدبابة ومنجنيق وقال يا معشر الأزد من يحمل رايتكم فقال الطفيل من كان يحملها في الجاهلية النعمان بن بازية اللهي، قال: أصبتم» (ابن سعد، "د. ت"، ج٢، ص١٥٧).

رابعاً: سرية سعد بن زيد الأشهلي - رضي الله عنه- إلى مناة:

«ثم سرية سعد بن زيد الأشهلي إلىٰ مناة في شهر رمضان سنة ثمان من مهاجر رسول الله قالوا بعث رسول الله حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلي إلىٰ مناة وكانت بالمشلل للأوس والخزرج وغسان فلما كان يوم الفتح بعث رسول الله سعد بن زيد الأشهلي يهدمها فخرج في عشرين فارساً حتىٰ انتهىٰ إليها وعليها سادن فقال السادن ما تريد قال هدم مناة قال أنت وذاك فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج إليها امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها فقال السادن مناة دونك بعض غضباتك ويضربها سعد بن زيد الأشهلي وقتلها ويقبل إلىٰ الصنم معه أصحابه

فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئاً وانصرف راجعاً إلىٰ رسول الله وكان ذلك لست بقين من شهر رمضان» (ابن سعد، "د.ت"، ج٢، ص١٤٦).

وقد ذكر الله تعالىٰ بعض هذه الأصنام في قوله تعالىٰ: (ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ) [سورة النجم: ١٩ – ٢٠].

وبعد أن هُدِّمت تلك الأصنام التي كان لها في نفوس العرب مكانة عظيمة ومنزلة عالية «نادىٰ منادي رسول الله بمكة: من كان يؤمن بالله وبرسوله فلا يَدَعنَّ في بيته صنماً إلا كسره. قال: فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام، وكان عكرمة بن أبي جهل حين أسلم لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشىٰ إليه حتىٰ يكسره ...» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٧٠).

خامساً: مسير خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد الفتح إلى بني جذيمة من كنانة:

وذلك أن رسول الله لما افتتح مكة بعث سرايا تدعو إلىٰ الله عز وجل حول مكة، وكان منها سرية خالد بن الوليد إلىٰ بني جذيمة، فقد روىٰ سالم عن أبيه قال: «بعث النبي خالد بن الوليد إلىٰ بني جذيمة، فدعاهم إلىٰ الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلىٰ كل رجل منا أسيره، حتىٰ إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتىٰ قدمنا علىٰ النبي فذكرناه، فرفع النبي يده فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم٤٣٣٩، ص٥٨٩، ٥٩٠).

«ودعا رسول الله علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: يا علي، اخرج إلىٰ هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج علي حتىٰ جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله فوَدَىٰ لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال، حتىٰ إنه ليَدِي لهم ميلغة الكلب، حتىٰ إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه، بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي رضوان الله عليه حين فرغ منه: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يُودَ لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطاً لرسول الله ، مما يعلم ولا تعلمون، ففعل. ثم رجع إلىٰ رسول الله فأخبره الخبر، فقال: أصبت وأحسنت، قال: ثم قام رسول الله فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتىٰ إنه ليرىٰ مما تحت منكبيه، يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٦٩، ٢٧٠).

وبذلك أزيلت أكبر مراكز الوثنية، وظهر الحق، واندحر الباطل، وعلم أهل مكة ومن جاورهم في جزيرة العرب أنه لا إله إلا الله، الذي بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، وأن محمداً عبده ورسوله، الصادق المصدوق، المبعوث رحمة للعالمين، فآمن الناس بدين الله، ودخلوا فيه أفواجاً، فقد كانت العرب تنتظر نهاية الصراع بين المسلمين والمشركين من قريش، فلما كان الفتح أقبلت العرب بجموعها، وبادرت بإسلامها. فقد روىٰ عمرو بن سلمة قال: «كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحىٰ إليه، أو: أوحي إليه بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام، وكأنما يُغْرَىٰ في صدري، وكانت العرب

تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنْ ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم ...» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٣٠٢، ص٥٨٤).

المطلب الخامس: إسلام بعض زعماء وسادات قريش:

لقد كان فتح مكة شرفها الله خيراً لأهلها ولغيرهم، فقد دخل أهل مكة في الإسلام أفراداً وجماعات، فمنهم من أسلم والنبي ﷺ في طريقه إلىٰ مكة، وكثير منهم أسلموا يوم الفتح، وبقي أناس فروا من رسول الله ﷺ ثم شرح الله صدورهم للإسلام، فجاءوا مسلمين. ومنهم:

أولاً: سهيل بن عمرو - رضي الله عنه -:

كان ممن أسلم بعد فتح مكة المكرمة، وقد حدَّث بقصة إسلامه فقال: «ولما دخل رسول الله ﷺ وظهر، انقحمت بيتي وأغلقت علي بابي، وأرسلت إلىٰ بني عبدالله بن سهيل أن أطلب لي جواراً من محمد، وإني لا آمن أن أقتل، وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه، فليس أحد أسوأ أثر مني، ... فذهب عبدالله بن سهيل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تؤمنه؟ فقال: نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر! ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج، فلعمري، إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأىٰ ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع! فخرج عبدالله إلىٰ أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ، فقال سهيل: كان والله براً صغيراً، وكبيراً! فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلىٰ حنين مع النبي ﷺ وهو علىٰ شركه حتىٰ أسلم بالجعرانة». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٤٦ – ٨٤٧).

وقد حسن إسلام سهيل بن عمرو رضي الله عنه وكان مكثراً من الأعمال الصالحة، يقول الزبير بن بكار: «كان سهيل بعد كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلىٰ الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتىٰ شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً علىٰ كردوس يوم اليرموك». (الذهبي، ١٤١٧هـ، ج٢، ص١٩٥).

ثانياً: صفوان بن أمية - رضي الله عنه -:

روىٰ ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: «خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلىٰ اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هارباً منك، ليقذف نفسه في البحر، فأمنه، صلىٰ الله عليك، قال: هو آمن، قال: يا رسول الله، فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتىٰ أدركه، وهو يريد أن يركب في البحر، فقال: يا صفوان، فداك أبي وأمي، الله الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان من رسول الله ﷺ وقد جئتك به، قال: ويحك! اغرب عني فلا تكلمني، قال: أي صفوان، فداك أبي وأمي، أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال: إني أخافه علىٰ نفسي، قال: هو أحلم من ذاك وأكرم، فرجع معه، حتىٰ وقف به علىٰ رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني قال:

صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار أربعة أشهر». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٦١ – ٢٦٢).

«وخرج رسول الله قبل هوازن، وخرج معه صفوان، وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه، مائة درع بأداتها، فقال: طوعاً أو كرهاً؟ قال رسول الله : عارية مؤداة، فأعاره، فأمره رسول الله فحملها إلىٰ حنين فشهد حنيناً والطائف، ثم رجع رسول الله إلىٰ الجعرانة، فبينما رسول الله يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلىٰ شعب ملئ نعماً وشاءً ورعاءً فأدام إليه النظر، ورسول الله ، يرمقه فقال: أبا وهب: يعجبك هذا الشعب؟ قال نعم، قال: هو لك وما فيه، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله! وأسلم مكانه». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٥٤ – ٨٥٥).

وهكذا تدرج النبي مع صفوان بن أمية، في دعوته إلىٰ الإسلام، حيث أعطاه الأمان أولاً، ثم أمهله أربعة أشهر، ثم أعطاه عطاءً عظيماً، حتىٰ قال صفوان عن ذلك: «والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتىٰ إنه لأحب الناس إليّ». (مسلم، ١٤٢٢هـ، ح٢٣١٣، ص٥٩٧). وهذا هو منهج التربية الإسلامية في الدعوة إلى الله، وهو ما ينبغي أن يسير عليه الدعاة إلى الله.

ثالثاً: عكرمة بن أبي جهل - رضي الله عنه -:

«بعد أن دخل الجيش الإسلامي مكة، وهَزَم من قاتلهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ومن معه من المسلمين، كان مع من هُزِم عكرمة بن أبي جهل فهرب إلىٰ اليمن، فجاءت زوجته أم حكيم إلىٰ الرسول فقالت: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلىٰ اليمن، وخاف أن تقتله فأمنه، فقال رسول الله هو آمن، فخرجت أم حكيم في طلبه... فأدركته وقد انتهىٰ إلىٰ ساحل من سواحل تهامة ... فجعلت تلح إليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لا تهلك نفسك، فوقف لها حتىٰ أدركته فقالت: إني قد استأمنت لك محمداً قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمنك، فرجع معها... فلما دنا من مكة قال رسول الله لأصحابه يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت، وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها، فتأبىٰ عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، فيقول: إن أمراً منعك مني لأمر كبير، فلما رأىٰ النبي عكرمة وثب إليه وما علىٰ النبي رداء فرحاً بعكرمة، ثم جلس رسول الله فوقف بين يديه، وزوجته منتقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني، فقال رسول الله : صدقت، فأنت آمن! فقال عكرمة، فإلىٰ ما تدعو يا محمد؟ قال: أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة – وتفعل، وتفعل، حتىٰ عد خصال الإسلام، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلىٰ الحق، وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلىٰ ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرنا براً، ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٥١ – ٨٥٢).

وهكذا أسلم عكرمة بن أبي جهل – رضي الله عنه – وشهد شهادة الحق، وأصبح من جند الإسلام، بعد أن كان من ألد خصومه، وها هو ذا ومن اللحظة الأولىٰ يطلب من رسول الله أن يعلمه خير شيء يقوله، فيقول: «يا رسول الله، علمني خير شيء أقوله، قال: تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله. قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله : تقول: أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر مجاهد، فقال عكرمة ذلك». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٥٢).

وقد سر النبي بإسلام عكرمة سروراً عظيماً، يظهر ذلك من خلال استقباله له وتبسطه معه في الكلام حتىٰ أنه قال له حين إسلامه: «لاتسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه، فقال عكرمة: فإني أسالك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك، أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله : اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلىٰ موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض، في وجهي أو وأنا غائب! فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله. ثم قال عكرمة: أما والله يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقتها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله، ثم اجتهد في القتال حتىٰ قتل شهيداً». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢،ص٨٥٢ – ٨٥٣).

لقد غير الإسلام حياة عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه تغييراً كاملاً، نقله من الجاهلية وضلالاتها وظلماتها إلىٰ الإسلام وهدايته وأنواره، ولم يكن هذا حال عكرمة وحده – رضي الله عنه – بل حصل ذلك مع غيره ممن أسلم، فتلك زوجه – رضي الله عنها – تخرج إلىٰ شاطئ البحر لترد زوجها بعد أن أخذت له الأمان من رسول الله ، وحينما يريدها في الطريق ترفض ذلك، وتقول له: أنت كافر وأنا مسلمة، فرغم تلك التضحية الكبيرة؛ إلا أنها تعلم أن الإسلام يحرم أمراً كهذا فتمتنع منه، وكذا فضالة بن عمير – رضي الله عنه – جاء إلىٰ المسجد الحرام يريد قتل النبي ، فلما أسلم وفي طريق العودة إلىٰ بيته كان يمر علىٰ امرأة يتحدث إليها، فدعته، فأبىٰ ذلك ورفضه، وبين سبب ذلك وأنه الإسلام، وكان ذلك في يوم إسلامه: «فكانوا إذا أسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها وعاداتها وتقاليدها إلىٰ الإسلام بخصائصه وعاداته وأوضاعه، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث علىٰ أثر قبول الإسلام من غير تأن». (الندوي، ١٤٠٤هـ، ص٩٦). وقد أسلم غيرهم كابن الزبعري وهبار بن الأسود، وحويطب بن عبد العزى وآخرين.

المطلب السادس: إقامة حد السرقة وبيان بعض الأحكام:

خلال مدة الفتح التي لم تتجاوز التسعة عشر يوماً بين رسول الله كثيراً من الأحكام والتشريعات، وأقام حدوداً، وأثبت أموراً مما كان يعمله أهل الجاهلية كالسقاية والحجابة، والأحلاف، وأبطل أخرىٰ كالتفاخر بالآباء والأجداد، والربا، وغيرها من مآثر الجاهلية التي تتنافىٰ مع الإسلام وقد ورد ذكر بعض ذلك في خطبه ، وما لم يرد ذكره في ذلك الموضع يذكر بإذن الله تعالىٰ فيما يلي:

١-إقامة حد السرقة:

أقام رسول الله □ حد السرقة في المرأة المخزومية التي سرقت، وذلك خلال مدة إقامته في مكة المكرمة أيام الفتح، فقد حدَّث الزهري قال: «أخبرني عروة بن الزبير: أن امرأة من قريش سرقت في عهد رسول الله □ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلىٰ أسامة بن زيد يستشفعونه. قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله □، فقال: «تكلمني في حد من حدود الله». قال أسامة: استغفر الله لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله □ خطيباً، فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر رسول الله □ بتلك المرأة، فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت، قالت عائشة: فكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلىٰ رسول الله □». (البخاري، حديث رقم ٤٣٠٤، ص٥٨٤ ، ٥٨٥).

٢- بيان الحكم في ولد الزنا:

بيَّن النبي □ خلال غزوة الفتح، وخلال مدة بقائه في مكة المكرمة الكثير من الأحكام من ضمنها الحكم في ولد الزنا، فقد روىٰ عبدالله بن الزبير أن عائشة قالت: «كان عتبة بن أبي وقاص عهد إلىٰ أخيه سعد: أن يقبض ابن وليدة زمعة، وقال عتبة: إنه ابني، فلما قدم رسول الله □ مكة في الفتح، أخذ سعد بن أبي وقاص ابن وليدة زمعة، فأقبل به إلىٰ رسول الله □، وأقبل معه عبد بن زمعة، فقال سعد بن أبي وقاص، هذا ابن أخي، عهد إلي أنه ابنه، قال عبد بن زمعة: يا رسول الله، هذا أخي، هذا ابن زمعة، ولد علىٰ فراشه. فنظر رسول الله □ إلىٰ ابن وليدة زمعة، فإذا أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص، فقال رسول الله □: «هو لك، هو أخوك يا عبد بن زمعة». من أجل أنه ولد علىٰ فراشه، وقال رسول الله □: «احتجبي عنه يا سودة» لما رأىٰ من شبه عتبة بن أبي وقاص».

قال ابن شهاب: قالت عائشة: قال رسول الله □ «الولد للفراش وللعاهر الحجر». وقال ابن شهاب: «وكان أبو هريرة يصيح بذلك». (البخاري، ١٤٢٥هـ، الحديث رقم ٤٣٠٣، ص٥٨٤).

٣- بيان الحكم في نكاح المتعة:

ومما بيَّن حكمه النبي □ نكاح المتعة، فقد روىٰ قيس، قال: «سمعت عبدالله يقول: كنا نغزو مع رسول الله □، ليس لنا نساء. فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلىٰ أجل، ثم قرأ عبدالله: (يا ک گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ ںں ڻ ڻ ڻ) [سورة المائدة: ٨٧] » (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٤٠٤، ص٣٤٣، ٣٤٤).

وبعد أن رخص النبي □ في نكاح المتعة، وكان ذلك في فتح خيبر، وفي فتح مكة شرفها الله، حرمه بعد الترخيص في المرتين، وكان آخر تحريم له في فتح مكة، فقد روىٰ الربيع بن سبرة الجهني، أن أباه حدثه، أنه كان مع رسول الله □ فقال: «يا أيها الناس! إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلىٰ يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً».

(مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٤٠٦، ص٣٤٤، ٣٤٥).

٤ـ كما حرم رسول الله بيع الخمر، والميتة، والخنزير والأصنام،

«فعن جابر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله يقول عام الفتح وهو بمكة: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها يطلىٰ بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله عند ذلك: «قاتل الله اليهود إن الله لما حرم شحومها جملوه (أي أذابوه)، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم٢٢٣٦، ص٢٩٣). (ومسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم١٥٨١، ص٤٠٤).

وقد بين الكثير من الأحكام في خطبه التي خطبها أيام الفتح، وخلال فترة بقائه في مكة المكرمة، فقد بقي فيها بضعة عشر يوماً يعلم الناس أمور دينهم وينظم شؤونهم، ويصلح ما فسد من أمورهم، ويزيل آثار الشرك والوثنية والجاهلية، ويرسي دعائم التوحيد والدين القويم.

وهكذا تم هذا الفتح العظيم الذي غير مسار الدعوة الإسلامية، وزادها قوة إلىٰ قوتها، والمتأمل في أحداث الفتح يرىٰ فيه سمو الهدف، والذي يؤدي بدوره إلىٰ سمو الوسائل والأخلاق والأفعال، كما يرىٰ ويدرك قيمة الجهاد والتضحية في سبيل الله لإعلاء كلمته، ولنشر دينه في الأرض.

يقول البوطي ١٤١١هـ: «الآن وقد اطلعت علىٰ قصة فتح مكة تستطيع أن تدرك قيمة الهجرة منها قبل ذلك، تستطيع أن تدرك قيمة التضحية بالأرض والوطن والمال والأهل والعشيرة في سبيل الله...

وتستطيع أن تدرك تماماً قيمة الجهاد والاستشهاد والمحن التي تمت قبله، إن شيئاً من ذلك لم يذهب بدداً، ولم ترق نقطة دم لمسلم هدراً... ولكن كل ذلك كان جارياً وفق حساب.. وكل ذلك كان يؤدي أقساطاً من ثمن الفتح والنصر.. وتلك هي سنة الله في عباده، لا نصر بدون إسلام صحيح، ولا إسلام بدون عبودية لله، ولا عبودية بدون تضحية وضراعة علىٰ بابه وجهاد في سبيله ». (ص٣٦٤).

المبحث الرابع

أبرز نتائج فتح مكة المكرمة

كان لفتح مكة شرفها الله نتائج كثيرة منها:

١- «دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء علىٰ جيوب الشرك في حنين والطائف، ومن ثم إلىٰ العالم أجمع» (الصلابي، ١٤٢٥هـ، ج٢،ص١٢٦٠).

وهناك أعلن الرسول ﷺ قيام دولة التوحيد في قلب عاصمة الشرك ومستودع الأصنام، أعلنها ﷺ بلسانه حين وقف علىٰ باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وأمر مناديه أن ينادي في الناس: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في بيته صنماً إلا حطمه.

وأعلنها بيده حين ضرب الأصنام بقوسه، فأخذت تتهاوىٰ وتتساقط علىٰ وجوهها، وهو يقول: (ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ) [سورة الإسراء: ٨١]، (ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ) [سورة سبأ: ٤٩].

وأعلنها بواسطة مؤذنه بلالاً فأذن فوق ظهر الكعبة، وأمر بإخراج الصور منها، وبعث السرايا لتحطم بيوت الآلهة، فأرسل خالد بن الوليد ... لهدم العزىٰ، وعمرو بن العاص ... لهدم سواع، وسعد بن زيد الأشهلي ... إلى مناة...» (الوكيل، ١٤٠٨هـ، ص٢٦٧).

٢- من نتائج فتح مكة المكرمة تصفية الكيان السياسي والديني للعرب الوثنيين في الجزيرة العربية، وعلىٰ رأسهم قريش التي كانت العرب تدين بدينها، فحينما تحطمت أصنامها ورأىٰ العرب أنها عجزت عن حماية أنفسها، فضلاً عن حماية غيرها، علم الناس بطلانها، فدخلوا في الدين الجديد، وبهذا قضي علىٰ الكيان السياسي والديني لقريش الوثنية، لتظهر قريش جديدة، تدين بدين الله تعالىٰ وتناصره وتنافح دونه، وتبذل في سبيله الأموال والأرواح، وتفتخر بانتسابها إليه، وتجوب أرض الله مجاهدة في سبيل الله، لإظهار كلمته وإعلاء دينه.

٣- «وبعد فتح مكة وتحقق أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، برزت قوة كبرىٰ في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام، ثم الانطلاق إلىٰ الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه» (عرموش، ١٤١٩هـ، ص١٢٩).

٤- كما كان لهذا الفتح آثاراً سياسية واجتماعية تمثلت في رفقه ﷺ بالناس، وحرصه علىٰ الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر علىٰ بلدهم، وتعيين من يعلمهم، ويفقههم في دينهم، فقد أبقىٰ ﷺ - معاذ بن جبل – رضي الله عنه – في مكة بعد انصرافه عنها ليصلي بالناس ويفقههم في دينهم، ويعلمهم القرآن، كما استخلف عتاب بن أسيد علىٰ مكة يحكم بين الناس بكتاب الله، ويأخذ

من قويهم لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم.

وقد بقي – صلىٰ الله عليه وسلم – في مكة بعد الفتح تسعة عشر يوماً علىٰ أكثر تقدير – يصلح ما أفسده الناس، وينظم شؤون البلد الأمين (الوكيل، ١٤٠٨هـ، ص٢٢٦).

٥- وكان من أهم نتائج هذا الفتح العظيم أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، فقد روىٰ عمرو بن سلمة قال: «كنَّا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحي إليه، أو: أوحىٰ الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام، وكأنما يُغْرَىٰ في صدري، وكانت العرب تَلَوَّم بإسلامهم، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم ...». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم٤٣٠٢، ص٥٨٤).

٦- «جعل القرآن الكريم فتح مكة مرحلة تميز فمن آمن وأنفق وقاتل قبل فتح مكة لا يستوي مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل. قال تعالىٰ: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ی ی ی □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □) [سورة الحديد: ١٠].

«فالقرآن الكريم ميز بين المؤمنين وقسمهم إلىٰ صنفين:

الصنف الأول: المؤمنون قبل فتح مكة من الأنصار والمهاجرين.

الصنف الثاني: المؤمنون الذين آمنوا بعد فتح مكة. فهؤلاء لا يسمون مهاجرين ولا يسمون أنصاراً وإنما هي مرحلة الدخول في دين الله أفواجاً وكلاً وعد الله الحسنىٰ.

فهذا التمييز بنص صريح جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة وهذا يدل علىٰ أهمية فتح مكة وأنها مرحلة هامة في تاريخ الدعوة الإسلامية» (آل عابد، ١٤٢١هـ، ج٢، ص٥٨٢ – ٥٨٣).

٧- أنه بفتح مكة المكرمة انقطعت الهجرة من مكة لأنها صارت دار إسلام فلا تتصور منها الهجرة، أما الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام، أو من دار لا يتمكن المسلم فيها من إقامة دينه وإظهار شعائره إلىٰ بلد يستطيع فيه ذلك فإنها باقية إلىٰ قيام الساعة، يدل علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: (ڃ ڃ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں) [سورة النساء: ٩٧].

٨- أن فتح مكة المكرمة يعتبر مرحلة جديدة في تاريخ الدعوة الإسلامية لأنه بإسلام قريش وسائر قبائل العرب، لزم أن تخرج الدعوة خارج جزيرة العرب، وهذا يعني أن فتح مكة لم يكن إلىٰ بداية الطريق للدعوة إلىٰ دين الله في كل أرجاء المعمورة، وخروج المسلمين دعاة إلىٰ الله مجاهدين في سبيله، لأن رسالة الإسلام رسالة عالمية ليست محدودة بزمان ولا مكان، لذلك فإنه لابد من إيصالها إلىٰ جميع الناس بكل الوسائل الممكنة، وهذا ما فعله أصحاب رسول الله □ - ورضي الله عنهم – وأمراء الدولة الإسلامية بعدهم، حيث بلغوا دين الله للناس، وجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله حتىٰ بلغ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها.

هذه أبرز نتائج فتح مكة المكرمة. وبها يختتم الفصل الأول من هذه الدراسة، وسينتقل الباحث بعد ذلك إلىٰ الفصل الثاني، وهو المضامين التربوية المستنبطة من أحداث هذا الفتح المبارك، بحيث يدرس تلك الأحداث ويحللها، ويستنبط منها ما ييسره

الله تعالىٰ من مضامين تربوية فإلىٰ ذلك وبالله التوفيق.

الفصل الثاني

المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة المكرمة

- المبحث الأول: المضامين التربوية في الجانب العقـــــــــــــــدي.
- المبحث الثاني: المضامين التربوية في الجانب الأخلاقـــــــــــــي.
- المبحث الثالث: المضامين التربوية في الجانب الاجتمـــــــــــاعي.
- المبحث الرابع: المضامين التربوية في الجانب الإداري.

مدخل الفصل الثاني

في الفصل الأول من هذه الدراسة استعرض الباحث أحداث فتح مكة المكرمة، من حيث تاريخ ذلك الفتح المبارك، وأسبابه، ومجريات أحداثه، ثم أبرز نتائجه، وكان ذلك بمثابة تهيئة وتوطئة لدراسة هذه الأحداث، وتحليلها، واستنباط المضامين التربوية منها، ومن خلال الدراسة والتحليل رأىٰ الباحث أن المضامين التي سيتناولها بالبحث والدراسة هي المضامين العقدية، والدعوية، والأخلاقية، والاجتماعية، والإدارية، بحيث يفرد لكل نوع مبحث خاص، إلا أنه وبعد الاطلاع علىٰ الدراسة المقدمة من الباحثة هند مصطفىٰ شريفي لنيل درجة الماجستير، والتي كانت بعنوان فتح مكة (دراسة دعوية)، والمقدمة لقسم الدعوة والاحتساب بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، عام ١٤٢٠هـ، رأىٰ أنها بحثت الجانب الدعوي بحثاً مستفيضاً، وعنيت به عناية جيدة، بحيث لا يحتاج إلىٰ مزيد بحث، لذلك عدل الباحث عن البحث في المضامين الدعوية، حتىٰ لا يُبْذَل جهدٌ ووقت في أمر قد بُحِث مسبقاً وبشكل أكثر تفصيلاً ووضوحاً، أما بقية المضامين فسيرد بحثها بإذن الله تعالىٰ خلال هذا الفصل، وسيكون أولها المضامين العقدية لما لها من أهمية، حيث تعتبر العقيدة قاعدة تبنىٰ عليها تصرفات الأفراد وسلوكياتهم، وتحاكم من خلالها، ثم تليها المضامين التربوية الأخرىٰ، والتي تأتي تبعاً للجانب العقدي وتنطلق منه، والمضامين العقدية التي ستتناولها الدراسة في هذا المبحث هي:

المطلب الأول: التوحيد.

المطلب الثاني: الولاء والبراء.

المبحــث الأول

المضامين التربوية العقدية المستنبطة من فتح مكة المكرمة

المطلب الأول: التوحيـــــد:

تمهيـــــد:

الحمد لله القائل في كتابه الكريم: (ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ) [سورة الذاريات: ٥٦].

أي: «إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم، وقال علي بن طلحة عن ابن عباس: (ﭸ ﭹ) أي ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً. وهذا اختيار ابن جرير» (ابن كثير، ١٤٢١هـ، ص١٢٥٥).

في الآية السابقة إخبار من الله تعالىٰ بأنه إنما خلق الخلق لعبادته، فوجب عليهم الاشتغال بما خلقوا له علماً وعملاً، وقد تضمن كتاب الله تعالىٰ آيات كثيرة تدعو إلىٰ عبادة الله وتوحيده، «بل كل سورة من القرآن تضمنت نوعي التوحيد، فالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبىٰ من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد» (ابن أبي العز، ١٤٠٥هـ، ص٣١).

ولما كان التوحيد بهذه المنزلة، كان أول دعوة الأنبياء جميعاً، قال تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ) [سورة الأنبياء: ٢٥]، وبسببه حصلت الخصومة بين الرسل عليهم السلام وأممهم، ومنهم محمد ﷺ وقومه.

والمتتبع لأحداث فتح مكة يجد أنها قد تضمنت التوحيد بأنواعه، بل إنه كان هدفها وغايتها، حيث كانت الغاية من فتح مكة القضاء علىٰ الشرك والوثنية، ونشر التوحيد، وتثبيت دعائمه وأركانه في بلد الله الحرام الذي اختاره الله ليكون قبلة المسلمين في جميع أنحاء الأرض، ويكون مثابة للناس وأمناً.

لذا رأىٰ الباحث أن يكون التوحيد أول مضمون يدرسه خلال هذا الفصل من حيث: مفهومه، وأنواعه، ومنزلته في حياة البشر، ثم ذكر المواقف التي ظهرت فيها عناية الرسول ﷺ، واهتمامه به وتأكيده علىٰ تحقيقه خلال غزوة الفتح.

أولاً: مفهوم التوحيد:

التعريف اللغوي:

بالرجوع إلىٰ قواميس اللغة نجد أن التوحيد مأخوذ من مادة (و ح د): «وحد: الوَحْدَة الانفراد والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البَتَّة،... وإذا وصف الله تعالىٰ بالواحد فمعناه الذي لا يصح عليه التجزِّي والتكثر...» (الأصفهاني، "د.ت"، ص٥١٤ – ٥١٥).

«والتوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له. والله الواحد الأحد: ذو الواحدانية والتوحد» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٣، ص٤٥٠).

التعريف الاصطلاحي للتوحيد:

هناك ارتباط وثيق بين المعنىٰ اللغوي والمعنىٰ الاصطلاحي، فالتوحيد اصطلاحاً هو: «إفراد الله – تعالىٰ – بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات» (ابن عثيمين، ١٤٢٤هـ، ج١، ص٨).

ثانياً: مكانة التوحيد ومنزلته:

للتوحيد مكانة عظيمة، ومنزلة سامية فهو: «أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلىٰ الله عز وجل، قال تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ پ پ ڀ ڀ ٺ ٺ) [سورة الأنبياء: ٢٥]، وقال رسول الله □: «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم علىٰ الله». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٥، ص١٠).

«ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب علىٰ المكلف شهادة أن لا إله إلا الله،... فالتوحيد أول ما يدخل في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي □: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» (أبو داود، "د.ت"، ج٣، حديث رقم ٣١١٦، ص١٩٠)، وهو أول واجب وآخر واجب» (ابن أبي العز، ١٤٠٥هـ، ص١٥ – ١٧).

وهو حق الله علىٰ العبيد الذي أوجبه الله علىٰ نفسه، تفضلاً منه وتكرماً بموجب وعده الذي وعد به، ولم يوجبه عليه أحد من خلقه، وبيّنه الرسول □ في حديث معاذ بن جبل حيث قال – رضي الله عنه – كنت رِدِف النبي □ علىٰ حمار يقال له عُفَير، فقال: «يا معاذ، هل تدري حق الله علىٰ عباده، وما حق العباد علىٰ الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله علىٰ العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد علىٰ الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، فقلت: أفلا أبشر به الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٨٥٦، ص٣٨٦).

ومن مكانة التوحيد ومنزلته وفضله أنه أعظم ما يُذْكر به الله ويُتَقرَّب به إليه سبحانه وتعالىٰ، فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن رسول الله □ أنه قال: «قال موسىٰ عليه السلام يا رب! علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسىٰ: لا إله إلا الله.قال: يا رب! كل عبادك يقول هذا؟ قال: قل: لا إله إلا الله. قال: إنما أريد شيئاً تخصني به، قال: يا موسىٰ لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله

إلا الله فـي كفـة مالـت بهـم لا إلـه إلا الله. (ابـن حبـان، ١٤١٤هــ، ج١٤، حـديث رقـم ١٢١٨، ص١٠٢).

هذا الحديث يدل علىٰ أن لا إله إلا الله أعظـم مـا يُذْكَر بـه الله تعـالىٰ ويتقـرب بـه إليـه، لأنهـا كلمـة التوحيـد التـي افتـرض الله علـىٰ جميـع البشـر الإتيـان بهـا، «فبـيَّن الله لموسىٰ أنه مهما أُعْطِي فلن يعطىٰ أفضل من هذه الكلمة، وأن لا إلـه إلا الله أعظـم من السماوات والأرض وما فيهن، لأنها تميل بهن وترجح، فدل ذلك علـىٰ فضـل لا إلـه إلا الله وعظمها لكن لابد من الإتيان بشروطها». (ابن عثيمين، ١٤٢٤هـ، ج١، ص٧٩).

كما أن التوحيد سبب لشفاعة النبي ﷺ للعبد في دخول الجنة، فقد روىٰ سعيد بـن أبي سعيد المقْبُري عن أبي هريرة، أنه قال: قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامـة؟ قـال رسـول الله ﷺ: «لقـد ظننـت – يـا أبـا هريـرة – أن لا يسـألني عـن هـذا الحديث أحد أول منك، لِمَا رأيت من حرصك علىٰ الحديث، أسعد النـاس بشـفاعتي يـوم القيامة، من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٩٩، ص٢٣).

«لذلك فإنه لا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك، ولـو كـان المشـرك محبـاً لـه ومعظمـاً إيـاه لـم تنقـذه شـفاعته مـن النـار، وإنمـا ينجيـه مـن النـار التوحيد والإيمان به...». (ابن تيمية، ١٣٩٨هـ، ج١، ص١٥٣ – ١٥٤).

ومن أعظم فوائد التوحيد أنه سبب لدخول الجنة بغير حساب لمن حقَّقه. «أي لا يحاسب لا علىٰ المعاصي ولا علىٰ غيرها. وتحقيق التوحيد: تخليصـه مـن الشـرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلـم، فـلا يمكـن أن تحقـق شـيئاً قبـل أن تعلمـه، قـال الله تعـالىٰ: (□ □ □ □ □ □). [سورة محمد: ١٩].

الثاني: الاعتقاد، فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت، لم تحقق التوحيد، قـال الله تعـالىٰ عـن الكـافرين: (ڇ ڃ ڃ ڃڃ چ چ چ چ). [سـورة ص: ٥]؛ فمـا اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالىٰ: (گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ) [سـورة الصـافات: ٣٥، ٣٦]. فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإن الجنة مضمونة له بغير حساب...» (ابن عثيمين، ١٤٢٤هـ، ج١، ص٩١).

ولو لم يكن من فضل التوحيد ومنزلته، إلا أنه سبب في دخول الجنة والنجاة من النار لكفىٰ، فحريٌ بكل مسلم أن يحقق التوحيد ابتغاء مرضاة الله تعالىٰ، وطلباً لما أعده الله لأهل التوحيد من النعيم المقيم والخير العظيم في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: المواقف التي ظهرت فيها عناية الرسول ﷺ واهتمامه بقضية التوحيد خلال فتح مكة المكرمة:

قضية التوحيد هي القضية الرئيسية في موضوع دعوة الرسل، حيث أن جميع

الرسل عليهم السلام جاءوا بالدعوة إليه، يقول الله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ) [سورة الأنبياء:٢٥]، وهي القضية التي ناضل من أجلها وكافح نبينا محمد وأوذي وأخرج هو وأصحابه، وحدثت من أجلها جميع غزوات الإسلام وفتوحاته ومنها غزوة فتح مكة المكرمة، وقد حدثت فيها مواقف عديدة تؤكد عناية الرسول بهذه القضية واهتمامه بها ومنها:

١- أنه حين أراد فتح مكة المكرمة نادىٰ الناس بنداء التوحيد فقال عليه الصلاة والسلام حين أرسل رسله إلىٰ أهل البادية وإلىٰ من حوله من المسلمين: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ص٧٩٩). وهو حين ناداهم بهذا النداء يريد أن يذكرهم بالأمر الذي من أجله فارقوا أقوامهم، وعاداهم الناس، وأخرجوهم، ومن أجله جاهدوا بأموالهم وأنفسهم! إنه التوحيد الذي يجب أن يستمر الدفاع عنه حتىٰ يظهر دين الله ويتم نوره ولو كره المشركون.

٢- أمره لبلال – رضي الله عنه – بالأذان فوق الكعبة، وقد أراد بذلك «أن يظهر عزة الإسلام حيث ارتفع نداؤه فوق أقدس مكان، وأن يُعْلِم المشركين بأن الشرك لم يعد له بقاء في تلك الأراضي المقدسة بعد أن ارتفع نداء التوحيد» (الحميدي، ١٤١٨هـ، ج٤، ص٢٠٤).

٣- إن أول عمل قام به حين دخوله مكة المكرمة هو إزالة كل آثار الشرك من بيت الله الحرام، ومن الكعبة المشرفة، بل ومن الجزيرة العربية كلها، حيث كسر هو والمسلمون معه ما كان حول الكعبة أو داخلها من أصنام وأوثان، وأزال ما بها من صور، ثم أرسل إلىٰ الأصنام التي كانت تعظمها العرب من يهدمها، فأرسل خالد بن الوليد – رضي الله عنه – لهدم العزىٰ، وعمرو بن العاص – رضي الله عنه – لهدم سواع، وسعد بن زيد الأشهلي – رضي الله عنه – لهدم مناة، وكانت هذه أعظم الأصنام التي يعظمها ويهابها الناس؛ لأن الدعوة إلىٰ التوحيد لا يَنْتَفِع بها مع بقاء معالم الشرك إلا القليل من الناس، وذلك لأن قلوب الناس قد تعلقت بتلك المعبودات التي توارثوا تقديسها، فكان لابد من تحطيمها وإزالتها حتىٰ يزول أثرها من القلوب ويحل محلها التوحيد الخالص لله الذي فيه «اعتاق الفكر البشري وتحريره من قيود الجاهلية الخانقة لينطلق في ساحات الإيمان الرحيبة فيضع الأمور في مواضعها، ويقدر الله تعالىٰ حق قدره، ويعطي لكل كائن حي ما يلائم تكوينه الذي خلقه الله عليه» (الحميدي، ١٤١٨هـ، ج٤، ص٢١٢).

٤- أمر مناديه أن ينادي بمكة: «من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعَنَّ في بيته صنماً إلا كسره. قال: فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام، وكان عكرمة بن أبي جهل حين أسلم لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشىٰ إليه حتىٰ يكسره» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٧٠). وهكذا قضىٰ رسول الله علىٰ كل معالم الوثنية، وجعل الناس أنفسهم يقومون بذلك، لتسقط هيبة تلك الأصنام من قلوبهم، وليأتوا بالتوحيد الذي أراده الله منهم عن قناعة وطواعية دون إكراه فإن ذلك أدعىٰ لبقائه وتمسك الناس به، وقد كان هذا هو منهجه في دعوة الناس ممتثلاً لقول الله

تعالىٰ: (ی ....) [سورة البقرة: ٢٥٦]. ولم يُعْرَف عن رسول الله أنه أكره أحداً علىٰ الدخول في الإسلام وذلك لأن دخول الإنسان في دين الله تعالىٰ طواعية واختياراً يجعله أكثر ثباتاً وتمسكاً بدينه حين الفتن، وهذا ما حصل حين ارتد كثير من الناس عن الإسلام وثبت المؤمنون الصادقون الذين تمكن الإيمان من قلوبهم، وأصبح همهم وشغلهم، من أجله يحيون، وفي سبيله يموتون، (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ) [سورة الأحزاب: ٢٣].

هذه أهم المواقف التي ظهرت فيها عناية الرسول بأمر التوحيد خلال غزوة الفتح، فنراه صلى الله عليه وسلم يذكر الناس بقضية التوحيد في بداية الغزوة ويستمر على ذلك حتى النهاية حيث يحطم بيده الأصنام، ويأمر الناس بتحطيمها مذكراً إياهم إنهم إنما يفعلون ذلك تحقيقاً لتوحيد الله تعالى، ثم يرسل من يحطم الأصنام التي كانت تعظمها العرب، ليستأصل من نفوسهم حب وتعظيم تلك الآلهة ويربطهم بالله تعالى، وهذه أعظم تربية للأمة على تحقيق توحيد الله تعالى في كل أقوالهم وأعمالهم ونياتهم. وبعد الانتهاء من هذا المطلب، ينتقل الباحث إلىٰ مطلب آخر له علاقة وثيقة بما سبق، إنه الولاء والبراء، قضية عقدية في غاية الأهمية، فالولاء والبراء أمر يقتضيه التوحيد فإن من وحدَّ الله تعالىٰ يجب عليه موالاة الموحدين، ومعاداة الكافرين والمشركين والمنافقين، عملاً بقوله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ) [سورة المجادلة: ٢٢].

لذا فقد رأىٰ الباحث أن يكون الولاء والبراء هو المطلب الثاني الذي سيتناوله بالبحث والدراسة خلال الصفحات التالية.

المطلب الثاني: الولاء والبراء:

تمهيد:

عقيدة الولاء والبراء أصل من أصول الدين، وركيزة من ركائزه، وهي شرط لحصول الإيمان وكماله، يقول تعالىٰ: (گ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ) [سورة المائدة: ٨١]. ويقول عليه الصلاة والسلام: «من أحب لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان» (أبو داود، "د.ت"، ج٤، حديث رقم ٤٦٨١، ص٢٢٠)، كما وأنها أوثق عرىٰ الإيمان، يقول الرسول : «أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله» (ابن أبي شيبة، ١٤٠٩هـ، ج٧، حديث رقم ٣٤٣٣٨، ص٨٠).

ومع أهمية هذه العقيدة وكونها من أهم أمور الدين، إلا أنها ضعفت عند بعض المسلمين، وتهاون فيها بعضهم، حتىٰ لم يعد ولاؤه ولا براؤه إلا تبعاً لهواه ومصلحته، وذلك ناتج عن سوء فهم لعقيدة الولاء والبراء، ولطريقة التعامل مع المسلم وغيره في ضوء هذه العقيدة، وقد تضمنت أحداث فتح مكة مواقف عدة، ظهرت فيها عقيدة الولاء والبراء واضحة جلية، ومُورست ممارسة فعلية، ونزل فيها من الله تعالىٰ آيات تبين

موقف المسلم من أعدائه وأعداء دينه. وفي هذا المطلب سيبين الباحث مفهوم الولاء والبراء، وأهميتها في الإسلام، وأصناف الناس في عقيدة الولاء والبراء، والتعامل مع غير المسلمين في ضوء عقيدة الولاء والبراء، ثم ذكر بعض المواقف التي ظهرت فيها عقيدة الولاء والبراء خلال فتح مكة.

أولاً: تعريف الولاء والبراء لغة واصطلاحاً:

١- تعريف الولاء في اللغة:

الولاء في اللغة مأخوذ من وَلِيَ، يوالي، موالاة، وولاء، وولاية. والوَلَاية والوِلَاية: النصرة، يقال: لهم علي وَلَاية، أي مجتمعون في النصرة، ومنه قوله ﷺ: «اللهم وال من والاه» أي أحبب من أحبه وانصر من نصره. والموالاة – كما قال ابن الأعرابي: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح ويكون له في أحدهما هَوَىٰ فيواليه أو يحابيه، ووالىٰ فلان فلاناً إذا أحبه (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٥، ص٤٠٧ – ٤٠٩).

«والمولىٰ: اسم يقع علىٰ جماعة كثيرة فهو الرب والمالك والسيد والمُنْعِم والمعتِق والناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمعتق والمنْعَمُ عليه» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٥، ص٤٠٩).

والولي: الصديق والنصير. قال ابن الأعرابي: الولي التابع المحب،وقال أبو العباس في قوله ﷺ: من كنت مولاه فَعَلِيٌّ مولاه أي من أحبني وتولاني فليَتَوَلَّه، والموالاة ضد المعاداة، والولي: ضد العدو.(ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٥، ص٤١١).

والمعاني السابقة تدور حول المحبة والمتابعة والنصرة.

و«الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستفاد ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدِّين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد» (الأصفهاني، "د.ت"، ص٥٣٣).

٢- تعريف الولاء اصطلاحاً:

الولاء من الموالاة: «التي هي لازم الحب، وهي النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً» (آل الشيخ، ١٤٠٢هـ، ص٤٠٨).

ويعرَّف الولاء أيضاً بأنه «موافقة العبدِ ربَّه فيما يحبه ويرضاه من الأقوال والأفعال والاعتقادات والذوات. فسَمْت ولي الله هو محبته لما يحب الله، ورضاه بما يرضي الله، وعمله بذلك كله، وميله إليه علىٰ وجه الملازمة له» (البريكان، ١٤٢٣هـ، ص٢٤٤).

والتعريف الأول أعم حيث أن الولاء قد يكون لله وقد يكون لغيره، ويمكن القول بأن تعريف البريكان يبين ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في أمر الولاء.

٣- تعريف البراء في اللغة:

يطلق البراء في اللغة علىٰ عدة معان منها: التخلص، والتنزه، والتباعد، والعداوة. قال الله تعالىٰ: (ﭷ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ

ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ) [سورة الممتحنة: ٤].

قال ابن العربي: «بَرِئَ إذا تخَلَّص، وبَرِئَ إذا تنزه وتباعد، وبرِئَ إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ) [سورة التوبة: ١] أي إعذار وإنذار... وليلة البراء ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١، ص٣٣).

٤- تعريف البراء اصطلاحاً:

«هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار». (القحطاني، ١٤٠٩هـ، ص٩٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان معنىٰ الولاية والعداوة: «والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والتقرب وأصل العداوة: البغض والبعد، ... والولي القريب، فيقال هذا يلي هذا أي يقرب منه، ومنه قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولىٰ رجل ذكر» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٦٧٣٢، ص٩٢٨) أي لأقرب رجل إلىٰ الميت.

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع لما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهي عنه كان المعادي لوليه معادياً له، كما قال تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ) [سورة الممتحنة: ١] فمن عادىٰ أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه، فلهذا قال: «من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٦٥٠٢، ص٩٠٠)». (ابن تيمية، "د.ت"، ص٧ – ٨).

ثانياً: مكانة عقيدة الولاء والبراء في الإسلام وأهميتها:

لعقيدة الولاء والبراء مكانة عظيمة في الإسلام، ولها أهمية كبرىٰ تتضح من خلال ما يلي:

١- أنها جزء من معنىٰ الشهادة، وهو قولك: «لا إله» من قوله: «لا إله إلا الله» فإن معناها البراء من كل ما يعبد من دون الله كما قال تعالىٰ: (ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ) [سورة النحل: ٣٦]. والطاغوت هو كل ما عُبِدَ من دون الله. (البريكان، ١٤٢٣هـ، ص٢٢٥).

٢- أنها شرط لحصول الإيمان، ودليل علىٰ استكماله، وهي أوثق عراه، فقد قال الله تعالىٰ: (ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ) [سورة المائدة: ٨٠، ٨١].

ومعنىٰ هاتين الآيتين:

(ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ) بالمحبة والمولاة والنصرة. (ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ) هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوا هذا النعيم المقيم.

(ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ)، فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل عليه،

يوجب علىٰ العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل علىٰ انتفاء المشروط. (ۀ ۀ ﮪ ﮫ) أي خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي، ومن فسقهم موالاة أعداء الله. (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٢٤١).

وهي دليل علىٰ استكمال الإيمان لقول الرسول ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان» (أبو داود، "د.ت"، ج٤، حديث رقم ٤٦٨١، ص٢٢٠).

كما أن الولاء والبراء أوثق عرىٰ الإيمان، حيث يقول ﷺ في ذلك: «أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله» (ابن أبي شيبة، ١٤٠٩هـ، ج٧، حديث رقم ٣٤٣٣٨، ص٨٠).

٣- أنها سبب لذوق حلاوة الإيمان، ولذة اليقين، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ١٦، ص٩).

٤- أنها الصلة التي يقوم عليها المجتمع المسلم، يقول الله تعالىٰ: (ۋ ۋ ۅ ...) [سورة الحجرات: ١٠]، وهي مقدمة علىٰ غيرها من الصلات والروابط كما قال تعالىٰ: (ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ) [سورة التوبة: ٢٤]، وهي باقية بين الناس إلىٰ يوم القيامة، يقول تعالىٰ: (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ) [سورة الزخرف: ٦٧].

٥- أنه بتحقيق هذه العقيدة تنال ولاية الله؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك...» (ابن رجب، ١٤٢٤هـ، ص٤٦). كما وأنه يترتب علىٰ تحقيقها أجر عظيم في الآخرة فقد قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلّه: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفىٰ حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٦٦٠، ص٩٤).

والشاهد في الحديث السابق قوله عليه السلام: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» فالمحبة في الله أحلتهما هذه المنزلة العظيمة يوم القيامة.

ثالثاً: أصناف الناس في الولاء والبراء:

الولاء والبراء واجب شرعاً، بل هو لازم من لوازم الشهادة وشرط من شروطها، وأدلة ذلك كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وإذا كان الولاء والبراء مبنيين علىٰ قاعدة الحب والبغض فإن الناس في نظر أهل السنة والجماعة في هذا الأمر ثلاثة أصناف:

الأول: من يُحب جملة «وهو من آمن بالله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً وعملاً واعتقاداً، وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وانقاد لأوامره وانتهىٰ عما نهىٰ عنه ورسولهُ، وأحب في الله ووالىٰ في الله، وأبغض في الله وعادىٰ في الله، وقدم قول رسول الله ﷺ علىٰ قول كل أحد كائناً من كان» (ابن سحمان، ١٣٤٠هـ، ص١٣).

الثاني: من يُحَب من وجه ويُبْغَض من وجه «فهو المسلم الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فَيُحَبُ ويُوالىٰ علىٰ قدر ما معه من الخير، ويُبْغَض ويُعَادىٰ علىٰ قدر ما معه من الشر، ومن لم يتسع قلبه لهذا كان ما يُفْسِد أكثر مما يصلح... وإذا أردت الدليل علىٰ ذلك فهذا عبدالله بن حمار – وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - كان يشرب الخمر، فأتي به إلىٰ رسول الله ﷺ فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتىٰ به فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٦٧٨٠، ص٩٣٤)، مع أنه ﷺ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه ». (ابن سحمان، ١٣٤٠هـ، ص١٤).

الثالث:«من يُبغَض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله بقضاء الله وقدره، وأنكر البعث بعد الموت، أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين ، وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب، والدعاء، والخوف والرجاء، ... وكذلك من ألْحَدَ في أسمائه وصفاته، واتبع غير سبيل المؤمنين، وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها». (ابن سحمان، ١٣٤٠هـ، ص١٩).

وملخص عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء أنهم يوالون المؤمن المستقيم علىٰ دينه ويحبونه وينصرونه نصراً كاملاً، ويتبرؤون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين والمحادين لله ولرسوله ويعادونهم عداء كاملاً، أما من أتىٰ بإيمان وفجور، وخير وشر، وطاعة ومعصية، فهو يحب ويوالىٰ علىٰ ما فيه من الخير، ويُبْغَض ويُعَادىٰ علىٰ ما فيه من الشر.

رابعاً: ما يجوز التعامل به مع الكفار مما لا يدخل في الولاء المحرم:

قضية التعامل مع الكفار في الأمور الدنيوية قضية هامة، تحتاج إلىٰ بحث ودراسة، لبيان ما لهم من الحقوق في حال قيامهم بما عليهم من واجبات، كل ذلك في ضوء عقيدة الولاء والبراء، نظراً لما حدث ويحدث من بعض المسلمين في هذه الأيام من استحلال لدمائهم وأموالهم وأعراضهم، استوىٰ في ذلك المحارب وغيره، يحدث ذلك بحجة الدفاع عن الإسلام والمسلمين، أو إخراج غير المسلمين من جزيرة العرب، وقد أخطأ هؤلاء فيما ذهبوا إليه، ولو أنهم رجعوا إلىٰ أهل العلم، وإلىٰ ما كُتِب وأُلِّف حول هذه القضية من قِبَل علماء الأمة الأجلاء في الماضي والحاضر، لرأوا أن ما فعلوه ويفعلونه مخالف لهدي الإسلام، بل هو من الظلم والجور الذي نهىٰ الله تعالىٰ

عنه بقوله: (ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ) [سورة المائدة: ٨]. لذلك فقد رأىٰ الباحث أن يبيِّن كيفية التعامل مع غير المسلمين باختصار حتىٰ لا تخرج هذه الدراسة عن الغرض منها.

وقبل بيان ذلك ينبغي أن يعلم أن الكفار ينقسمون إلىٰ أربعة أقسام:

القسم الأول: المعاهدون: وهم الذين يسكنون في بلادهم، وبينهم وبين المسلمين عهد وصلح وهدنة،... فيجوز أن يصالحهم المسلمون علىٰ السلم وترك الحرب إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين، قال تعالىٰ: (ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ) [سورة الأنفال: ٦١].

القسم الثاني: الذِّمِّيُّون: وهم الكفار الذين يسكنون بلاد المسلمين أصلاً وصالحهم المسلمون علىٰ أن يدفعوا لهم الجزية، فيجوز السماح لهم بالاستمرار في سكنىٰ بلاد المسلمين، - سوىٰ جزيرة العرب – لقول النبي ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٣٠٥٣، ص٤١٢).

القسم الثالث: المستأمنون: وهم الذين يدخلون بلاد المسلمين بأمان من ولي الأمر أو من أحد من المسلمين، فيجوز السماح لهم بدخول بلاد المسلمين والإقامة فيها فترة مؤقتة للتجارة أو العمل ونحوهما إذا أمن شرهم وضررهم علىٰ المسلمين، قال تعالىٰ: (ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ) [سورة التوبة: ٦] وهذا الأمان يعرف الآن «تأشيرة الدخول».

القسم الرابع: الحربيون: وهم من عدا الأصناف الثلاثة السابقة من الكفار. فهؤلاء يشرع للمسلمين جهادهم وقتالهم بحسب الاستطاعة، قال الله تعالىٰ: (ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ) [سورة النساء: ٩١]. (الجبرين، ١٤٢٣هـ، ص٥٩٠ – ٥٩٥).

أما الأمور التي تجب لغير الحربيين منهم فمن أهمها:

١- حماية أهل الذمة المستأمنين ماداموا في بلاد المسلمين، وحماية المستأمن إذا خرج من بلاد المسلمين حتىٰ يصل إلىٰ بلد يأمن فيه للآية المذكورة آنفاً: (ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ...) [سورة التوبة: ٦].

٢- العدل في الحكم بينهم وبين المسلمين وبين بعضهم بعضاً عند وجودهم تحت حكم المسلمين، لقوله تعالىٰ: (ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ) [سورة المائدة: ٨].

٣- دعوتهم إلىٰ الإسلام، مع مراعاة عدم إكراههم علىٰ تغيير أديانهم، قال تعالىٰ: (ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ....) [سورة البقرة: ٢٥٦].

٤- يحرم علىٰ المسلم أن يعتدي علىٰ أحد من الكفار غير الحربيين في بدنه بضرب أو قتل أو غيرهما، لما رواه عبدالله بن عمرو مرفوعاً: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٣١٦٦، ص٤٢٩).

كما يحرم عليه أن يسيء إلىٰ أحد منهم بالقول، ويحرم الكذب عليهم، لعموم قوله تعالىٰ: (ﯛ ﯜ ﯝ) [سورة البقرة: ٨٣]، بل ينبغي له أن يلين القول لهم، وأن

يخاطبهم بكل ما هو من مكارم الأخلاق مما ليس فيه إظهار للمودة وليس فيه تذلل لهم ولا إيثار من المسلم لهم علىٰ نفسه.

٥- يحرم علىٰ المسلم أن يغش أحداً من الكفار غير الحربيين في البيع أو الشراء، أو أن يأخذ منه شيئاً من أموالهم بغير حق، ويجب عليه أن يؤدي إليهم أماناتهم، فقد ثبت عن النبي أنه قال: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة» (أبو داود، "د.ت"، ج٣، حديث رقم ٣٠٥٢، ص١٧٠).

٦- يجب الإحسان إلىٰ الجار الكافر غير الحربي بكف الأذىٰ عنه، والتصدق عليه إن كان فقيراً، والإهداء إليه، وأن ينصح فيما ينفعه، لحديث: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيورثه» (البخاري، ١٤٢٥هـ، ح٦٠١٥، ص٨٤٠).

٧- كما يجب رد السلام عليه إذا سلم علىٰ المسلم بنحو ما أمر به الرسول : «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٦٢٥٨، ص٨٧٠). (الجبرين، ١٤٢٣هـ، ص٥٩٥ – ٦٠٠).

وعلىٰ العموم فإنه يجوز التعامل مع غير المسلمين في الأعمال الدنيوية، المباحة، واستعمالهم، واستئجارهم، ومعاملتهم بالحسنىٰ، والترفق بهم، والإحسان إليهم، إذا اقتضت المصلحة ذلك، ولم يكن في ذلك إذلال للمسلم، أو استعلاء للكافر عليه.

خامساً: بعض المواقف التي ظهر فيها مضمون الولاء والبراء خلال غزوة الفتح:

تعددت المواقف التي ظهرت فيها عقيدة الولاء والبراء خلال غزوة الفتح، وطبقت تطبيقاً عملياً يدل علىٰ حسن التربية النبوية للصحابة الكرام – رضي الله عنهم – وسيورد الباحث فيما يلي بعض تلك المواقف:

١- موقف أم حبيبة بنت أبي سفيان - رضي الله عنها- زوج النبي ، حينما قدم أبوها من مكة المكرمة إلىٰ المدينة المنورة يريد أن يجدد العهد الذي بينهم وبين رسول الله ، ويزيد في مدته، وحينما دخل عليها، أراد الجلوس علىٰ فراش رسول الله فطوته عنه، فسألها عن سبب ذلك فقالت له: «هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس علىٰ فراش رسول الله ». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٧). فقدمت – رضي الله عنها – محبة رسول الله علىٰ محبة أبيها، وأعلنت بكل صراحة وجرأة ولاءها لله ولرسوله ولدينه، وتبرأت من الشرك وأهله وإن كانوا من الأقربين، تطبيقاً لقول الله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ .....) [سورة المجادلة: ٢٢].

٢- موقف أصحاب النبي ، عندما كلمهم أبو سفيان في أمر صلح الحديبية، حيث كلم في ذلك أبا بكر، وعمر، وعلياً، وفاطمة بنت محمد، رضي الله عنهم أجمعين، وكلهم يرفض أن يكلم رسول الله في ذلك الأمر، احتراماً وإجلالاً وحباً له ، وهذا تحقيق لمعنىٰ الولاء والبراء، حيث أن الولاء يعني الحب والنصرة

والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوب ظاهراً وباطناً. والبراء هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار. وهذه المعاني جميعها حققها أصحاب النبي في هذا الموقف وغيره.

٣- موقف الأنصار – رضى الله عنهم – حين تخوفوا بقاء النبى فى مكة المكرمة بعد فتحها: ولما أخبر النبي بذلك، جمع الأنصار وبيَّن لهم موقفه من هذا الأمر بقوله : «أنا محمد عبدالله ورسوله، هاجرت إلىٰ الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»، قالوا: والله ما قلنا إلا ضِنًّا بالله ورسوله، قال: «فإن الله ورسوله يُصَدِّقانكم ويعذرانكم». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٧٨٠، ص٤٦٦). هذا الكلام من الرسول ومن الأنصار – رضي الله عنهم – يدل علىٰ حب متبادل أغلىٰ من الأهل والأوطان، حب من الأنصار لله ولرسوله ولدينه يجعلهم لا يطيقون فراق رسول الله ، وحب من الرسول يجعله يضحي بالأهل والوطن، وأي وطن؟! إنه مكة المكرمة أحب أرض الله إلىٰ رسوله ، يضحي بذلك كله من أجل الأنصار – رضي الله عنهم – لأن محبته لهم كانت في الله ومن أجل الله، وهذا هو الولاء كما ينبغي أن يفهمه المسلم.

هذه بعض المضامين التربوية العقدية التي تضمنتها غزوة الفتح المباركة، وسينتقل الباحث منها إلىٰ المضامين التربوية الأخلاقية، حيث سيتناول عدداً منها بالبحث والدراسة خلال المبحث الثاني بإذن الله تعالىٰ.

المبحث الثاني

المضامين التربوية الأخلاقية المستنبطة من غزوة فتح مكة المكرمة:

تمهيـــد:

الأخلاق في كل أمة هي مادة بنائها، وأساس تقدمها وتحضرها ورقيها، وثمرة عقيدتها ومبادئها، بها تقاس الأمم وتحترم، وعلىٰ أساسها تُحَاكَم وتَحتَكِم، وبما أنها ثمرة عقائد الأمم ومبادئها، فإنها تتفاوت من أمة إلىٰ أخرىٰ وفق تلك العقائد والمبادئ، والأخلاق في الإسلام تقوم علىٰ عقيدة راسخة متينة مصدرها الكتاب والسنة والسيرة، لذلك كانت عظيمة وفاضلة، لعظم وفضل مصادرها، وإذا كانت كذلك فإنها من الأهمية بمكان، وتبرز أهميتها «بالنظر إليها من اعتبارات مختلفة أهمها:

- علاقتها ببناء الشخصية الإنسانية إجمالاً.
- ارتباطها بالبنية التشريعية والعقدية لهذا الدين.
- آثارها في سلوك الفرد والجماعة» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص٢٣).

ويُفَصِّل قرعوش (١٤٢٦هـ) في أهمية الأخلاق فيقول:

١- «أما عن علاقتها ببناء الشخصية الإنسانية فمن المعلوم أن الأخلاق تمثل صورة الإنسان الباطنة، وهذه الصورة هي قوام شخصية الإنسان، فالإنسان لا يوزن بطوله وعرضه، أو لونه أو جماله، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق (ص٢٣). قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلىٰ أجسادكم ولا إلىٰ صوركم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٦٤، ص٦٥٥).
٢- ثم بين قرعوش (١٤٢٦هـ) ارتباط الأخلاق بالبنية الدينية عقيدة وشريعة فيقول: «وأما من حيث ارتباط الأخلاق بالبنية الدينية عقيدة وشريعة فأمر معلوم لكل من له بصر بأمور ديننا، ويدل علىٰ ذلك إجمالاً قوله ﷺ: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله» (الترمذي، ١٣٩٥هـ، ج٥، ص٩، حديث رقم ٢٦١٢).

أما عن ارتباطه بالشريعة، فالشريعة منها العبادات والمعاملات، وصلة الخُلُق بالعبادة مما لا يحتاج إلىٰ تقرير، يعبر عن ذلك إجمالاً قوله تعالىٰ: (ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ) [سورة الماعون: ٤ – ٧]، فأي صلاة هذه التي تلتوي معها الأمور إلىٰ الحد الذي يقدم ما لله للناس رياء ونفاقاً، في الوقت الذي يمنع الناس ما يطلبون من الماعون؟!.

أما عن علاقة الخُلُق بالمعاملات فيدل عليه قوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم» (ابن حبان، ١٤١٤هـ، ج١، حديث رقم ١٨٠، ص٤٠٦)» (ص٢٣، ٢٤).

٣- أما عن علاقة الأخلاق ببناء الأفراد والمجتمعات، فعلىٰ المستوىٰ الفردي نجد أن الأخلاق تزرع في نفس الفرد الأمانة والاستقامة والحياء والعفة والتواضع والإخلاص وغير ذلك من القيم السامية..، إن الأخلاق أساس الفلاح والنجاح، واقرأ قوله تعالىٰ: (ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ) [سورة الشمس: ٩ – ١٠] والتزكية تعني تهذيب النفس باطناً وظاهراً» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص٢٤، ٢٥).

«وليس هذا الفلاح قاصراً علىٰ الأفراد، بل إنه يعم المجتمعات المسلمة وغير المسلمة، فالأخلاق أساس لبناء المجتمعات الإنسانية، وهذا ما تشهد به الآيات الكريمة من سورة العصر: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ) . فالعمل الصالح المبني علىٰ الإيمان، المدعم بالتواصي بالحق أمراً بمعروف ونهياً عن منكر، والتواصي بالصبر في مواجهة المغريات والخطوب، من شأنه أن يبني مجتمعاً محصناً لا تنال منه عوامل التردي والسقوط. وليس بلاء الحضارات قديمها وحديثها كامناً في ضعف إمكانياتها المادية أو منجزاتها العلمية، وإنما في قيمها الأخلاقية التي تسودها وتحتكم إليها» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص٢٥).

وإذا كانت الأخلاق بهذه المكانة والأهمية، فإن الإسلام قد عني بها عناية كبيرة من خلال نصوص الكتاب والسنة، ومن خلال سيرة نبي هذه الأمة ﷺ، فقد كان أكمل الأمة خلقاً، وأحسنها تعاملاً في سلمه وحربه، وغزوة الفتح اشتملت علىٰ أحداث بينت أنه ﷺ حوىٰ مكارم الأخلاق كلها، وربىٰ أصحابه رضي الله عنهم والمسلمون علىٰ ذلك، فكان خلقه القرآن، وكانوا رضوان الله عليهم قرآناً يمشي علىٰ الأرض.

وفي هذا المبحث سيدرس الباحث بإذن الله تعالىٰ عدداً من المضامين التربوية الأخلاقية التي اشتملت عليها أحداث فتح مكة المكرمة، وهي: الصدق، والتواضع، والوفاء بالعهد، والعفو.

المطلب الأول: الصدق:

تمهيـــد:

الصدق خلق إسلامي فاضل، وصف الله تعالىٰ به نفسه، وهو لا يتصف إلا بصفات الكمال، فقال تعالىٰ: (ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ) [سورة آل عمران: ٩٥]. كما وصف الله تعالىٰ به أنبياءه في مثل قوله تعالىٰ: (ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ) [سورة الزمر: ٣٣]، «وهو من خصال أهل الإيمان، ومن لوازم الاعتقاد والعبادة والعمل والأخلاق والسلوك، فلا تستقيم عقيدة أو إيمان من دون صدق، ولا تقبل عبادة من غير صدق، ولا يصح عمل بتجرد عن الصدق، والصدق في الأخلاق والآداب والسلوكيات: هو في القمة، وهو التاج، والصدق دليل قوة الإرادة، وصلابة الشخصية» (الزحيلي، ١٤٢٣هـ، ص١٣).

وقد وردت الأحاديث النبوية الشريفة تحث علىٰ الصدق وتأمر به ومن ذلك قول النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» (الترمذي، ١٣٨٢هـ، ج٤، حديث رقم ٥١٨، ص٦٦٨). في هذا الحديث دلالة علىٰ أن

الصدق يورث الطمأنينة للفرد والجماعة، ويؤدي إلىٰ راحة النفس وسكون القلب. كما وأن الله تعالىٰ يجمع للعبد به بين خيري الدنيا والآخرة، فالصادق محبوب عند الله وعند الناس، وقد جعل الله جزاء أهل الصدق الجنة، فقال تعالىٰ: (ى ى ي ي □ □□ □ □
□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □)
[سورة المائدة: ١١٩]. وهذا الخلق النبيل تضمنته غزوة الفتح المباركة، وستتناوله الدراسة خلال الصفحات التالية من حيث: مفهومه، ، ومكانته وأهميته، ثم المواقف التي تضمنت هذا الخلق خلال غزوة الفتح.

أولاً: مفهوم الصدق:

١- الصدق لغة:

«نقيض الكذب» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٠، ص١٩٣).
ويعرف بأنه: «مطابقة الحكم للواقع». (الجرجاني، ١٤١٥هـ، ص٧٣).

٢- الصدق في الاصطلاح:

للصدق تعريفات عدة منها:

١- إخبار الإنسان بما يعتقد أنه الحق، ويشمل الإخبار كل ما يُفْهم المقصود سواء كان بالكلام، أو بالفعل، كالكتابة والإشارة». (جوهري، ١٤٢٥هـ، ص١٧١).
٢- ويعرف بأنه: «مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً ومتىٰ انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً تاماً بل إما أن لا يوصف بالصدق وإما أن يوصف تارة بالصدق وتارة بالكذب...» (الأصفهاني "د.ت"، ص٢٧٧).

ثانياً: مكانة الصدق وأهميته:

الصدق خلق إسلامي عظيم ورد ذكره في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، «فقد وردت مادة (الصدق) في كتاب الله – عز وجل – حوالي ١٣٠ مرة» (جوهري، ١٤٢٥هـ، ص١٧٢).

ومما يؤكد مكانة الصدق وأهميته أن الله تعالىٰ وصف به نفسه فقال: (ٹ ٹ ٹ ٹ ٿ) [سورة النساء: ٨٧]، وقال سبحانه: (ٿ ٿ ٿ ٿ ٿ) [سورة النساء: ١٢٢]، كما قال سبحانه: (ڈ ژ ژڑ ڑ ک ک ک) [سورة آل عمران: ٩٥].

كما وصف به أنبياءه في مثل قوله تعالىٰ: (ٹ ڈ ڈ ڤڤ ڤ ڤ ڦ ڦ) [سورة مريم: ٤١]، وقوله: (ٹ ٹ ٹ ٹٹ ٹ ٹ ڈ ڈ) [سورة مريم: ٥٤].

وقد كان أنبياء الله تعالىٰ يسألون الله أن يرزقهم الصدق في شؤونهم، فهذا رسوله محمد □ يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه علىٰ الصدق فقال: (ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک گ گ گ گ گ گ) [سورة الإسراء: ٨٠]. وإبراهيم عليه السلام يسأل ربه أن يهبه لسان صدق في الآخرين فيقول كما أخبر الله عنه: (ٱ ٻ ٻ ٻ پ) [سورة الشعراء: ٨٤].

كما أمر سبحانه أهل الإيمان بأن يكونوا مع الصادقين فقال سبحانه: (ڃ ڃ ڃ

ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ) [سورة التوبة: ١١٩]، وجعل الصدق صفة من صفات عباده المؤمنين الذين أعد لهم أعظم الجزاء في الآخرة، فقال تعالىٰ: (ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ) [سورة الأحزاب: ٣٥]، فجعل الله تعالىٰ المغفرة والأجر العظيم للمتصفين بالصفات السابقة ومنها الصدق.

وقد كان الصدق صفة ملازمة لرسول الله ﷺ، حتىٰ أنه عُرف به بين قومه، فحين أمره الله بأن ينذر عشيرته الأقربين، صعد علىٰ الصفا، وجمع قومه، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، .... (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٧٧٠، ص٦٧٠).

ولأهمية الصدق فقد جعله الرسول ﷺ أول دعوته، فقد ذكر أبو سفيان – رضي الله عنه – عند هرقل: «أن محمداً يدعوهم إلىٰ الصدق، فقد روىٰ ابن عباس قصة أبي سفيان مع هرقل، وفيها: أن هرقل سأل أبا سفيان فقال: ماذا يأمركم؟ فقال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق والعفاف والصلة» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٧، ص٦).

وقد أمر به ﷺ، وبين أنه طريق إلىٰ الجنة فقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرىٰ الكذب حتىٰ يكتب عند الله كذاباً» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٦٠٧، ص٦٦٤).

هذا الحديث وما سبقه من نصوص تبين أهمية الصدق ومكانته، وأنه خلق عظيم يجب التحلي به، وإذا كان الصدق بهذه المنزلة، فإن له أنواعاً تجب معرفتها حتىٰ يكون المسلم صادقاً صدقاً تاماً، وفيما يلي بيان تلك الأنواع.

ثالثاً: المواقف التي تجلى فيها مضمون الصدق في غزوة فتح مكة:

الموقف الأول: موقف علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – حينما استشاره أبو سفيان فيما يفعل، حينما لم يُجِر أحد علىٰ رسول الله ﷺ، فقال له علي – رضي الله عنه - «والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، قال: أو ترىٰ ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٧). وفي هذا ما يدل علىٰ فطنة عليٍّ رضي الله عنه وصراحته وصدقه، وفيه ما يدل علىٰ سلامة التربية ووحدة المنهج.

أما الموقف الثاني: فموقف سعد بن عبادة رضي الله عنه، حينما نزع منه الرسول ﷺ راية الأنصار، والجيش الإسلامي داخل إلىٰ مكة حينما قال: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٤)، وفي هذا

الموقف يُسَلِّم سعد الراية دون أن يظهر أي تذمر من ذلك، إنه الصدق في المحبة والطاعة لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ.

الموقف الثالث: يؤخذ من قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، حين أرسل كتاباً إلىٰ قريش يخبرهم فيه بما عزم عليه النبي ﷺ من غزوهم، وحين اطلع رسول الله ﷺ علىٰ خطاب حاطب، استدعاه لسؤاله عن سبب صنيعه، فَصَدَق حاطب رضي الله عنه فيما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: «إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، يقول كنت حليفاً، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحبون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا برضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٧٤، ص٥٨١)، وفي هذا موقف تربوي عظيم يوجه إليه المربي الكبير ﷺ، حيث لم يستعجل علىٰ حاطب رضي الله عنه، وإنما سأله عن سبب فعله ذلك قبل أن يتخذ بحقه أي قرار، وهذا ما ينبغي أن يفعله كل مربٍ حين تحصل الأخطاء ممن يربيهم، حتىٰ لا يتخذ قراراً متعجلاً نتيجة لتفسير خاطئ لما حدث، وعندما يُعْرَف سبب الفعل يعالج الموقف بما يستحق.

لقد كان حاطب رضي الله عنه صادقاً في إيمانه وفي عزمه وإرادته وجهاده، وفي قوله وعمله، فشفع له ذلك كله، ونجا بفضل الله تعالىٰ من عقاب ذلك الخطأ الكبير الذي وقع فيه، والذي أوشك أن يوقع جيش المسلمين في حرج عظيم لولا إرادة الله تعالىٰ وحكمته.

والموقف الرابع: يؤخذ من موقف الأنصار رضي الله عنهم، حين تخوفوا بقاء النبي ﷺ في بلده وبين أهله، بعد أن فتح الله عليه مكة المكرمة، فلما أخبره الوحي بذلك قال مخاطباً الأنصار – رضي الله عنهم –: «قلتم أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته، ألا فما اسمي إذاً (ثلاث مرات) أنا محمد عبدُ الله ورسوله، هاجرت إلىٰ الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»، قالوا: والله ما قلنا إلا ضِنّاً[١] بالله ورسوله، قال: «فإن الله ورسوله يُصدِّقانِكم ويعذرانكم». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٧٨٠، ص٤٦٦).

هذه بعض مواقف في غزوة فتح مكة المكرمة اشتملت علىٰ مضمون الصدق وبينت أهميته، وأثره علىٰ الفرد والجماعة المسلمة، وإذا كان الصدق بهذه المنزلة والأهمية فإن هناك أخلاقاً أخرىٰ تضمنتها غزوة الفتح، منها التواضع، وهو الخلق الذي ستتناوله الدراسة في الصفحات التالية بإذن الله تعالىٰ.

المطلب الثاني: التواضع:

تمهيـــد:

التواضع خلق إسلامي كريم، دعا إليه الإسلام، وحث عليه، ورغب فيه، فهو

---

(١) الضِّنُّ: «هو ما تختصه وتَضَنُّ به، أي تبخل لمكانه منك وموقعه عندك (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٣، ص٢٦١).

خلق من أخلاق الأنبياء والصالحين، قال تعالىٰ: (ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ) [سورة الفرقان: ٦٣]، وهو صفة ترفع صاحبها عند الله، وتجعله محبوباً عند الناس، قال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، و ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٨٨، ص٦٦٠). كما وأنه كان خلق النبي ﷺ في تعامله مع الناس، وقد اشتملت غزوة فتح مكة المكرمة علىٰ هذا الخلق العظيم، وسيتم تناوله بالدراسة في هذا المطلب من خلال: تعريفه، وأهميته، وأقسامه، ثم المواقف التي ظهر فيها مضمون التواضع خلال غزوة فتح مكة المكرمة.

أولاً: مفهوم التواضع:

١- التواضع لغة:

مأخوذ من مادة (وَضَعَ) بمعنىٰ تذلل وخضع وخفض جانبه. «والوضع: ضد الرفع، وضعه يضعه وضعًا وموضوعاً، ... والتواضع: التذلل، وتواضع الرجل: ذل. ويقال دخل فلان أمراً فَوَضَعَه دخوله فيه فاتَّضَع. وتواضعت الأرض: انخفضت عما يليها» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٨، ص٣٩٦، ٣٩٧).

٢- التواضع اصطلاحاً:

ويُعّرفُ بأنه: «ضد التعالي وهو ألا يرتفع الإنسان ولا يترفع علىٰ غيره، بعلم ولا نسب ولا مال ولا جاه ولا إمارة ولا وزارة ولا غير ذلك» (ابن عثيمين، ١٤٢٤هـ، ج٢، ص٣٥٧).

كما يعرف بأنه: «انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، حتىٰ لا يرىٰ له علىٰ أحد فضلاً، ولا يرىٰ له عند أحد حقاً، يرىٰ الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله وهذا خلق إنما يعطيه الله من يحبه ويكرمه ويقربه» (ابن القيم، ١٤٠٢هـ، ص٣١٣).

وهذا التعريف الذي يميل إليه الباحث ويختاره، فهو أشمل من التعريف الذي سبقه، والمتأمل في التعاريف اللغوية والاصطلاحية يراها تدل علىٰ معنىٰ واحد وهو الخضوع والتذلل وخفض الجناح.

ثانياً: أهمية التواضع:

التواضع خلق عظيم، إنه خلق مثالي، وصفة عالية، رغب الله تعالىٰ فيها، وأمر رسوله ﷺ بها فقال: (ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ) [سورة الشعراء: ٢١٥].

«وذلك بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك، والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٥٩٩).

وقد أثنىٰ الله علىٰ أوليائه الذين اتصفوا بصفة التواضع، فقال فيهم: (ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ) [سورة المائدة: ٥٤].

وقد جاء في تفسير قوله تعالىٰ: (ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ): «هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً علىٰ خصمه وعدوه، كما قال

تعـالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ) [سـورة الفـتح: ٢٩]» (ابـن كثيـر، ١٤٢١هـ، ص٤٢٠).

ومما يدل علىٰ أهمية التواضع أن الله سبحانه وعد المتواضعين الدار الآخرة بنعيمها وسرورها وحبورها فقال: (ﯞ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [سورة القصص: ٨٣]. «(ﯞ □ □) التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي قد جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، (□) داراً وقراراً (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □) أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض علىٰ عباد الله، والتكبر عليهم وعلىٰ الحق، (□ □) وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلىٰ الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٦٢٥).

وقد أخبر النبي □ أن التواضع من أسباب الرفعة فقال: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٨٨، ص٦٦٠). كما دعا إليه، ونهىٰ عن الفخر والبغي، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله أوحىٰ إليَّ أن تواضعوا، حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ أحد» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٨٦٥، ص٧٢٤).

فبالتواضع ينتفي البغي والظلم، ويَسود العدل، ويحصل التآلف والتآخي والتحَّاب بين أفراد المجتمع.

وفي الوقت الذي يأمر فيه الإسلام بالتواضع فإنه ينهىٰ عن الكبر؛ لأنه خلق ذميم وبغيض يوُجِب سخطَ الله ومقتَه علىٰ من اتصف به، قال تعالىٰ: (ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ) [سورة الزمر: ٦٠]. بل وجعله الله سبباً لصرف العبد عن آيات الله فلا يفقهها ولا ينتفع بها، فقال تعالىٰ: (ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ) (الأعراف: ١٤٦)، «أي يتكبرون علىٰ عباد الله وعلىٰ الحق، وعلىٰ من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمه الله خيراً كثيراً وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح» (السعدي، ١٤٢٤هـ،ص٣٠٣).

فجدير بكل مسلم أن يتخلق بخلق التواضع، ابتغاء ما أعده الله لمن اتصف به من العزة والرفعة في الدنيا والآخرة، وأن يتجنب الكِبْر خشية عذاب الله ومقته وغضبه.

<u>ثالثاً: أقسام خلق التواضع:</u>

يمكن تقسيم خلق التواضع إلىٰ أربعة أقسام هي:

١- التواضع لله تعالىٰ.
٢- التواضع مع الرسول □.
٣- التواضع مع الخلق.
٤- التواضع مع النفس. (البشري، ١٤٢٠هـ، ص٢٢ – ٢٤).

<u>فالتواضع لله تعالىٰ حق له علىٰ عباده</u>، حيث أنه الخالق المنعم المتفضل، الهادي إلىٰ أحسن السبل، لذا كان واجباً «أن يتواضع العبد لصولة الحق، بأن يتلقىٰ سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقِّهِ، بحيث يكون الحق

متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه ...، فحقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها، فلا يقابلها بصولته عليها» (ابن القيم (أ)، "د. ت"، ج٢، ص٣٤٦).

**والتواضع للرسول **، وهو التواضع للدين الذي جاء به وهو الدرجة الأولىٰ من درجات التواضع، ومعنىٰ التواضع للدين: «أن لا يُعَارِض بمعقول منقولاً، ولا يتهم دليلاً، ولا يرىٰ إلىٰ الخلاف سبيلاً.

(فالتواضع للدين) هو الانقياد لما جاء به الرسول ، والاستسلام له، والإذعان» (ابن القيم (أ)، "د.ت"، ج٢، ص٣٤٧ – ٣٤٨).

أما القسم الثالث من أقسام التواضع فهو التواضع مع الخلق، وهو الدرجة الثانية من درجات التواضع، وهو: «أن ترضىٰ بما رضي الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أخاً، وأن لا ترد علىٰ عدوك حقاً، وأن تقبل من المعتذر معاذيره» (ابن القيم (أ)، "د . ت"، ج٢، ص٣٥٠).

لأنه: «إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبداً، أفلا ترضىٰ أنت به أخاً فَعَدَمُ رضاك به أخاً عين الكبر، وأي قبيح أقبح من تكبر العبد علىٰ عبد مثله، لا يرضىٰ بأخوته، وسيده راضٍ بعبوديته؟

ولا تصح لك درجة (التواضع) حتىٰ تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك. وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقاً له قِبَلَك؟ بل حقيقة (التواضع) أنه إذا جاءك قبلته منه، وإذا كان له عليك حق أديته إليه، فلا تمنعك عداوته من قبول حقه، ولا من إتيانه إياه.

وكذلك من أساء إليك ثم جاء يعتذر عن إساءته فإن (التواضع) يوجب عليك قبول معذرته، حقاً كانت أو باطلاً، وتكل سريرته إلىٰ الله تعالىٰ» (ابن القيم (أ)، "د.ت"، ج٢، ص٣٥٠ – ٣٥١).

أما القسم الرابع وهو التواضع مع النفس، فإنه يمثل الدرجة الثالثة من درجات التواضع، وهو تمام التواضع. وهو: «أن لا يرىٰ العابد لنفسه حقاً علىٰ الله لأجل عمله، فإنه في عبودية وفقر محض، وذل وانكسار، فمتىٰ رأىٰ لنفسه علىٰ الله حقاً فسدت عبوديته، وصارت معلولة، وخيف منها المقت. ولا ينافي هذا ما أحقه سبحانه علىٰ نفسه، من إثابة عابديه وإكرامهم، فإن ذلك حق أحقه علىٰ نفسه بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه، لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم (العزيِّ، ١٤٠٨هـ، ج٢، ص٦٨٧).

وهذه الأقسام الثلاثة (التواضع مع الرسول ، والتواضع مع الخلق، والتواضع مع النفس) داخلة جميعها ضمن التواضع لله تعالىٰ، فطاعة الرسول وإتباعه ومحبته وتصديقه، كل ذلك في حقيقته تواضع وخضوع لله تعالىٰ، فهو الذي أرسل الرسل وشرع الشرائع وأمر الخلق بطاعة الرسل وإتباعهم ومحبتهم وتصديقهم.

والتواضع للخَلْق هو امتثال لأمر الله تعالىٰ الذي قال: (ى ى ي ي   ) [سورة لقمان: ١٨]، وقال: (ﭽ ﭼ ﭻ ﭺ ﭹ ﭸ ﭷ ﭶ ﭵ ﭴ ﭳ ﭲ ﭱ ﭰ ﭯ ﭮ ﭭ ﭬ) [سورة الحجرات: ١٣].

فالتواضع للخَلْق هو تواضع لله تعالىٰ الذي أمر بأن لا يفخر أحدٌ علىٰ أحد ولا يبغي أحد علىٰ أحد. كما في قول النبي : «إن الله أوحىٰ إلَيَّ أن تواضعوا، حتىٰ لا

يفخر أحدٌ علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ أحد» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٨٦٥، ص٧٢٤).

والتواضع مع النفس والذي هو معرفتها علىٰ حقيقتها، وإخضاعها لسلطان باريها وخالقها، وإلزامها بأحكام الدين وآدابه، واعترافها بفضل الله عليها، وأنه ليس لها حق واجب علىٰ الله تعالىٰ إلا ما أوجبه هو علىٰ نفسه بمنِّه وكرمه وإحسانه، كل ذلك في حقيقته خضوع لله وتواضع له، واعتراف بفضله ومنِّه وكرمه.

رابعاً: مواقف ظهر فيها خلق التواضع خلال غزوة الفتح:

١- أول هذه المواقف دخوله □ مكة المكرمة يوم الفتح خاشعاً متواضعاً ، فقد روىٰ ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر: «أن رسول الله □ لما انتهىٰ إلىٰ ذي طوىٰ وقف علىٰ راحلته معتجزاً بشُقَة بُرْد حِبَرة حمراء، وإن رسول الله □ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأىٰ ما أكرمه الله به من الفتح، حتىٰ إن عُثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٣). (وعثنونه، أي: دقنه) توضح ذلك رواية أنس حيث قال: «دخل رسول الله □ مكة يوم الفتح وذقنه علىٰ راحلته متخشعاً» (البيهقي، ١٤٠٥هـ، ج٥، ص٦٨، ٦٩).

٢- والموقف الثاني للرسول □ يوم الفتح وذلك أن رجلاً كلم رسول الله □ فأخذته الرعدة، فقال: «هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٩٢).

٣- وثالث تلك المواقف كان حينما جاء أبو بكر بوالده ليُسْلِم، وكان كبير السن قد كُفَّ بصره، فلما رآه رسول الله □ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتىٰ أكون أنا آتيه فيه؟» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٣).

٤- ومن ذلك أنه حين كان يطوف □، كان يطوف مع الناس لم يتخذ حراساً ولا حجاباً يحولون بينه وبينهم، فقد روىٰ ابن عباس قال: «رأىٰ أبو سفيان رسول الله □ والناس يطؤون عَقِبه، فقال بينه وبين نفسه، لو عاودت هذا الرجل القتال؟ فجاء رسول الله □ حتىٰ ضرب بيده في صدره فقال: «إذاً يخزيك الله»»، فقال: أتوب إلىٰ الله وأستغفر الله مما تفوهت به» (ابن كثير، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٣٠٣). فكون الناس يطؤون عقب رسول الله □ يدل علىٰ أنه كان يطوف معهم، ولم يتميز عنهم، ولم يكن بينه وبينهم من يدفع عنه □ تزاحمهم حوله.

٥- وقد قرر □ هذا الخلق العظيم في خطبته يوم الفتح وهو قائم علىٰ باب الكعبة حيث ورد فيها: يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا قوله تعالىٰ: (ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ) [سورة الحجرات: ١٣].

وإذا كان التواضع خلق عظيم دعا إليه الإسلام ورغب فيه، فإن هناك أخلاقاً فاضلة أخرىٰ حث عليها الإسلام وامتدح أهلها تضمنتها غزوة فتح مكة المكرمة منها خلق الوفاء بالعهد، وهو ما ستتناوله الدراسة في الصفحات التالية بإذن الله تعالىٰ.

المطلب الثالث: الوفاء بالعهد:

تمهيــد:

الوفاء أدب رباني حميد، وخلق نبوي كريم، وسلوك إسلامي نبيل، يدل علىٰ رقي الإنسان، وعلو مكانته، وصحة إيمانه، وحسن إسلامه، وصف الله سبحانه به نفسه، فقال تعالىٰ: (ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ) [سورة البقرة:٤٠]، وقال سبحانه: (...ﭑ ﭒﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ) [سورة الروم: ٦]. كما جعله صفة من صفات أنبيائه عليهم السلام فقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ( ) [سورة النجم: ٣٧]، وعن إسماعيل عليه السلام: (ﭸ ﭹ ﭺ ﭻﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ) [سورة مريم: ٥٤]. وجعله صفة من صفات أوليائه المتقين، حيث قال تعالىٰ: (ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ...) [سورة الرعد: ١٩ – ٢٠].

وقد تضمن القرآن الكريم، والسنة النبوية، والسيرة ما يدعو إلىٰ التخلق بهذا الخلق النبيل ويأمر به، وقد كان الرسول ﷺ وفياً لكل الناس مسلمهم وكافرهم، لا ينقض عهداً أبرمه مع أحد حتىٰ يكون غيرُه هو الذي ينقضه، وقد تضمنت غزوة الفتح مواقف ظهر فيها هذا الخلق واضحاً جلياً. لذا رأىٰ الباحث أن يتناوله بالدراسة من خلال: مفهومه، وأهميته، وأنواعه، ثم بعض المواقف التي تضمنت خلق الوفاء خلال غزوة فتح مكة المكرمة.

أولاً: مفهوم الوفاء بالعهد:

١- التعريف اللغوي:

«الوفاء: ضد الغدر، يقال: وفىٰ بعهده وأوْفىٰ بمعنىٰ» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٥، ص٣٩٨).

«والوافي الذي بلغ التمام، يقال درهمٌ وافٍ وكيلٌ وافٍ وأوفيتُ الكيل والوزن، قال تعالىٰ: (ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ) [سورة الإسراء: ٣٥] وَفَىٰ بعهده يَفي وفاءً وأوْفَىٰ إذا تمم العهد ولم يَنْقُضْ حِفْظَه...» (الأصفهاني، "د. ت"، ص٥٢٨).

إذاً فالوفاء لغة: ضد الغدر، ومعناه: إتمام العهد وعدم نقضه.

٢- التعريف الاصطلاحي:

الوفاء هو: «القيام بما يجب للعهد من رعاية وأداء، سواء أكان العهد معتمداً علىٰ توثيق مكتوب أم علىٰ وعد شريف، أم لم يكن متعاقداً عليه؛ لأنه مما تُلْزِم به الفطرة السليمة والعقل الرشيد والوجدان الحي، كالوفاء لصاحب الجميل» (الحوفي، "د. ت"، ص٣٥٢).

و«العهد: كل ما عوهد عليه الله تعالىٰ، وكل ما بَيْن العباد من المواثيق والعهود» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص١٠٤).

والوفاء بالعهد والوعد هو: «أن يصدق المسلم بما وعد به غيره، بحيث يأتي ذلك مطابقاً له مطابقة تامة، زماناً، ومكاناً، وإن لم يأت الموعود به مطابقاً لأوصافه

دون زيـادة أو نقصـان، كـان الواعد أو المعاهد كاذبـاً، أو محرفـاً للكلـم عـن مواضـعه» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص١٠٤ – ١٠٥).

وكل هذه المعاني اللغوية منها والاصطلاحية تدور حول معنىٰ واحد هو: صدق الإنسان فيما عاهد عليه ووعد به، والإتيان به دون زيادة أو نقصان في الزمان والمكان المحددين وبالوصف المحدد.

ثانياً: أهمية الوفاء بالعهد:

الوفاء بالعهد من أعظم الأخلاق الإسلامية، به يتميز المسلم الصادق، من المنافق المخادع، ويكفيه شرفاً أن الله تعالىٰ وصف نفسه بأنه يفي بوعده، فقال تعالىٰ: (ۇ ۆ ۈ ۇٴ ۋ ۅ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئى ی) [سورة التوبة: ١١١]. فقد بين سبحانه في هذه الآية بأنه سيفي بوعده للمؤمنين الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه.

كما وصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد، كما في قوله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ) [سورة الروم: ٦].

كما وصف به أنبياءه فقال عن إسماعيل عليه السلام: (ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ) [سورة مريم: ٥٤].

ومما يدل علىٰ أهميته أن الله تعالىٰ أمر به وجعله من التقوىٰ، فقال تعالىٰ: (ۋ ې ې ۉ ۉ ې ې ې ې ى ى) [سورة آل عمران: ٧٦]. وبين تعالىٰ أن الخلائق ستسأل عن الوفاء بالعهد يوم القيامة، فقد قال تعالىٰ: (ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ) [سورة الإسراء: ٣٤].هذه الآية نزلت في حق اليتيم، «وهذا من لطف الله تعالىٰ ورحمته باليتيم الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أولياءه بحفظه و حفظ ماله وإصلاحه وأن لا يقربوه إلا بالتي هي أحسن من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص علىٰ تنميته حتىٰ يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده زالت عنه الولاية، ودفع إليه ماله» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٤٥٧).

وفي آخر الآية يأمر سبحانه بالوفاء بالعهد، حيث اعتبر الحفاظ علىٰ مال اليتيم وتنميته وإصلاحه عهد عاهد عليه القائم علىٰ هذا المال ربَّه، فلزم الوفاء به، وهو مسؤول عن ذلك العهد، فإن وفىٰ به فله الثواب الجزيل، وإن لم يوف به فعليه الإثم العظيم.

ولأهمية الوفاء بالعهد ومكانته أمر الله تعالىٰ به المؤمنين فقال تعالىٰ: (ژ ژ ڑ ڑ ک...) [سورة المائدة: ١]. «وهذا شامل للعقود التي بين العبد وربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول ﷺ بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله

بينهم في قوله تعالىٰ: (ۈ ۇ ۋ) [سورة الحجرات: ١٠]، بالتناصر علىٰ الحق والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع، فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أ مر الله بالقيام بها» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٢١٨).

ومما يبين أهميته أن الله تعالىٰ أخذ علىٰ جميع خلقه العهد بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أخذ عليهم ذلك وهم في أصلاب آبائهم، وذلك في قوله تعالىٰ: (ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ...) [سورة الأعراف: ١٧٢].

ومما يزيد من أهمية ومكانة الوفاء بالعهد أن الله تعالىٰ جعله من أخص صفات المؤمنين، فقال تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ڈ ڈ) [سورة الرعد: ١٩ – ٢٠]. فوصفهم بأنهم أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة، وجعل من أولىٰ صفاتهم الوفاء بالعهد وعدم نقضه، ثم بين جملة أخرىٰ من صفاتهم. وبعدها ذكر ما أعد لهم من الثواب في الدار الآخرة، فقال سبحانه: (ژ ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ں ں ڻ ڻ ڈ ڈ ۀ ۀ) [سورة الرعد: ٢٣ – ٢٤].

ولأهميته فقد توعد الله من نقض العهد والميثاق؟ بأشد العقوبة كما في قوله: (ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ ۋ ۋ ۅ) [سورة الرعد: ٢٥]. فبين تعالىٰ أن حالهم أسوأ حال «فلهم البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين، ولهم الجحيم بما فيها من العذاب الأليم» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٤١٧).

فإذا كان الأمر كذلك، فإنه يجب علىٰ كل عاقل أن يتحلىٰ بالوفاء بالعهد، ويُلْزِم نفسه الوفاء بما عاهد عليه سواء كان ذلك متعلقاً بحق الله تعالىٰ أو بحق المخلوقين، ويحذر من خلف الوعد ونقضه؛ لأن فاعله يعرض نفسه للعنة الله ومقته وعذابه.

ثالثاً: أنواع العهود:

«العهد: هو ما يعاهد به الإنسان غيره، وهو نوعان:

الأول: عهد مع الله عز وجل؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ قال في كتابه: (ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ) [سورة الأعراف: ١٧٢]. فقد أخذ الله العهد علىٰ عباده جميعاً أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، لأنه ربهم وخالقهم» (ابن عثيمين، ١٤٢٤هـ، ج٢، ص٤٩١).

الثاني: «عهد مع عباد الله: ومنه العهود التي تقع بين الناس، بين الإنسان وبين أخيه المسلم، وبين المسلمين والكفار، وغيرها من العهود المعروفة، فقد أمر الله تعالىٰ بالوفاء بالعهد، فقال عز وجل: (ۆ ۈ ۈ ۇ ۋ ۋ ۅ) [سورة الإسراء: ٣٤]» (ابن عثيمين، ١٤٢٤هـ، ج٢، ص٤٩١).

ويمكن تقسيم هذا النوع إلىٰ أقسام منها:

١- العهد مع الرسول – صلىٰ الله عليه وسلم –:

فقد أخذ الله علىٰ جميع الناس العهدَ باتباع محمدٍ – ﷺ – وذلك في قوله تعالىٰ: (ڈ ڈ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ) [سورة الأعراف: ١٥٨]. أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في

عقائده وأعماله (ﯙ ﯚ ﯛ) في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتم ضلالاً بعيداً» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٣٠٥).

٢- العهد مع سائر المسلمين:

وأحقهم بالبر والوفاء الوالدان والأقربون، فقد أوصىٰ الله تعالىٰ بالوالدين والأقربين في آيات كثيرة مثل قوله تعالىٰ: (ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ) [سورة الإسراء: ٢٣]، وقوله سبحانه: (ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ) [سورة البقرة: ١٨٠]. وغيرها من الآيات التي توصي بالوالدين والأقربين، أما السنة فاشتملت علىٰ نصوص كثيرة تبين حق الوالدين وذوي القربىٰ وتحث علىٰ صلتهما والقيام بحقوقهما، وذلك في مثل قوله ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمرو قال: «جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٤٩، ص٦٥٢)، فقدم ﷺ بر الوالدين علىٰ الجهاد في سبيل الله. كما بين ﷺ أهمية صلة الرحم، وحرمة قطيعتها، فقال: «إن الله خلق الخلق حتىٰ إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلىٰ. قال: فذاك لك» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٥٤، ص٦٥٤). فكيف يسوغ لمسلم بعد هذا البيان من رسول الله ﷺ أن يقاطع ذوي رحمه ويعاديهم.

ثم تأتي بعد ذلك حقوق بقية المسلمين من أصحاب، وجيران، ويتامىٰ، ومساكين، وابن سبيل، وغيرهم، فكلهم لهم حقوق أوجبها الشرع المطهر، بل جعل الله تعالىٰ القيام بها من البر في قوله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ) [سورة البقرة: ١٧٧].

ويبين الرسول ﷺ حقوق المسلم علىٰ أخيه المسلم فيقول: «حق المسلم علىٰ المسلم ست، قيل: ما هن؟ يا رسول الله! قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢١٦٢، ص٥٦٣).

والآيات والأحاديث في مثل هذا المعنىٰ كثيرة تبين حقوق المسلمين علىٰ بعضهم وتحث علىٰ الوفاء بها، لما في ذلك من خير للمسلمين في دنياهم وأخراهم.

٣- العهد مع غير المسلمين:

نظَّم الإسلام علاقة المسلم بغيره، فجعل لغير المسلم حقوقاً يجب الوفاء بها، من أهمها إتمام العهود المعقودة بيننا وبينهم إذا وفوا بها ولم ينقضوها، فيقول الله تعالىٰ في ذلك: (ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ) [سورة التوبة: ٤].

ويلي ذلك جواز جوار المسلم للكافر إذا استجاره فقد أوجب الله ذلك في قوله تعالىٰ: (ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ) [سورة التوبة: ٦]. هذه الآية تدلُّ علىٰ: «أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز، بل وجب ذلك» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٣٢٩).

والمصلحة هنا أن يسمع المشرك كلام الله تعالىٰ، ويتعرف علىٰ الإسلام، فربما دفعه ذلك إلىٰ الإسلام، وإن لم يحصل ذلك وجب علىٰ المسلم أن يبلغه مأمنه، أي: «المحل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم علىٰ كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله وأمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٣٢٩).

كما وأن لهم حقوقاً كثيرة سبق ذكرها في المبحث الأول من هذا الفصل (ص١٢٧-١٢٨).

رابعاً: بعض المواقف التي ظهر فيها خلق الوفاء بالعهد في غزوة فتح مكة المكرمة:

اشتملت غزوة الفتح علىٰ مواقف عديدة تضمنت هذا الخلق العظيم، كلها تدل علىٰ عظيم خلق الرسول ﷺ، وأنه يفي بوعده مع أعدائه، كما يفي مع أوليائه، لا يمنعه من ذلك بغضه للشرك وأهله، سائراً في ذلك وفق قول الله تعالىٰ: (ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ) [سورة المائدة: ٨]، وفيما يلي سيورد الباحث عدداً من تلك المواقف:

١- **وفاؤه ﷺ مع مشركي قريش بما عاهدهم عليه في صلح الحديبية**، والذي يعتبر مقدمة لفتح مكة، كان ذلك حينما رد إليهم أبو جندل بن سهيل والذي جاء مسلماً يرسف في الحديد ويقول: يا معشر المسلمين أأرد إلىٰ المشركين يفتنوني في ديني؟ ... فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل: اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم علىٰ ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نغدر بهم» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص١٩٧). كما رد أبا بصير وغيره، وذلك كله وفاء بعهده ﷺ فما كان عليه الصلاة والسلام ليغدر أو ينقض ما عاهدهم عليه إلا أن يحصل منهم النقض والغدر كما حصل في صلح الحديبية.

٢- **وفاؤه لحلفائه خزاعة حينما غدرت بهم قريش وبنو بكر**، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي إلىٰ رسول الله ﷺ يستنصره، فقال رسول لله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٤٦). وأخذ رسول الله ﷺ يجهز نفسه ويعد الجيش لفتح مكة المكرمة، ونشر دين الله فيها، ونصر حلفائه خزاعة.

٣- **وفاؤه ﷺ مع الأنصار – رضى الله عنهم –:**

وذلك: «أن النبي ﷺ حين افتتح مكة ودخلها، قام علىٰ الصفا يدعو الله، وقد أحدقت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ، إذ افتتح أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتىٰ أخبروه، فقال النبي ﷺ: «معاذ الله ! المحيا محياكم، والممات مماتكم» (ابن هشام،

١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٦٠). لقد كان هذا أعظم الوفاء منه ، حيث أنه قد فتح بلده، وعاد إلىٰ أهله وعشيرته وقومه، وكان بإمكانه أن يظل في بلده وبين أهله، لكن منعه من ذلك العهد الذي بينه وبين الأنصار رضي الله عنهم في بيعة العقبة الثانية، حيث كلمه أبو الهيثم بن التيهان، وكان ممن حضر هذه البيعة، قال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنّا قاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلىٰ قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ، ثم قال: بل الدم الدم، والهَدْم الهَدْم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج١، ص٢٦٧).

٤- **وفاؤه مع عثمان بن طلحة:**

حين تمَّ للنبي فتح مكة المكرمة، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، وطهرها مما كان بها من صور وتماثيل، ثم خطب خطبة الفتح وهو قائم علىٰ باب الكعبة، ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلىٰ الله عليك، فقال رسول الله : «أين عثمان بن طلحة؟ فَدُعي له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٨).

٥- **وفاؤه مع قريش عامة ومع بعض من أمر بقتلهم:**

أما وفاؤه مع قريش فقد كان ابناً باراً بهم جميعاً قبل الدعوة، ثم خلالها أثناء وجوده في مكة، وبعد الفتح، فقد كان رفيقاً بهم، يحب لهم الخير، ويبذل لهم النصح، ويصبر علىٰ أذاهم، وأكبر دليل على ذلك أنه وفىٰ لهم جميعاً بالأمان الذي أعطاه لهم يوم الفتح.

ومما يدل علىٰ وفائه وبره بهم ما قاله أبو سفيان – رضي الله عنه – حين دخل به العباس بن عبدالمطلب – رضي الله عنه – علىٰ النبي ، والجيش الإسلامي بمرِّ الظهران، فكان النبي يعرض عليه الإسلام ويدعوه إليه، وفي كل مرة يقول أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٢).

ومن ذلك ما قاله سهيل بن عمرو، حين أرسل ابنه عبدالله يطلب له الأمان من رسول الله ، فأمنه، فرجع عبدالله إلىٰ أبيه بالأمان من رسول الله فقال سهيل: «كان والله براً صغيراً وكبيراً» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٤٧). ومثل ذلك كان يقوله عمير بن وهب وهو يطلب من صفوان بن أمية العودة إلىٰ الرسول بعد أن خرج فارّاً منه، فكان عمير يقول لصفوان: «أي صفوان، فداك أبي وأمي، أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال: إني أخافه علىٰ نفسي، قال: هو أحلم من ذاك وأكرم ...» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٦١).

والمتأمل فيما سبق يرىٰ أنهم جميعاً يصفونه بالبر والكرم والحلم، وقد كان كذلك ، وعفوه عن بعض من أهدر دماءهم، مثل عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وهبَّار بن الأسود وغيرهم، يدل علىٰ كرمه وبره ووفائه بما التزم به من أمان لهم، أو

بمبادرة منه □ بالعفو عمن لم يُؤْخذ له الأمان منه حين يأتيه تائباً مسلماً؛ لأنه إنما بعث رحمة للعالمين.

وإذا كان الوفاء بالعهد خلق إسلامي عظيم، فإن هناك أخلاقاً إسلامية أخرىٰ لا تقل مكانة ومنزلة عن الوفاء بالعهد، منها العفو، وأعظمه إذا كان عند المقدرة، وقد تضمنت غزوة الفتح هذا الخلق الكريم، وهو ما ستتناوله الدراسة في الصفحات التالية بإذن الله تعالىٰ.

المطلب الرابع: العفو:

العفو خلق إسلامي كريم، أمر الله تعالىٰ به في كتابه الكريم حيث قال تعالىٰ: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ) [سورة الأعراف: ١٩٩]، وجعله سبحانه سبباً لمغفرته فقال: (ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ) [سورة النور: ٢٢]، وبيَّن أنه من الإحسان والله يحب المحسنين فقال: (ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ) [سورة آل عمران: ١٣٤]، كما أنه سبب للعزة والرفعة فقد قال □: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٨٨، ص٦٦٠).

ولما كان خلق العفو بهذه المنزلة، فقد تخلق به الأنبياء والمرسلون، ومنهم محمد □، حيث كان يغلب جانب العفو علىٰ العقوبة، وفي سيرته □ مواقف كثيرة تؤيد ذلك، وقد اشتملت غزوة فتح مكة المكرمة علىٰ مواقف ظهر فيها هذا الخلق العظيم، لذا رأىٰ الباحث أن يتناوله بالدراسة من خلال: مفهومه، وأهميته، ثم المواقف التي تضمنت خلق العفو خلال الغزوة.

أولاً: مفهوم العفو:

١ـ المعنىٰ اللغوي:

العفو لغة: «هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، وهو من أبنية المبالغة. يقال: عفا يَعْفُو عفواً، فهو عافٍ وعَفُوٌّ، قال الليث: العفو عفو الله عز وجل، عن خلقه، والله تعالىٰ العفو الغفور، وكل من استحق عقوبة فَتَرَكْتَها فقد عَفَوْتَ عنه» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٥، ص٧٢).

ويُعَرَّفُ بأنه: «التجافي عن الذنب» (الأصفهاني، "د. ت"، ص٣٣٩).

وله معان أخرىٰ كالزيادة، والمتيسر، وأجود الشيء وأفضله، وغيرها، ولكن التعريفين السابقين مناسبان لموضوع العفو المراد في هذه الدراسة.

٢ـ المعنىٰ الاصطلاحي:

للعفو تعاريف عديدة منها:

أـ «أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرئ عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ» (الغزالي (أ)، "د. ت"، ج٣، ص١٧٢)، قال تعالىٰ: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ) [سورة الأعراف: ١٩٩].

ب- إسقاط حق جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك علىٰ الانتقام، فتؤثر الترك

رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس» (ابن القيم، ١٤٠٢هـ، ص٣٢٥).

ج- «العفو عن الذنب يصح رجعوه إلىٰ تَرك ما يستحق المذنب من العقوبة، وإلىٰ محو الذنب، وإلىٰ الإعراض عن المؤاخذة كما يعرض عما يسهل علىٰ النفس بذله» (الكفوي، ١٤١٩هـ، ص٦٣٢).

كما وردت له تعاريف أخرىٰ تدور جميعها حول هذه المعاني، وتبين أن العفو يعني: إسقاط العقوبة وتركها، ومحو الذنب، وعدم المؤاخذة به، كرماً وجوداً وإحساناً رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

ثانياً: أهمية العفو ومكانته في الإسلام:

العفو خلق إسلامي عظيم وصف الله تعالىٰ به نفسه فقال سبحانه: (ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ) [سورة الحج: ٦٠].

فقوله تعالىٰ: (ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ) «أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٥٤٣).

ومن أهميته أن الله تعالىٰ أمر به رسوله في قوله تعالىٰ: (ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ) [سورة الأعراف: ١٩٩]، وفي قوله تعالىٰ: (ﭪ ﭫ ﭬ) [سورة الحجر: ٨٥]. «وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٤٣٤).

كما أمر الله به المؤمنين في قوله تعالىٰ: (ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ) [سورة النور: ٢٢]، وقد نزلت هذه الآية في شأن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ومِسْطَح ابن أُثاثة – رضي الله عنه – كان من الخائضين في الإفك، وهو قريب لأبي بكر الصديق، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه لقوله الذي قال.

فنزلت هذه الآية، ينهاهم عن الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه علىٰ العفو والصفح، ويعده بمغفرة الله إن غفر له» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٥٦٤). وهكذا يتنزل القرآن ليربي المؤمنين علىٰ كل خلق فاضل كريم، كالعفو والصفح، ومقابلة الإساءة بالإحسان.

بل جعل الله العفو وصفاً للمحسنين في قوله: (ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨﭩ ﭪ ﭫ ﭬ) [سورة آل عمران: ١٣٤].

وقد ورد في السنة النبوية ما يدل علىٰ فضل العفو ومكانته، فعن عقبة بن عامر قال: «لقيت رسول الله يوماً فابتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال: يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» (الحاكم، ١٤١١هـ، ج٤، حديث رقم ٧٢٨٥، ص١٧٨).

ولأهمية العفو ومكانته فقد كان خلقاً وسجية للنبي فما كان ينتقم لنفسه قط، وإنما ينتقم إذا انتهكت حدود الله تعالىٰ.

والأمثلة علىٰ عفوه منها ما رواه أنس بن مالك قال: «كنت أمشي مع رسول الله وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتىٰ نظرت إلىٰ صفحة عاتق رسول الله قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٨٠٩، ص٨١٩).

<u>ثالثاً: المواقف التي تضمنت خُلق العفو في غزوة فتح مكة شرفها الله:</u>

١- **<u>موقفه من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه،</u>** حين أرسل كتاباً إلىٰ أناس من قريش يخبرهم بما عزم عليه رسول الله من غزوهم، فَأَخْبَر الرسول عليه السلام بذلك عن طريق الوحي، فأرسل من أصحابه من يأتيه بذلك الكتاب، وحين قرأه سأل حاطب عن سبب صنيعه ذلك، فَصَدَقَهُ حاطب رضي الله عنه وبين أنه لم يفعل ذلك ارتداداً عن دينه، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، وإنما حمله علىٰ ذلك خوفه علىٰ قرابته في مكة المكرمة، وحين علم النبي صدقه عفا عنه، وحفظ له سابقته في الإسلام، وشهود بدر وغيرها من الغزوات، وتعامل مع حاطب بما تقتضيه طبيعة النفس البشرية، حيث أنه يعتريها الضعف، وتقع منها الهفوات والزلات، فينصفها حتىٰ في أحلك الظروف.

٢- **<u>عفوه عن قريش،</u>** وهو من أعظم العفو، حيث أنه قدر علىٰ من عذبه وآذاه وقتل أصحابه، وأخرجه وإياهم من ديارهم، وبذل كل ما في وسعه للقضاء عليه وعلىٰ دعوته، ومع ذلك فقد عفا عنهم جميعاً، إلا بضعة نفر. لقد عفا عنهم رسول الله مع قدرته علىٰ عقابهم، وذلك أنهم حين اجتمعوا له في المسجد الحرام، قال لهم ضمن خطبته يوم الفتح: «ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء». (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٨).

وفي هذا «التطبيق العملي للعفو عند المقدرة، كما هو معهود منه فيقدم لأمته النموذج التطبيقي في ذلك، الذي تحتاجه الأمة في معاملتها مع بعضها البعض، ومد سلطان العفو للآخرين؛ حتىٰ يدركوا رحمة الإسلام وسمو أخلاقه، الذي تندفع به النفوس للدخول في دين الله تعالىٰ» (الحازمي، ١٤٢٧هـ، ص٤٧٩).

٣- **<u>عفوه عن بعض من أمر بقتلهم من قريش،</u>** كعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وهند بنت عتبة، وغيرهم، حين تابوا وأتوا إليه نادمين مسلمين.

كل ذلك يبين أهمية العفو، وأنه ركيزة أساسية في السلوك الإنساني الذي اهتم به المنهج التربوي الإسلامي، وقدمه علىٰ العقوبة، فهذا رسول الله يعفو عمن ظلمه

وأساء إليه وإلىٰ الإسلام والمسلمين، كان ذلك علىٰ مرأي ومسمع من عشرة آلاف مسلم ومن كان معهم من المشركين في المسجد الحرام، وفي خطبة هامة هي خطبة الفتح، وفي موقف عظيم كان يترتب فيه الجميع ما سيتخذه النبي من قرار بحق كفار قريش، في هذه اللحظات الحرجة التي بلغت فيها قلوب مشركي قريش الحناجر، يصدر عفواً عاماً عن الجميع، وهو بذلك يقدم أنموذجاً رائعاً لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في تعامله مع من ظلمه أو أساء إليه، ويربي أصحابه والأمة من بعدهم علىٰ ذلك. وقد آتىٰ هذا العفو ثماره طيبة يانعة حين دخل أهل مكة في الإسلام طواعية واختياراً، وكانوا بعد ذلك جنداً من جنود الله، ساهموا مساهمة فاعلة في الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام في الأرض.

هذه بعض المضامين الأخلاقية التي اشتملت عليها غزوة الفتح المباركة، وإذا كانت التربية الإسلامية قد عنيت بالفرد المسلم في جوانب حياته كلها، فإنها كذلك قد عنيت بالمجتمع بأكمله، وحرصت علىٰ أمنه واستقراره وسلامته، وسنت من التشريعات والأحكام ما يحقق ذلك. وقد تضمنت غزوة الفتح المباركة العديد من المضامين التربوية الاجتماعية التي تؤكد حرص الإسلام علىٰ سلامة المجتمع المسلم. وهذا ما ستبينه الدراسة في المبحث التالي بعون الله وتوفيقه.

المبحث الثالث

بعض المضامين التربوية الاجتماعية التي اشتملت عليها غزوة فتح مكة المكرمة

تمهيـــد:

عنـي الإسـلام بالنـاس عنايـة كبيـرة فـي جميـع جوانـب الحيـاة، سـواء كـانوا ممـن يدينون به أو غيرهم، بحيث حفظ لكل حقوقه، وعرَّفه بواجباته، وحرص علىٰ كل ما تستقيم به أمور الناس في معاشهم ومعادهم، فنظم حياتهم تنظيماً كاملاً، وسن التشريعات والأحكام حفاظاً علىٰ الفرد والجماعة، كل ذلك متضمن في كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله وسيرته، وغزوة الفتح المباركة اشتملت علىٰ مضامين تربوية اجتماعية من أبرزها حفظ الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، لأنه بحفظها يكون حفظ المجتمع وصلاحه في الدنيا والآخرة، وبفواتها أو التعدي عليها، يحصل الشقاء، وينتشر الفساد، وتعم الفوضىٰ، ويختل نظام المجتمع.

كما اشتملت غزوة الفتح المباركة علىٰ مضامين تربوية اجتماعية أخرىٰ منها: المساواة بمفهومها الإسلامي، لأن المساواة بالمنظور الإسلامي تختلف عنها في أي منظور آخر، فهي ليست مطلقة، وإنما نسبية، يتساوىٰ الناس في أمور، ويتفاضلون في أمور أخرىٰ.

هذه المضامين سيتناولها الباحث بشيء من التفصيل وفق المطالب التالية:

المطلب الأول: تعريف الضروريات لغة واصطلاحاً، وأهميتها، وترتيبها.

المطلب الثاني: حفظ الدين.

المطلب الثالث: حفظ النفس.

المطلب الرابع: حفظ العقل.

المطلب الخامس: حفظ النسل.

المطلب السادس: حفظ المال.

المطلب السابع: المساواة.

المطلب الأول: الضروريات:

أولاً: مفهوم الضروريات:

١ - التعريف اللغوي:

الضَّرُورة: كالضَّرَّةِ.والضِّرَار: المُضَارَّةُ، ورجل ذو ضَارُورةٍ وضَرُورة أي ذو حاجة، وقد اضْطُرَّ إلىٰ الشيء أي أُلْجِئَ إليه. يقول عز وجل: (گِ گ گ گ گ ں) [سورة البقرة: ١٧٣] أي فمن أُلجئ إلىٰ أكل الميتة وما حُرِّم وضُيِّق عليه الأمر بالجوع، وأصله من الضرر، وهو الضيق. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٤، ص٤٨٣، ٤٨٤).

والضرر المُضارُّ وقد ضَارَرْتُهُ، قال (پ پ پ پ) [سورة الطلاق: ٦]، والضروري يقال علىٰ ثلاثة أضرب:

أحدها: إما أن يكون علىٰ طريق القهر والقسر لا علىٰ الاختيار كالشجر إذا حركته الريح الشديدة.

والثاني: ما لا يحصل وجودُهُ إلا به نحو الغذاء الضروري للإنسان في حفظ البدن.

والثالث: يُقَال فيما لا يمكن أن يكون علىٰ خلافه نحو أن يقال الجسم الواحد لا يصح حصولُه في مكانين في حالة واحدة بالضرورة. (الأصفهاني، "د.ت"، ص٢٩٤).

٢ - التعريف الاصطلاحي:

للضروريات تعاريف عديدة منها:

أ- «هي التي تكون الأمة بمجموعها وآحادها في ضرورة إلىٰ تحصيلها بحيث لا يستقيم النظام باختلالها، فإذا انخرمت تؤول حالة الأمة إلىٰ فساد وتلاش» (ابن عاشور، ١٤٢١هـ، ص٣٠٠).

ب- كما تعرف بأنها المصلحة: «ونعني بالمصلحة المحافظة علىٰ مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة» (الغزالي (ب)، "د.ت"، ج٢، ص٤٨٢).

ج- كما تعرف بأنها: «لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا علىٰ استقامة، بل علىٰ فساد وفوت حياة، وفي الأخرىٰ فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين». (الشاطبي، ١٤٢٣هـ، ج٢، ص٨).

والملاحظ أن التعاريف اللغوية والاصطلاحية تدور حول معنىٰ واحد للضروريات وهو: أنها الأمور التي لا يمكن الاستغناء عنها، بل لابد من تحصيلها والحفاظ عليها؛ لتستقيم أمور الناس، وتصلح حياتهم، وبدونها يختل نظام الحياة، وتسودها الفوضىٰ، ويعم الفساد، ويفوت النعيم الدنيوي والأخروي.

ثانياً: أهمية الضروريات ومكانتها في الإسلام:

اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بالضروريات الخمس، وعني بها عناية فائقة، حيث ورد الأمر بحفظها في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، فقد أمر الله بحفظها وحذر من الاعتداء عليها في مواضع من القرآن الكريم، وذلك في مثل قوله تعالىٰ: (ﮯ ﮰ
ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ □ □□ □ □ □ □ □
□ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯿ ﰀ ﰁ □ □ □ □ □
ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ
ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ
ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ) [سورة الأنعام: ١٥١ – ١٥٣].

ففي الآيات السابقة حرم الله تعالىٰ الشرك، وفي تحريمه تحقيق للتوحيد وحفظ للدين، كما حرم قتل الأولاد بسبب الفقر، كما حرم قتل النفس «وهي النفس المسلمة، من ذكر وأنثىٰ، صغير وكبير، بار وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق، إلا بالحق كالزاني المحصن، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٢٨٠)، كما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وجاء النهي عن قربانها وهو أبلغ من النهي عن فعلها، لأنه يتناول النهي عن مقدماتها وأسبابها الموصلة إليها، وفي هذا حفظ للعرض.

ثم حرم الاعتداء علىٰ مال اليتيم، وأمر بالوفاء في الكيل والميزان، وفي هذا حفظ للمال. «وجاء الأمر بحفظ العقل ضمناً خلال مجموعة التكاليف بحفظ الضرورات الأخرىٰ، لأن الذي يفسد عقله لا يمكن له أن يقوم بحفظ بقية الضرورات، ولعل في قوله تعالىٰ: (ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ) ... ما يدل علىٰ ذلك» (القاضي، ١٤٢٣هـ، ص٥٧).

وكذلك في قوله تعالىٰ: (ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ) ما يشير إلىٰ حفظ العقل لأنه لا يتذكر إلىٰ من سلم عقله من كل ما يفسده.

كما جاءت السنة مؤكدة علىٰ حفظها، فقد كان النبي □ يبايع الناس علىٰ ذلك، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أن رسول الله □ قال وحوله عصابة من أصحابه: «تعالوا بايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفىٰ منكم فأجره علىٰ الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلىٰ الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه» قال فبايعته علىٰ ذلك. (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٣٨٩٢، ص٥٢٨).

كما بايع □ من هاجر من النساء إلىٰ المدينة علىٰ ذلك، وكذلك حين فتح مكة المكرمة.

بل جعل النبي □ التعدي عليها من الأمور المهلكة فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس

التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٧٦٦، ص٣٧٤).

ومن أهميتها أن النبي نفىٰ كمال الإيمان عمن اعتدىٰ علىٰ هذه الضروريات، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٤٧٥، ص٣٢٨).

كما بيَّن أن من قُتِل دون شيء من هذه الضروريات فهو شهيد، فعن سعيد بن زيد – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله يقول: «من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتِل دون أهله فهو شهيد». (الترمذي، ١٣٩٥هـ، ج٤، حديث رقم ١٤٢١هـ، ص٣٠).

هذه بعض الأمور التي تبين أهمية ومكانة هذه الضروريات، ومع أهميتها جملة ووجوب حفظها وصيانتها وعدم الاعتداء عليها، إلاَّ أنها تتفاضل فيما بينها وبعضها مقدم علىٰ بعض وهذا ما سيرد بيانه بإذن الله تعالىٰ فيما يلي:

المطلب الثاني: حفظ الدين:

تمهيد:

خلق الله تعالىٰ الإنسان، وشرَّع له أدياناً، تقوم عليها حياته، فكل دين منهج حياة كامل، اشتمل علىٰ الشعائر التعبدية، والأحوال الشخصية، بل وهيمن علىٰ نشاط الإنسان كله، ووجه تصوراته وأفكاره ومشاعره وأخلاقه، وارتباطه بخالقه سبحانه وبالمخلوقين.

«جاء كل دين من عند الله لينفذ في دنيا الواقع، وليتبعه الناس في نشاطهم الحيوي كله، لا ليبقىٰ مجرد شعور وجداني قابع في ضمائرهم، ولا مجرد تهذيب روحي في أخلاقهم، ولا مجرد شعائر تعبدية في محاربهم ومساجدهم، ولا مجرد أحوال شخصية في جانب واحد من حياتهم» (قطب، ١٤٠٣هـ، ص١٧، ١٨).

ولما كان الدين هو المنظم لحياة الناس كلها، أرسل الله من أجله الرسل وأنزل الكتب، جاء موسىٰ عليه السلام بالتوراة، وعيسىٰ عليه السلام بالإنجيل، ومحمد بالقرآن، جاءوا ليردوا الناس إلىٰ ربوبية الله وحده، وإلىٰ منهج الله وحده، وكل أنبياء الله ورسله عليهم السلام توالت دعوتهم إلىٰ نفس الأمر.

لقد كان الهدف من إرسال الرسل جميعاً بقاء الناس علىٰ دين الله تعالىٰ، وعلىٰ منهجه الذي رسمه لهم، لقد كانت دعواتهم جميعاً حفاظاً علىٰ الدين، وحماية لجناب التوحيد، وقد جاءت النصوص في كتاب الله وسنة رسوله داعية إلىٰ إقامة دين الله والتمسك به، محذرة من تجاوزه أو تعدي حدوده. يقول الله تعالىٰ: (ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک ک) [سورة الشورىٰ: ١٣).

ومن أجل الحفاظ علىٰ الدين أمر الله تعالىٰ بمقاتلة المشركين والكافرين حتىٰ يكون الدين كله لله، قال تعالىٰ: (ۋ ۋ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ) [سورة الأنفال: ٣٩]،

فالمقصود من قتال أعداء الله وجهادهم، هو دفع شرهم عن الدين، والذبُّ عنه؛ من أجله قامت الخصومات بين الرسل عليهم السلام وأممهم، ووقع القتال، ومن ذلك ما وقع بين نبينا محمد وقومه، وكان من أشهر المواقع بينهم غزوة فتح مكة المكرمة، والتي تضمنت مواقف عديدة ظهرت فيها أهمية الدين ومكانته، ووجوب الحفاظ عليه، ومنع كل أمر يحدث فيه خللاً أو نقصاً ، وهذا سيتناوله الباحث بشيء من التفصيل خلال هذا المطلب مبيناً مفهوم الدين، وأهميته ومراتبه، ثم المواقف التي تضمنت الحفاظ عليه خلال غزوة الفتح المباركة.

أولاً: مفهوم الدين:

أ- التعريف اللغوي:

يطلق الدين في اللغة علىٰ عدة معان: «الجزاء والمكافأة، والحساب، والطاعة، والإسلام، والذل، والعادة والشأن، والحال، وما يتدين به الرجل، والسلطان، والورع، والقهر، والاستعباد، والمعصية، والداء ...» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٣، ص١٦٩ – ١٧١).

ب- التعريف الاصطلاحي:

عُرِّف الدين اصطلاحاً بتعاريف عديدة حيث:

١- عُرِّف بأنه: «عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلىٰ الخير بالذات، قلبياً كان أو قالبياً، كالاعتقاد والعلم والصلاة» (الكفوي، ١٤١٩هـ، ص٤٤٢).

٢- كما عُرِّف بأنه: «وضع إلهي يرشد إلىٰ الحق في الاعتقادات، وإلىٰ الخير في السلوك والمعاملات» (دراز، "د. ت"، ص٢٩).

٣- وعُرِّف أيضاً بأنه: «مجموعة العقائد والعبادات والأحكام والقوانين التي شرعها الله سبحانه لتنظيم علاقة الناس بربهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض» (خلاف، ١٣٩٨هـ، ص٢٠٠).

وهذه التعاريف متقاربة في معانيها حيث تبين أن الدين منهج إلهي ينظم حياة الناس، ويحدد علاقاتهم مع خالقهم، ومع أنفسهم، ومع غيرهم، يمارسونه في حياتهم علىٰ قدر طاقاتهم، ووفق المنهج الذي رسمه الله لهم لينالوا بذلك الخير والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

ج- العلاقة بين المعنىٰ اللغوي والمعنىٰ الاصطلاحي:

يتفق المعنىٰ اللغوي مع المعنىٰ الاصطلاحي، حيث أن أظهر المعاني اللغوية للدين هو الانقياد والطاعة والخضوع، وهو ما تدل عليه المعاني الاصطلاحية، إلا أن المعنىٰ اللغوي أوسع، فالانقياد والخضوع والطاعة بهذا المعنىٰ قد تكون لله، وقد تكون لغيره، أما في الاصطلاح الشرعي فلا تطلق إلىٰ علىٰ الانقياد والخضوع والطاعة لله وحده لا شريك له.

ثانياً: أهمية الدين:

لقد خلق الله تعالىٰ الإنسان، وسخر له مكونات الكون جميعاً، بل وجعل له السيادة عليها، ووكل إليه مهمة عمارة الأرض والاستفادة من خيراتها، ثم كلفه بالأمر العظيم الذي جعله غاية وجوده والهدف من خلقه ألا وهو العبادة.

ولما كان الإنسان تتنازعه الأهواء والشهوات والشبهات، مع ما سخر الله له من الإمكانات، وما أودع فيه من القدرات والطاقات والميول والرغبات التي إن لم توجه توجيهاً سليماً أصبحت عوامل تخريب وإفساد وتدمير.

«لذا فقد كان الإنسان بأمس الحاجة إلىٰ تبصرة سليمة ودقيقة بحقيقة هذه الصفات التي ركبت فيه، وبالحكمة من وجودها في كيانه، وتُمَيزُّه عن سائر الحيوانات والمخلوقات، وإلىٰ تعريفه بكيفية استعمالها والاستفادة منها علىٰ وجهها الصحيح، وإلىٰ معرفة العلاج الواقي من أوضارها وسوء مغبتها» (البوطي، ١٤٠٤هـ، ص٢٤).

وجاءت تلك التبصرة عن طريق الوحي الذي تتابع نزوله علىٰ الرسل من آدم عليه السلام إلىٰ محمد □، والذين جاءوا بالدين القيِّم من عند الله. والذي هو الطريق الوحيد لضبط مسيرة الإنسان في هذه الحياة، وتوجيه طاقاته وملكاته وقدراته الوجهة السليمة التي تحقق له أهدافه وغاياته في الدنيا والآخرة، لذلك كان الدين في غاية الأهمية لجميع البشر، ومما يبين أهميته أن الله سبحانه وتعالىٰ أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأمر الرسل بإبلاغه للناس، كما في قوله تعالىٰ: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ) [سورة المائدة: ٦٧]. «وهذا أمر من الله لرسوله □ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه □، من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٢٣٩).

كما أمر سبحانه الخلق باتباع دينه الذي أنزله إليهم في كتبه وعلىٰ لسان رسله، كما في قوله تعالىٰ: (ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ) [سورة الأعراف: ٣].

ومما يدل علىٰ أهمية الدين أن الله تعالىٰ جعله سبباً للسعادة في الدنيا والآخرة، وبيَّن أن من اتبعه لا يضل ولا يشقىٰ. قال تعالىٰ: (ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [سورة طه: ١٢٣]. كما بيَّن أن الإعراض عنه سبب لضيق العيش وضنكه وحصول الهموم والغموم والأكدار، قال تعالىٰ: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ) [سورة طه: ١٢٤ – ١٢٧].

ولمكانته وأهميته فقد كان الارتداد عنه أعظم الذنوب، قال تعالىٰ: (...ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ) [سورة البقرة: ٢١٧].

ولأهميته فقد أوصىٰ به الرسل أبناءهم. قال تعالىٰ عن إبراهيم ويعقوب عليهما

السلام: (ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ) [سورة البقرة: ١٣٢].

وقد كان وصية الصالحين بعدهم في كل زمان ومكان، فالعبد الصالح لقمان يوصي ابنه بترك الشرك والذي من لوازمه إقامة التوحيد، وذلك في قوله تعالىٰ: (ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ) [سورة لقمان: ١٣]. ثم أوصاه في الآيات التي جاءت عقب هذه الآية بوصايا عظيمة كلها من دين الإسلام. فأوصاه ببر الوالدين وطاعتهما ما لم يأمرا بمعصية الله، وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر، والتواضع، والصبر علىٰ أقدار الله، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالتواضع في مشيته، وخفض الصوت، «وهذه الوصايا التي وصىٰ بها لقمان ابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلىٰ فعلها إن كانت أمراً، وإلىٰ تركها إن كانت نهياً» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٦٤٩).

ولما كان الدين بهذه الأهمية، فإنه من الواجب علىٰ كل مربٍ أن يدعو إليه من يقوم بتربيتهم، ويبيِّن لهم مقاصده وأهدافه وغاياته، والعاقبة الحميدة لمن التزم به وسار علىٰ نهجه.

ثالثاً: المواقف التي تضمنت الحفاظ على الدين خلال غزوة فتح مكة المكرمة:

من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ الضروريات الخمس، ومن أهمها الدين وحفظ أي منها يكون بأمرين:

«**أحدهما**: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم» (الشاطبي، ١٤٢٣هـ، ج٢، ص٧)

وحفظ الدين بالأمرين حدث في غزوة الفتح في مواقف عدة منها:

١- أنه ﷺ كان خلال مسيره إلىٰ مكة المكرمة يعلم المسلمين من خلال التطبيق العلمي بعض شرائع الدين منها:

أ- أنه عليه الصلاة والسلام «سافر في رمضان، فصام حتىٰ بلغ عسفان، ثم دعا بإناء من ماء فشرب نهاراً ليريه الناس، فأفطر حتىٰ قدم مكة المكرمة» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٧٩، ص٥٨١).

ب- وأنه ﷺ خلال سفره من المدينة المنورة إلىٰ مكة المكرمة، وخلال مدة إقامته في مكة المكرمة، وفي طريق عودته إلىٰ المدينة المنورة كان يقصر الصلاة، ولم يثبت عنه أنه صلاها تامة خلال هذه الفترة، يدل علىٰ ذلك ما رواه أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة المنورة إلىٰ مكة المكرمة، فصلىٰ ركعتين ركعتين، حتىٰ رجع، قلت: كم أقام بمكة؟ قال: عشراً» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٦٩٣، ص١٦٦).

وهو بهذا يبين للناس بعض مظاهر السماحة واليسر في دينهم، خصوصاً وأنه قد اجتمع له عدد كبير من المسلمين، لم يجتمع له قبل ذلك مثله.

٢- بين النبي □ خلال مدة إقامته في مكة الكثير من الأحكام، إما بفعله وإما بقوله، فبين حكم دخول مكة بغير إحرام، والطواف علىٰ الراحلة، والصلاة داخل الكعبة، واستلام الحجر الأسود، والقضاء علىٰ كل آثار الشرك ومعالمه، وأقام حد السرقة، وودَىٰ الرجل الذي قتلته خزاعة ثاني أيام الفتح، كل هذه الأحكام وغيرها بينها بفعله □.

كما بين أحكاماً كثيرة بقوله، كبيان حرمة مكة (صيدها، وخلاها، ولقطتها، والقتال فيها)، وبيان حكم القتل شبه العمد ومقدار الدية فيه، ودية الكافر، وأنه لا يقتل مؤمن بكافر، وحكم الأحلاف في الإسلام، وأنه لا هجرة بعد الفتح، كما أجاز جوار المسلم سواء كان رجلاً أو امرأة، كما بين الحكم في ولد الزنا، وبين حد العاهر، وحرم بيع الخمر والميتة والأصنام، وحرم التفاخر بالأحساب والأنساب وغيرها من أمور الجاهلية، كما حرم نكاح الشغار، إلىٰ غير ذلك من الأحكام.

٣- وحين انصرافه □ من مكة المكرمة أبقىٰ للناس معاذ بن جبل – رضي الله عنه – ليصلي بالناس ويفقههم في دينهم، ويعلمهم القرآن، كما استخلف عتاب بن أسيد – رضي الله عنه – عليها ليحكم بين الناس بكتاب الله، ويأخذ من قويهم لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم.

٤- ولا ينبغي أن ننسىٰ أن الهدف الأسمىٰ للغزوة كلها هو القضاء علىٰ كل معالم الوثنية والشرك في بلد الله الحرام، وإقامة صرح التوحيد، ونشر دين الله تعالىٰ في أقدس بقاع الأرض، ليعود لبيت الله تعالىٰ وبلده الحرام طهرهما وقدسيتهما، وليبقىٰ مثابة للناس وأمناً، كما أراده الله تعالىٰ.

هذه بعض الأمور التي حدثت خلال غزوة الفتح المباركة، ظهر من خلالها أهمية الدين ومكانته، ووجوب المحافظة عليه، بإقامة أركانه وتثبيت قواعده، وبدرء كل ما يخالف الدين أو يحدث به خللاً ونقصاً.

وإذا كان الدين بهذه الأهمية فإن هناك ضروريات أخرىٰ يجب الحفاظ عليها ومنها النفس، فقد أوجب الإسلام الحفاظ عليها، وسن التشريعات والأحكام الكفيلة بذلك، وفي المطلب التالي سيبين الباحث شيئاً من ذلك بعد بيان مفهوم النفس، وأهميتها ومكانتها في الإسلام، ثم مواقف من غزوة الفتح تضمنت الحفاظ علىٰ النفس وصيانتها.

المطلب الثالث: حفظ النفس:

تمهيـــد:

لقد خلق الله آدم – عليه السلام – بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وفضله علىٰ كثير ممن خلق، وجعله وذريته خلفاء الأرض، ليحققوا الغاية التي خلقوا من أجلها، وهي عبادته وحده لا شريك له، وعمارة الأرض.

ولما كان هذا الأمر لا يتحقق إلا باستمرار الحياة علىٰ هذه الأرض، وذلك بتكاثر الجنس البشري وبقائه، فقد حرم الله الاعتداء علىٰ النفس بدون حق، وجعل قتل نفس واحدة ظلماً وعدواناً كقتل الناس جميعاً، والمحافظة عليها كالمحافظة علىٰ الناس جميعاً، وذلك في قوله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ...) [سورة المائدة: ٣٢].

كما حرم قتل النفس في قوله تعالىٰ: (□ □ □ □ □ □ □ ى...) [سورة الأنعام: ١٥١].

ولما كانت النفس البشرية بهذه المنزلة، كان الحفاظ عليها ضرورة من الضرورات، التي تحقق للإنسان حياة سعيدة آمنة مطمئنة، يستطيع خلالها القيام بما افترضه الله عليه من العبادة والطاعة، والسعي في الأرض لطلب الرزق، وعمارة الأرض، وتحقيق مصالح دنيوية وأخروية لا يمكن تحقيقها إلا بنفس سليمة معافاة قوية خالية من الأمراض والعلل النفسية والجسدية.

والباحث سيتناول هذا الموضوع من خلال: مفهوم النفس، وأهميتها في التربية الإسلامية، ثم المواقف التي تضمنت الحفاظ علىٰ النفس خلال غزوة فتح مكة المكرمة.

أولاً: مفهوم النفس:

١- المفهوم اللغوي:

للنفس في اللغة معانٍ كثيرة منها: الرُّوح، وما يكون به التمييز، والدم، والأخ، ويعبر بها عن الإنسان جميعه، وعن الجسد، وتأتي بمعنىٰ العظمة، والكبر، والعزة، والهمة، وعين الشيء وكنهه وجوهره، والأنفة. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٦، ص٢٣٤ – ٢٣٦).

وتأتي بمعنىٰ: العِنْد: (ں ں ڻ ڻ) [سورة المائدة: ١١٦]، والغيب، والإرادة، والعقوبة، والماء لفرط الحاجة إليه، والرأي لانبعاثه عنها. (الكفوي، ١٤١٩هـ، ص٨٩٧).

٢- المفهوم الاصطلاحي:

«النفس في القرآن تطلق علىٰ الذات بجملتها كقوله تعالىٰ: (ۉ ۉ ۋ) [سورة النور: ٦١] وقوله تعالىٰ: (ٱ ب ٻ ٻ پ پ پ) [سورة النحل: ١١١] وقوله تعالىٰ: (□ □ □ □ □) [سورة المدثر: ٣٨]، وتطلق علىٰ الروح وحدها كقوله تعالىٰ: (ٿ ٿ ٿ) [سورة الفجر: ٢٧] ...» (ابن القيم، ١٤٠٢هـ، ص٢٩٠، ٢٩١).

وقد تطلق في القرآن ويراد بها معانٍ أخرىٰ كالذات الإلهية المقدسة، أو آدم عليه السلام، وضمير الإنسان وطويته، وغيرها مما ذكره (الهاشمي، ١٤٠٣هـ، ص٤٣ - ٤٩).

وموجز القول: أن كلمة (نفس) في القرآن الكريم باستثناء دلالتها علىٰ الذات الإلهية فإنها تدل علىٰ (الإنسان) بجميع مكوناته الجسمية والفكرية والسلوكية وفي مقوماته الوراثية والمكتسبة، وفي دوافعه وميوله وما هو مستعد له من تعزيز وإعلاء أو انحراف أو هبوط (الهاشمي، ١٤٠٣هـ، ص ٤٩).

والنفس المرادة في هذا المطلب هي ذات الإنسان بجملتها.

ثانياً: أهمية النفس ومكانتها في الإسلام:

للنفس في التربية الإسلامية أهمية بالغة ومكانة سامية، جعلتها إحدىٰ الضرورات الخمس التي تجب المحافظة عليها، فالإسلام يحرص علىٰ سلامة النفس كحرصه علىٰ سلامة العقيدة؛ لأنه لا يقوم أحدهما ولا يرجىٰ له سلامة إلا بقيام الآخر وسلامته.

وقد جعلت التربية الإسلامية للنفس مكانة عالية، وأولتها أهمية بالغة يتجلىٰ ذلك من خلال ما يلي:

من خلال ذكرها في القرآن الكريم، حيث ذكرت ما يقرب من (٢٩٥) مرة» (عبدالباقي، ١٤٢٢هـ، ص٨٠٣ – ٨٠٧). وفي هذا دلالة علىٰ أهميتها ومكانتها.

خَلَق الله تعالىٰ الإنسان الأول أبو البشر آدم – عليه السلام – بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء الأشياء، واستخلفه في الأرض، وفضله علىٰ كثير ممن خلق تفضيلاً، ورد ذلك كله في كتاب الله الكريم في مثل قوله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پپ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ)... إلىٰ قوله تعالىٰ: (ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮬ) [سورة البقرة: ٣٠ – ٣٤].

ولأهمية النفس – والتي يراد بها ذات الإنسان– سخر الله لها ما في الكون وأسبغ عليها نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤڤ ڦ) [سورة لقمان: ٢٠]. والآيات التي تبين تسخير الله ما في الكون للإنسان كثيرة يصعب حصرها.

ولأهمية النفس فقد أمر الله بالمحافظة عليها، والعناية بها، ووقايتها من كل ما يلحق الضرر بها في الدنيا والآخرة، ورد ذلك في مثل قوله تعالىٰ: (ڃ ڃ ڃڃ چ چ چ چ چ) [سورة النساء: ٢٩]. أي: «لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلىٰ التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلىٰ التلف والهلاك» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص١٧٥).

وقد بيَّن سبحانه عاقبة من قتل النفس ظلماً وعدواناً حيث قال بعد الآية السابقة: (ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژژ ڑ ڑ ک ک ک) [سورة النساء: ٣٠]. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «من تردىٰ من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردَّىٰ فيها خالداً فيها أبداً، ومن تحسَّىٰ سُمًّا فقتل نفسه، فسُمُّه في يده يتحسَّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يَجَأُبُها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٧٧٨، ص٨١٥).

وفي هذا تحذير شديد من إتلاف النفس وإزهاقها بدون حق، حتىٰ وإن كانت نفس الإنسان؛ لأنها ليست ملكه، وإنما هي ملك الله وتحت تدبيره وتصرفه، وهو إنما خلقها سبحانه لتبقىٰ ما أراد لها الحياة، ثم إذا بلغت أجلها توفاها هو سبحانه، وليس من حق الإنسان التعدي علىٰ حق من حقوق الله تعالىٰ، فإنهاء الحياة وقبض الأرواح حق له تعالىٰ، فهو القائل: (ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃڃ چ چ چ چ چ ڇ) [سورة الزمر: ٤٢].

ولم تقتصر عناية الإسلام واهتمامه بالنفس في الدنيا، بل دعا إلىٰ حفظها في الدار الآخرة، فقد أمر سبحانه بأن نقي أنفسنا وأولادنا عذابه في الآخرة حيث قال: (ۋ ۋ ۇ ۆ ۈ ۉ ۅ ۋ ې ې ۑ ﭑ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [سورة التحريم: ٦].

ولأهمية النفس فقد جعل الله الدماء أول ما يقضىٰ فيه يوم القيامة من حقوق الآدميين، فقد قال النبي □: «أول ما يقضىٰ بين الناس بالدماء» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٦٥٢٣، ص٩٠٤).

كما أنه لم تسقط العقوبة حتىٰ في حال القتل الخطأ سواء كان المقتول مسلماً أم غير مسلم، وسواء كان صغيراً أم كبيراً، ذكراً أم أنثىٰ، فقال تعالىٰ: (ٱ ب ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک) [سورة النساء: ٩٢].

كما غلظت الشريعة الإسلامية العقوبة في حال القتل العمد فجعلت القصاص هو عقوبة القتل في الدنيا، إلا أن يعفو صاحب الدم، فقد قال □: «... فمن قُتِلَ فهو بخير النظرين: إما أن يُعقَل، وإما أن يقاد أهل القتيل» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ١١٢، ص٢٤). وجعلت عقوبة في الآخرة عذاب جهنم وغضب الله ولعنته، قال تعالىٰ: (گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ) [سورة النساء: ٩٣].

كل هذه النصوص وغيرها تبين حرمة التعدي علىٰ النفس، ووجوب الحفاظ عليها، ووقايتها من كل ما يضر بها، وفي هذا دلالة عظيمة علىٰ أهميتها ومكانتها في الإسلام، وأنها ضرورة يجب الحفاظ عليها لما يترتب علىٰ ذلك من مصالح دنيوية وأخروية للفرد والمجتمع.

ثالثاً: مواقف في غزوة فتح مكة المكرمة تضمنت الحفاظ على النفس وصيانتها:

المتتبع لأحداث غزوة الفتح يجدها تضمنت العديد من المواقف التي تُظهر أهمية النفس البشرية، وتدعو إلىٰ المحافظة عليها وصيانتها من كل ما يلحق بها الضرر، ومن تلك المواقف:

١- حين بدأ رسول الله □ يتجهز للغزو وحرص علىٰ أن يكتم أمره حتىٰ لا تعلم قريش بما يريده □، وذلك لتتم له المباغتة لقريش، فلا تستطيع المقاومة، وبذلك تحقن الدماء وتحفظ النفوس، وكان هذا أكبر همه □، وقد تحقق له ما أراد – بفضل الله تعالىٰ – فدخل مكة المكرمة دون قتال يذكر، إلا ما كان مع فرقة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولم يتجاوز ذلك مناوشات لم تدم إلا وقتاً قصيراً هُزم فيها من تعرضوا لخالد بن الوليد – رضي الله عنه – ولفرقته.

٢- أمْرُه □ قادة جيشه وجنده بأن لا يُقَاتلوا وألا يسفكوا دماً إلا إذا أُكْرِهوا علىٰ ذلك إكراهاً، لذلك فقد استنكر □ ما حصل من خالد بن الوليد – رضي الله عنه – من

قتال، فقال حين رأىٰ بارقة السيوف: «ما هذه البارقة؟ ألم أنْه عن القتال؟ قيل: يا رسول الله، خالد بن الوليد قوتل، ولم لم يُقَاتَل ما قاتل! فقال رسول الله ﷺ: «قضىٰ الله خيراً». (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٢٦)، وفي هذا دلالة واضحة علىٰ حرصه ﷺ علىٰ النفوس، ورغبته الشديدة في عدم إزهاقها وإتلافها.

٣- عفوه العام ﷺ عن قريش ألد أعدائه وأشد خصوم دعوته، حين أمكنه الله منهم بعد الفتح، والأعظم من ذلك عفوه ﷺ عن بعض من أمر بقتلهم من قريش حين جاءوا معتذرين تائبين؛ لأنه ﷺ إنما بُعِث رحمة للعالمين، ولحرصه علىٰ سلامة الناس وحمايتهم من كل ما يضرهم في الدنيا والآخرة. لذلك فقد نسي ﷺ كل أذىٰ وعذاب لحق به وبأصحابه من قريش، وكان همه وكل ما يشغل تفكيره هو إنقاذ الناس من كل ما يلحق بهم الشقاء والعناء في الدنيا والآخرة.

٤- بيَّن ﷺ في أول خطبة خطبها بعد الفتح دية القتل الخطأ، فجعلها مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، فجعلها ديَّة مغلظة، كما بيَّن أن أعتىٰ الناس علىٰ الله عز وجل ثلاثة: رجل قتل في مكة، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بثأر في الجاهلية، كان ذلك في خطبة من خطبه في أيام فتح مكة المكرمة حين قتلت خزاعة رجل من هذيل لثارات كانت بينهم في الجاهلية، فغضب الرسول ﷺ لذلك غضباً شديداً، وخطب في هذا الشأن، وبيَّن حرمة النفس، وعظيم جرم من اعتدىٰ عليها بغير حق، ثم وَدَىٰ الهذلي. وكذلك فعل في قتلىٰ بني جزيمة الذين قتلهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - حين أرسل لهم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فأدىٰ دياتهم، وغرم لهم ما فقدوه من أموالهم.

٥- كما بيَّن عليه الصلاة والسلام أن القتل العمد فيه الدية أو القصاص، حسب رغبة أهل القتيل فقال في ذلك: «... ومن قُتِل فهو بخير النظرين إما أن يُعْطَىٰ (يعني الدية)، وإما أن يقاد (أهل القتيل)». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٤٤٨، ص٣٣٤).

كل هذه المواقف تدل علىٰ مكانة النفس البشرية في التربية الإسلامية، وتربي الأمة علىٰ الحفاظ عليها، وتبين خطورة الاعتداء عليها، وعقوبة ذلك في الدنيا والآخرة.

وبعد التعريف بالنفس لغة واصطلاحاً، وبيان مكانتها في التربية الإسلامية، وبعض المواقف التي تضمنت وجوب الحفاظ عليها، حيث أنها إحدىٰ الضرورات الخمس التي أمر الإسلام بحفظها، ينتقل الباحث إلىٰ ضرورة أخرىٰ يجب الحفاظ عليها أيضاً وصيانتها وهي العقل.

المطلب الرابع: حفـــظ العقل:

تمهيـــد:

اهتمت التربية الإسلامية بالإنسان من جميع جوانبه، حيث أنها تربية متوازنة لا تُغَلِّب جانباً علىٰ آخر، بل تهتم بالإنسان كوحدة واحدة، تعمل جميع أجزائه مع بعضها في نظام محكم يؤدي إلىٰ التكامل فيما بينها وعدم التعارض، فالروح والجسم والعقل في حال سلامتها تعمل مجتمعة للوصول بالإنسان إلىٰ ما يسعده في الدنيا والآخرة.

والعقل من أعظم النعم التي أنعم الله بها علىٰ الإنسان، حيث ميزَّه بـه عن سـائر الحيوانـات، وجعلـه منـاط التكليف، لأنـه بواسطته يفكر، ويتأمل، ويتدبر، ويفرق بين الخير والشر، والهدىٰ والضلال، والنافع والضار، وحينها يعبد الله علىٰ علم وهدىٰ وبصيرة، ويقوم بإعمار الأرض طاعة لله وتعبداً، واستفادة مما سخره الله لـه فيها وفي الكون بأسره.

كل ذلك لا يتم إلا بواسطة عقل سليم صحيح ناضج، يُقَدِّر المصالح والمفاسد، فيعمل علىٰ جلب المصالح ودفع المفاسد، ليس لنفسه فقط، وإنما لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه، لذلك فقد اهتمت التربية الإسلامية بالعقل، وحرصت علىٰ سلامته وحرمت كل ما يضر بـه، وقد تضمنت غزوة فتح مكة المكرمة بعض المواقف التي تضمنت الحفاظ علىٰ العقل وسلامته وصيانته من كل ما يذهبه أو يفسده. وذلك ما ستتناوله الدراسة فيما يلي، من خلال بيان مفهوم العقل لغة واصطلاحاً، وأهميته ومكانته في الإسلام، والمواقف التي تضمنت الدعوة إلىٰ الحفاظ عليه خلال غزوة الفتح.

أولاً: مفهوم العقل:

١- المفهوم اللغوي:

العقل: مصدر من عَقَلَ يَعْقِل عقْلاً ومعقولاً، وقد وردت له في معاجم اللغة معاني كثيرة منها: الحِجْر والنُّهىٰ ضد الحُمْق، والتثبت في الأمور، والقلب، والتمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان، والدِّية، سميت بذلك لأن الدية كانت عند العرب في الجاهلية إبلاً لأنها كانت أموالهم، ولأن القاتل كان يكلف أن يسوق الدية إلىٰ فناء ورثة المقتول فيعقلها بالعقل ويسلمها إلىٰ أوليائه، والعقل: ضرب من المشط وضرب من الوشي والحصن والملجأ، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه، ورجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه، وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١١، ص٤٥٨ – ٤٦٥).

وجاء في المعجم الفلسفي: «العقل في اللغة الحِجْر والنُّهىٰ، وقد سمي بذلك تسبيهاً بعقل النّاقة، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود». (صليبا، ١٩٧٩م، ج٢، ص٨٤).

من المعاني السابقة يتبين أن العقل في اللغة يعني الإمساك والحبس والتثبت في الأمور، وعدم التورط في المهالك، والتمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وإدراك المصالح والمفاسد، وغايات الأمور ومقاصدها، وإتباع السبل المحمودة المؤدية إلىٰ الخير والصلاح في الدنيا والآخرة.

٢- المفهوم الاصطلاحي:

اختلف الناس في مفهوم العقل وحَدِّه وحقيقته، ويرجع ذلك إلىٰ كثرة استعمالاته اللغوية، واختلاف اتجاهات وآراء المعرِّفين له. وقد أورد له الغزالي أربعة معانٍ هي:

الأول: «الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل:إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور

يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء.

الثاني: هي العلوم التي تخرج إلىٰ الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حنّكته التجارب وهذَّبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غَمِرٌ جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمىٰ عقلاً.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلىٰ أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلىٰ اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث أن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي يتميز بها عن سائر الحيوان» (الغزالي (أ)، "د . ت"، ج١، ص٧٩).

كما عُرِّف العقل بأنه: «سر من أسرار الله سبحانه في خلقه لا يمكن للإنسان معرفة كنهه، وهو وسيلة لتحصيل العلوم والمعارف، ويمنع صاحبه من الانحدار إلىٰ الكفر والنفاق، وهو أداة الإدراك والتمييز بين الخير والشر والهدىٰ والضلال». (أبو رزق، ١٤٠٧هـ، ص٧١).

من المفاهيم السابقة يمكن القول بأن العقل هو الأداة التي يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوانات، وبها يدرك العلوم النظرية والأشياء، ويُحَصِّل بواسطته العلوم والمعارف، تزيده التجارب والعلوم والمعارف قدرة علىٰ إدراك ووعي وفهم الأشياء والأحداث، وتجعله قادراً علىٰ حسن التعامل مع ما حوله من الأشخاص والأشياء، منطلقاً من إدراكه لعواقب الأمور ومآلاتها؛ فيقدم أو يحجم تبعاً لذلك.

ثانياً: أهمية العقل ومكانته في التربية الإسلامية:

خلق الله سبحانه وتعالىٰ الإنسان، وزوده بوسائل الإدراك والعلم والمعرفة والتمييز، ومن أهم هذه الوسائل العقل الذي ميز الله سبحانه به الإنسان عن غيره من الحيوانات، فبه يفكر ويتأمل ويتدبر ويخطط، ويتوقع النتائج، ويتصرف في ضوء ذلك، لأنه أداة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، والصواب والخطأ.

فهو نعمة عظيمة أنعم الله تعالىٰ بها علىٰ الإنسان، من خلاله يفهم شرع ربه ويطبقه تطبيقاً سليماً، لذا فهو مناط التكليف وبدونه تسقط التكاليف، يقول النبي ﷺ: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتىٰ يستيقظ، وعن الصبي حتىٰ يحتلم، وعن المجنون حتىٰ يعقل». (أبو داود، "د . ت"، ج٤، حديث رقم ٤٤٠٣، ص١٤١). وكونه مناط التكليف يبيِّن أهميته ومكانته وهيمنته علىٰ بقية حواس الإنسان وجوارحه.

ومما يبيِّن أهمية العقل كثرة ذكره في القرآن الكريم، وبصيغة الفعل مثل: يعقلون، وتعقلون، ونعقل، وعقلوه، ويعقلها، ولم يرد بصيغة الاسم، «ولعل الحكمة في ذلك هي توجيه الإنسان لاستخدام عقله الاستخدام الأمثل، وتوظيف هذه الطاقة باعتبارها طريقاً لاكتساب المعرفة الصحيحة، التي تقود إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ، والالتزام بمنهجه القويم، والقدرة علىٰ تسخير هذا الكون والانتفاع بمحتوياته» (العمرو، ١٤١١هـ، ص٧٧). وفي

هذا دلالة علىٰ مكانة العقل وأنه محل خطاب القرآن الكريم لأنه أداة الوعي والإدراك.

كما تظهر أهميته ومكانته من خلال ثناء القرآن علىٰ أهل العقول الراجحة، الذين ترشدهم عقولهم السليمة علىٰ ما في أنفسهم وفي الكون من آيات عظيمة دالة علىٰ عظمة خالقها، وعظمة سلطانه، وشمول قدرته، وبديع صنعه، وحكمته، وسعة رحمته، وعموم فضله، وحين ترشدهم إلىٰ ذلك تجعل أفئدتهم تتعلق بذلك الخالق العظيم، فتبذل جهدها لنيل مرضاته، وتعبده بدافع الحبِّ له لأنه المنعم المتفضل علىٰ عباده بأصناف النعم، وحين تُحَقِّق ذلك تسعد في الدنيا والآخرة. كل ذلك بفضل الله تعالىٰ، ثم بفضل تلك العقول الراجحة الرزينة التي تنظر إلىٰ آيات الله وآلائه نظر اعتبار واتعاظ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ) [سورة البقرة: ١٦٤]. والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

ولأهميته فقد عاب الله تعالىٰ من عطلوا عقولهم، ولم يسخروها فيما خلقت له من التدبر والتفكر والتأمل الذي يفضي بهم إلىٰ الهدىٰ والرشاد، فقال تعالىٰ: (ې ې ې ې □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [سورة الحج: ٤٦].

ومما يبيِّن أهميته «أنه الصفة التي تعطي الإنسان قيمة لدىٰ الآخرين، فإنزال الناس منازلهم، وخطابهم ومحادثتهم تكون علىٰ قدر عقولهم» (القاضي، ١٤٢٣هـ، ص١٩٣).

ومهما تكن مكانة العقل وأهميته فإنه لا يمكن أن يقوم بوظائفه في معزل عن بقية مصادر المعرفة الأخرىٰ، فهي بمثابة الروافد التي تمده بما يحتاج من معرفة، وتصله بالعالم الخارجي، ويقوم العقل بالتأمل والتفكر والتحليل ثم التعرف علىٰ الأشياء، والتعامل معها بأسلوب يحقق النتائج المرجوة، المبنية علىٰ ما استقبله العقل من علوم ومعارف ومشاهدات عن طريق مصادر المعرفة الأخرىٰ. لذا فالعلاقة قوية بين العقل وبقية مصادر المعرفة، لذا فسلامة العقل والحفاظ عليه أمر حرصت عليه التربية الإسلامية وحثت عليه، وشرعت من الشرائع ما يكفل ذلك، وقد تضمنت أحداث فتح مكة المكرمة بعضاً من ذلك وهذا ما سيرد بيانه في الفقرة التالية.

<u>ثالثاً: مواقف في غزوة فتح مكة المكرمة تتضمن الحفاظ على العقل وصيانته ومنها:</u>

١- حين تم للنبي □ فتح مكة المكرمة – شرفها الله – كان أول عمل قام به حين دخل المسجد الحرام هو تكسير الأصنام التي كانت حول الكعبة وفوقها، وإزالة ما بداخلها من مظاهر الشرك، وهو بهذا يزيل من عقول المشركين كل ما كانوا يعتقدونه في تلك الآلهة الباطلة من أنها تجلب لهم نفعاً، أو تدفع عنهم ضراً، أو تقربهم إلىٰ الله زلفىٰ، ولم يكتف بذلك □، بل بعث من يحطم الأصنام التي كانت تعبد في جزيرة العرب، ونادىٰ مناديه في الناس بأنه من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعنَّ في بيته صنماً إلا كسره. وبذلك قضىٰ علىٰ تلك الآلهة وعلىٰ كل

معتقدات الناس فيها، لتصبح عقول الناس مهيأة لقبول الحق والرضىٰ به والتسليم له.

٢- أنه حين أفرغ تلك العقول من معتقداتها الفاسدة حول الآلهة الباطلة التي كانت تعبد من دون الله، لم يترك تلك العقول خُوَاءً، بل بدأ يغذيها بغذاء روحي، يضمن لها السلامة والسعادة في الدارين، إنه القرآن الكريم والسنة المطهرة بما اشتملت عليه من تعاليم وأحكام وشرائع وآداب فيها صلاح الناس وفلاحهم وسعادتهم. وذلك بتعليمه المباشر للناس خلال فترة بقائه في مكة المكرمة، وحين انصرافه عنها أبقىٰ لهم معاذ بن جبل ليصلي بهم ويعلمهم القرآن، ويفقههم في أمور دينهم، وبهذا تستنير عقولهم بأنوار التوحيد والإيمان، وتنهل من معين الوحيين الذي لا ينضب.

٣- تحريمه بيع الخمر، فقد روىٰ جابر – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله يقول عام الفتح وهو بمكة: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٢٣٦، ص٢٩٣).

ويدخل ضمن الخمر كل مسكر ومخدر لأنها جميعها تذهب بالعقل وتفسده وتلحق الضرر بالفرد والمجتمع، «فالمدمن علىٰ تعاطي هذه السموم يتصف بصفات ذميمة، ويعتاد علىٰ عادات قبيحة، ويستهين بالقيم الأخلاقية والمثل العليا، ويندفع إلىٰ ارتكاب الجرائم كالسرقة، وتعاطي الدعارة والاعتداء علىٰ الأنفس ويصاب بتمييع الخلق، في سبيل توفير المال المطلوب للحصول علىٰ المادة التي يريدها» (علوان، ١٤٠١هـ، ج١، ص٢٣١ – ٢٣٢).

لذلك جاء الإسلام بتحريمها وتوعد من يتعامل فيها بالوعيد الشديد، ففي حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله يقول: «أتاني جبريل فقال يا محمد إن الله لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبايعها، وساقيها، ومسقيها» (الحاكم، ١٤١١هـ، ج٢، حديث رقم ٢٢٣٤، ص٣٧).

بهذه الأمور وما شابهها تضمن التربية الإسلامية صيانة العقول وسلامتها، وتمنع كل ما يلحق الضرر بها، أو يعطلها من القيام بواجباتها ووظائفها. وإذا كانت التربية الإسلامية قد سعت إلىٰ حفظ العقل كضرورة من الضروريات التي يجب حفظها، فإن هناك ضروريات أخرىٰ حرص الإسلام علىٰ حفظها، منها النسل، أو ما يسمىٰ (بالنسب والعرض والبِضْع)، وهو ما سيرد بحثه في المطلب التالي بعون الله وتوفيقه.

<u>المطلب الخامس: حفظ النسل:</u>

<u>تمهيد:</u>

لقد عنيت التربية الإسلامية بالنسل عناية كبيرة، فشرعت شرائع، وسنَّت أحكاماً تكفل حفظه وتمنع الاعتداء عليه، وما ذلك إلا لأهمية النسل، حيث أنه ركيزة من الركائز الرئيسة في الحياة، به تتحقق عمارة الأرض، وعبادة الله تعالىٰ، وفيه تكمن قوة الأمم، وبواسطته تتطور وتتقدم وتزدهر، فتعيش عزيزة كريمة مهابة، مصونة الجانب،

محمية العرض والمال، وبدونه أو بفساده تضعف وتصبح فريسة سهلة يتخطفها أعداؤها من كل جانب، يستبيحون حماها، وينهبون ثرواتها، وخيراتها، ويعبثون بمقدراتها، ويغيرون فكرها وحضارتها حتىٰ تصبح تابعاً يسير في ركاب تلك الأمم، لا يحيد عما ترسمه قيد أنملة.

ولهذا فإن المحافظة علىٰ النسل تعني المحافظة علىٰ النوع الإنساني وبقاءه واستمراره؛ ليحقق الغاية الذي وجد من أجلها، ولا يمكن المحافظة عليه إلا من خلال تربية سليمة، تبدأ من الأسرة التي تسير علىٰ منهج الله وشرعه في تربية أبنائها، ثم مجتمع صالح يكمل ما بدأته الأسرة وعلىٰ نفس المنهج، حتىٰ تتوحد التربية في مصادرها وفي أساليبها في جميع مؤسسات المجتمع التربوية. والأسرة والتي هي محل تربية الأجيال والحفاظ عليهم لا يمكن أن تصلح إلا إذا تم بناؤها وفق شرع الله تعالىٰ، تبدأ بزواج شرعي صحيح، وتبتعد عن كل ما فيه اعتداء علىٰ الحياة الزوجية، والأعراض، وبذلك تُبْنَىٰ أسر مسلمة تستطيع القيام بواجب التربية كما أرادها الإسلام وبذلك تسعد ويسعد المجتمع بأسره. لذا فإن الحفاظ علىٰ النسل أمر دعت إليه الشريعة الإسلامية، وبينت الوسائل المعينة عليه، ومنعت كل أسباب الاعتداء عليه، وذلك لما له من أثر علىٰ المجتمعات والأفراد.

والباحث في هذا المطلب سيتناول موضوع حفظ النسل من حيث، مفهومه، وأهميته، ثم مواقف من غزوة الفتح تضمنت حفظه وصيانته، ومنعت الاعتداء عليه.

أولاً: مفهوم النسل:

أـ المفهوم اللغوي:

النَسْل مصدر نَسَل ، وهو في اللغة بمعنىٰ: «الخَلْق، والولد، والذرية، والجمع أنسال، وكذلك النَّسِيلة ... وتناسل بنو فلان إذا كثر أولادهم». (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١١، ص٦٦٠).

ب- المفهوم الاصطلاحي:

يعرف النسل اصطلاحاً بأنه: «الولد والذرية التي تعقب الآباء، وتخلفهم في بقاء النوع البشري» (العالم، ١٤١٥هـ، ص٣٩٣).

ويعرَّف بأنه: «النسل الناتج عن اتصال الزوجين بواسطة عقد النكاح». (ابن عاشور، ١٤٢١هـ، ص٤٤١).

وللنسل مرادفات أخرىٰ منها: النسب، والعرض، والبِضْع.

وممن سمىٰ النسل بالبِضْع الغزالي حيث قال: «فقد عُلِم علىٰ القطع أن حفظ النفس والعقل والبضع والمال مقصود في الشرع». و قال: «والبضع مقصود الحفظ» (الغزالي، ١٣٩٠هـ، ص١٦٠).

ثانياً: أهمية النسل في الإسلام ووجوب الحفاظ عليه:

خلق الله سبحانه وتعالىٰ الخلق لغاية عظيمة، وهي تحقيق العبودية له تعالىٰ، وعمارة الأرض، وجعل استمرار النسل وسيلة لتحقيق تلك الغاية إلىٰ أجل كتبه الله

وقدره، وهذا يدل علىٰ أن بقاء النسل ضرورة حتمية، ومقصد من مقاصد الشريعة، لذلك كان لابد من الحفاظ عليه، وذلك لا يتم إلا من خلال وسائل عدة من أهمها:

١- **النكاح**: فقد شرع الله النكاح فقال تعالىٰ: (ژ ژ ژ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ) [سورة النساء: ٣]، وقال سبحانه: (ۑ ۑ ﺗ ﺗ ﺛ ﺛ ﺛ ﺛ ژ ژ ژ ڑ ک ک ک ک ک ک) [سورة النساء: ٢٥]. وقال : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٠٦٦، ص٧٢٥).

والأدلة علىٰ ذلك كثيرة، كلها تحث علىٰ الزواج وتأمر به لمن استطاعه وتَيَسَّرَ له الصداق الذي هو حق للزوجة علىٰ زوجها، فإذا حصل ذلك وجب عليه الزواج بالحرة، وإن لم يستطع مهر الحرة تزوج الأمة مع ما في ذلك من رق الأولاد، وفي ذلك دليل علىٰ أهمية النكاح الذي هو الوسيلة الصحيحة في حصول النسل.

٢- **التَّعَدُّد**: ولأهمية النسل فقد أباح الله للمسلم الزواج بأكثر من واحدة، إذا استطاع العدل، يقول تعالىٰ: (ﺗ ﺗ ﺛ ﺛ ﺛ ﺛ ژ ژ ژ ژ ڑ ک ک ک ک ک ک گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ) [سورة النساء: ٣] وما شُرع التعدد إلىٰ لِحِكَم كثيرة لعل من أهمها: تحقيق الإحصان للرجل الذي لا تندفع شهوته بالواحدة، ولزيادة النسل الذي دعا إليه الرسول في قوله: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم» (النسائي، "د.ت"، ج٦، ص٦٦). وقد روىٰ سعيد بن جبير قال: قال لي ابن عباس: «هل تزوجت؟ قلت: لا، قال: فتزوج، فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٠٦٩، ص٧٢٥).

٣- **تحريم قتل الولد**، فقد نهىٰ الله عنه ذلك، فقال تعالىٰ: (ۋ ۋ ې ې ۑ ...) [سورة الأنعام: آية ١٥١].

٤- **تحريم الاعتداء علىٰ الأعراض بالزنا**، وفَرْض عقوبات رادعة علىٰ ذلك، منها الجلد والرجم، وذلك لما تسببه جريمة الزنا من اختلاط في الأنساب، يؤدي إلىٰ فساد المجتمعات واختلال نظامها، وإشاعة الفوضىٰ والاضطراب فيها، وقد ورد في تحريم الزنا نصوص كثيرة من الكتاب والسنة منها: قوله تعالىٰ: (ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ) [سورة الإسراء: ٣٢].

٥- **كما جعل سبحانه وتعالىٰ الأعراض محترمة فحرم القذف**، ورتب عليه عقوبة شديدة فقال تعالىٰ: (ڳ ڳ ڳ ڳ گ گ گ گ ں ں ڻ ڻ ڈ) [سورة النور: ٢٣].

٦- **ولأهمية النسل الناتج عن العلاقة الصحيحة المشروعة وهي الزواج، جعل الإسلام عقد الزواج من أهم العقود**، ووصفه بأنه ميثاق غليظ في قول الله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ) [سورة النساء: ٢٠ – ٢١]. والمراد بالميثاق الغليظ هنا العقد، أو الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان ذكر ذلك (ابن كثير، ١٤٢١هـ، ص٢٩٨).

٧- **ولأهمية هذه الرابطة التي هي سبب في حصول النسل وتكاثره واستمراره فقد**

حرص الإسلام علىٰ استمرارها من خلال:

أ- النهي عن التفرقة بين الزوجين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «ليس منا من خَبَّبَ امرأة علىٰ زوجها و عبداً علىٰ سيده ...» (أبو داود، "د . ت"، ج٢، حديث رقم ٢١٧٥، ص٢٥٤).

ب- كما نهىٰ الزوجة أن تطلب الطلاق من زوجها دون مبرر شرعي، فقال : «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة» (الترمذي، ١٣٨٨هـ، ج٣، حديث رقم ١١٨٧، ص٤٨٤).

ج- ونهاها أيضاً أن تطلب طلاق أختها (أي ضرتها)، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي قال: «لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها، لتسفرغ صحفتها، فإنما لها ما قدر لها». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥١٥٢، ص٧٣٧).

هذه بعض النصوص التي تبين أهمية النسل، وتدعو للمحافظة عليه، وترسم السبل الكفيلة باستمراره، وتحرم كل أمر يضر به، وتبطل كل دعوىٰ إلىٰ تحديده بحجة أنه مصدر شر للأسرة والمجتمع، «والحقيقة أن كثرة النسل ليست شراً في ذاتها، بل الأصل فيها أنها مصدر خير للأسرة والمجتمع، وهي لا تكون شراً إلا حيث يعجز الرجل عن القيام بنفقات الأسرة ، (و) عندما يعجز المجتمع عن التنمية الصحيحة، والتوزيع الأمثل لموارده المادية والثقافية» (عمارة، ١٤٠٠هـ، ص١٩٧).

إن زيادة النسل وتكثيره من أسباب نهوض الأمم ورقيها، كما أنه عامل قوة لها متىٰ ما عني المجتمع به، ورباه تربية سليمة متكاملة، مبنية علىٰ منهج الله تعالىٰ؛ لأن ذلك يمد الأمة بطاقات شابة قادرة علىٰ العمل والإنتاج، قادرة علىٰ الدفاع عنها، وحماية دينها وأرضها ومقدراتها.

لذلك عنيت التربية الإسلامية بأمر النسل عناية كبيرة، وشرعت من الأحكام ما يحفظه ويعمل علىٰ استمراره، وفي أحداث غزوة فتح مكة المكرمة مواقف تبيِّن شيئاً من ذلك يذكر منها الباحث ما يلي:

ثالثاً: مواقف من غزوة الفتح تضمنت حماية النسل والحفاظ عليه:

١- حين فتح الله تعالىٰ علىٰ رسوله مكة المكرمة أخذ يبايع الناس، وكان مما بايعهم عليه أن لا يزنوا، وذلك لأن «الزنا ليس جريمة دينية فحسب، ولكنه رذيلة اجتماعية فاحشة؛ لأنه يتضمن إساءة إلىٰ المجتمع الذي ينتمي إليه الإنسان، ويتضمن الاعتداء علىٰ خصوصية كل فرد في ضوء ما شرع الله له من حلال» (طعيمة، ١٤٢٥هـ، ص٢٨٨). وقد نهىٰ الله تعالىٰ عن الزنا في كتابه الكريم في مواضع عدة في مثل قوله تعالىٰ: (ژ ژ ڑڑ ک ک ک ک گ) [سورة الإسراء: ٣٢].

٢- كما بيَّن الحكم في ولد الزنا، وذلك حين أراد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أَخْذَ ابن وليدة زمعة، حيث أوصاه بذلك أخوه عتبة بن أبي وقاص، فاختلف سعد مع عبد بن زمعة حول ذلك المولود، فعرضا الأمر علىٰ الرسول ، فحكم به لابن زمعة مع أنه كان أشد الناس شبهاً بعتبة بن أبي وقاص، ثم وضع في ذلك حكماً عاماً باقياً إلىٰ قيام الساعة، فقد روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله قال:

«الولـد للفـراش وللعـاهر الحجـر» (البخـاري، ١٤٢٥هــ، حـديث رقـم ٤٣٠٣، ص٥٨٤).وهذا يبين مدىٰ حرص الإسلام علىٰ حفظ النسل حيث كفل لابن الزنا من يعوله وحدد ذلك؛ حتىٰ لا يُخْتَلف حوله، أو يُتْرك فلا يجد من يعوله ويربيه، وبذلك يضيع، ويصبح خطراً علىٰ نفسه وعلىٰ المجتمع الذي يعيش فيه.

٣- أنه حرم نكاح الشغار، وقد ورد النهي عنه وتحريمه في إحدىٰ خطبه □ مدة الفتح، حيث قال: «... ولا شغار في الإسلام» (البنا، "د . ت"، ج٢١، ص١٦١)، كما ورد في تحريمه أحاديث أخرىٰ منها حديث ابن عمر: «أن النبي □ نهىٰ عن الشغار، والشغار أن يزوج الرجل ابنته علىٰ أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥١١٢، ص٧٣١). وإنما حرم هذا النكاح لأن الولي نظر إلىٰ مصلحته ولم ينظر إلىٰ مصلحة المرأة التي هي محل الإنجاب والنسل، ولا يخفىٰ ما في ذلك من إضرار بالمرأة وبالنسل الناتج عن هذا النكاح.

٤- تحريمه نكاح المتعة: حيث أن النبي □ رخص لأصحابه – رضي الله عنهم – في الاستمتاع بالنساء عام الفتح ثم حرمه، فقد روىٰ الربيع بن سبرة الجهني، أن أباه حدثه، أنه كان مع رسول الله □ فقال: «يا أيها الناس! إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلىٰ يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٤٠٦هـ، ص٣٤٤ ، ٣٤٥).

ونكاح المتعة: «أن يعقد الرجل علىٰ المرأة يوماً أو أسبوعاً أو شهراً ... وهو زواج متفق علىٰ تحريمه بين أئمة المذاهب» (سابق، ١٣٩٧هـ، ج٢، ص٤٢).

وقد حرم هذا النكاح لأمور من أهمها:

١- أنه لا تتعلق به الأحكام الواردة في القرآن بصدد الزواج، والطلاق، والعدة، والميراث، فيكون باطلاً كغيره من الأنكحة الباطلة.

٢- ولأنه يقصد به قضاء الشهوة، ولا يقصد به التناسل، ولا المحافظة علىٰ الأولاد، وهي المقاصد الأصلية للزواج، فهو يشبه الزنا من حيث قصد الاستمتاع دون غيره.

ثم هو يضر بالمرأة؛ إذ تصبح كالسلعة التي تنتقل من يد إلىٰ يد، كما يضر بالأولاد؛ حيث لا يجدون البيت الذي يستقرون فيه، ويتعهدهم بالتربية والتأديب. (سابق، ١٣٩٧هـ، ج٢، ص٤٢، ٤٣).

وهكذا حرم النبي □ كل الأمور المؤدية إلىٰ الإضرار بالنسل، كالزنا والقذف، والأنكحة الفاسدة، كما جعل الطلاق آخر حل للمشكلات التي تقع بين الزوجين، وقيده بقيود تَحُدُّ من وقوته؛ لما يترتب على تلك الأمور من ضياع الذرية وفسادهم، وذلك لعدم وجود من يتعهدهم بالتوجيه والتربية والتأديب، وفي ذلك إضرار بتلك الفئة من الناس وبالمجتمع بأسره.

وبعد أن بينت الدراسة بعض الأمور المتعلقة بحفظ النسل، كضرورة يجب الحفاظ عليها تنتقل إلىٰ ضرورة أخرىٰ أمر الإسلام بحفظها وصيانتها وهي المال وذلك ضمن المطلب التالي.

المطلب السادس: حفظ المال:

تمهيـــد:

المـال أحـد الضـروريات الخمـس التـي جـاءت الشـريعة الإسـلامية داعيـة إلـىٰ حفظها، وقد جُبل الإنسان علىٰ حبه حباً شديداً ذكره الله في كتابه الكريم، حيث قال سبحانه: (ۈ ۈ ۇٴ ۋ) [سورة الفجر: ٢٠]. لذلك فإن كل إنسان شغوف بحب المال حريص علىٰ جمعه وتحصيله، حيث أنه من ضروريات الحياة التي لابد من تحصيلها ولا قيام للحياة بدونها، لذلك قامت حوله فلسفات ونظريات هدفها تنظيم عملية تحصيل المال وإنفاقه، ولكنها أخفقت في ذلك لبعدها عن الطريق الصحيح الذي رسمه رب العالمين العالم بأحوال عباده وما يصلح به شأنهم.

فالنظام الرأسمالي منح الفرد الحرية المطلقة في جمع المال وتضخيمه بشتىٰ الطرق، وعلىٰ حساب المجتمع ومصالحه، فتربَّىٰ الفرد علىٰ الأنانية، وحب الذات، وحب التملك، دون النظر إلىٰ المحرومين والمعدومين.

والنظام الاشتراكي منع الحرية الشخصية في امتلاك المال والتصرف فيه، وأهمل المصلحة الشخصية، وجعل المال مشاعاً بين الجميع، يستوي في ذلك من يعمل ومن لا يعمل، وعندها قلت الرغبة في العمل وانتشرت البطالة وتفشت في المجتمع بما تحمله معها من فوضىٰ واضطراب ومشكلات اجتماعية كبيرة، وكلا النظامين لم يحقق للإنسانية ما تنشده من أمن في هذا الجانب؛ لأنهما بعدتا عن الفطرة السليمة وعن المنهج السليم الذي ينظم تملك المال وإنفاقه.

ثم جاءت التربية الإسلامية لتقف من هذه القضية موقفاً وسطاً، يعطي الفرد حرية التملك التي لا تتعارض مع مصلحة المجتمع، وأعطت أصحاب الحقوق حقوقهم من أموال الأغنياء، لتُحَقِقَ بذلك التكافل الاجتماعي، وتخفف من وطأة الفقر علىٰ الفقراء.

لقد جاءت الشريعة الإسلامية آمرة بحفظ المال العام والخاص، وعملت علىٰ تنميتها، وحرمت كل ما يؤدي إلىٰ ضياعها أو ذهاب بركتها، ونظمت طرق الكسب والادخار والإنفاق، وفرضت في المال حقوقاً يجب تأديتها إلىٰ أهلها من فقراء، ومساكين، وذوي قربىٰ، ومجاهدين في سبيل الله، وابن سبيل، وما فرضت الزكاة في الإسلام إلا لأداء تلك الحقوق، كل ذلك يدل علىٰ أن المال ضرورة من ضروريات الحياة، ومؤثر قوي علىٰ الوظائف الرئيسة للمسلم، التعبدية منها والاجتماعية والاقتصادية، لذلك أمر الإسلام بحفظه ومنع كل ما يؤدي إلىٰ إضاعته وتلفه، وقد تضمنت غزوة فتح مكة المكرمة مواقف تبيِّن شيئاً من ذلك، وهذا ما ستبينه الدراسة في الصفحات التالية من خلال بيان مفهوم المال، وأهميته، ثم المواقف التي تضمنت الدعوة إلىٰ حفظه في غزوة الفتح المباركة.

أولاً: مفهوم المال:

أ- المفهوم اللغوي:

المال في اللغة: «ما ملكته من جميع الأشياء ... ، قال الجوهري: ذكر بعضهم أن المال يؤنث: وأنشد لحسان:

المال تُزْري بأموال ذوِي حَسَبٍ　　　وقد تُسَوِّد غير السيِّد المالُ

والجمع أموال» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١١، ص٦٣٥).

والمال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ثم أطلق علىٰ كل ما يقتنىٰ ويملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق عند العرب علىٰ الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم. (ابن الأثير، ١٣٩٩هـ، ج٣، ص٣٧٣).

ب- المفهوم الاصطلاحي:

للعلماء في معنىٰ المال اصطلاحاً تعريفات عدة:

فيعَرَّف بأنه: ما يقع عليه الملك، ويستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه، ويستوي في ذلك الطعام، واللباس علىٰ اختلافهما» (الشاطبي، د . ت، ج٢، ص١٧).

كما يعرَّف بأنه: «عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به، وأعلاها الأغذية، ثم الأمكنة التي يأوي الإنسان إليها وهي الدور، ثم الأمكنة التي يسعىٰ فيها للتعيش كالحوانيت والأسواق والمزارع، ثم الكسوة، أثاث البيت وآلاته، ثم آلات الآلات، وقد يكون الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد، والبقر آلة الحراثة، والفرس آلة الركوب في الحرب» (الغزالي (أ)، "د . ت"، ج٣، ص٢١٣).

من هذه التعريفات يمكن أن يقال أن المال كل ما يملكه الإنسان ملكاً تاماً، ويسْتبد به دون غيره، وينتفه به، وضابطه في الإسلام أن يكتسبه بسبب مباح، وينفقه في المباح.

ثانياً: أهمية المال في الإسلام:

للمال في الإسلام أهمية عظيمة ومكانة عالية، وما ذلك إلا لأنه عصب الحياة، لا تقوم مصالح الإنسان إلا عليه، فعليه تقوم بعض العبادات كالحج والجهاد والصدقة والكفارات وغيرها؛ لأنه لا يتوصل إليها إلا بالمال، كما أنه يقوي علىٰ العبادة، بما يوفره من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومنكح وغيرها من ضرورات الحياة؛ لأنها إن لم تتيسر انشغل القلب بها وانصرف عن العبادة.

ومما يبيِّن أهميته أن الله تعالىٰ سماه خيراً في مواضع من كتابه الكريم كما في قوله تعالىٰ: (ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ې ې ى ى ئا) [سورة البقرة: ١٨٠]، وامتدحه الرسول ﷺ حين يكون في يد الرجل الصالح فقال: «نعم المال الصالح للمرء الصالح». (البخاري، ١٤٠٩هـ، ج١، حديث رقم ٢٩٩، ص١١٢).

ولأهميته فقد أمر الله بالسعي في طلبه، فقال تعالىٰ: (ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ) [سورة الجمعة: ١٠]. جاءت هذه الآية بعد النهي عن البيع إذا نودي للصلاة، ثم أمر الله المؤمنين بأن ينتشروا في الأرض بعد الصلاة للتكسب والتجارة، وهي وسيلة من وسائل كسب المال.

كما أمر سبحانه بالمحافظة عليه وعدم إتلافه فقال سبحانه: (ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ

ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ) [سورة النساء: ٥] في هذه الآية «ينهىٰ سبحانه عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها... قال ابن عباس: لا تَعْهد إلىٰ مالك وما خوَّلك الله، وجعله معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلىٰ ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم» (ابن كثير، ١٤٢١هـ، ص٢٨٨).

ولأهميته فقد نسبه الله إلىٰ نفسه، فقال تعالىٰ: (ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ) [سورة النور: ٣٣]، فالأموال كلها لله تعالىٰ، لأنه هو مالكها وواهبها، وملكيته لها ملكية حقيقة تامة مطلقة، ليست كملكية الناس لها، فالناس لا تملك منها إلا ما ملَّكَها الله تعالىٰ، حيث وهبهم أموالاً وجعلهم مستخلفين فيها لينظر كيف يعملون، فهم بمنزلة الوكيل والنائب عن صاحب المال الحقيقي، وهم مختبرون في هذه الأموال، وقد ذُكر ذلك في كتاب الله في مواضع عدة، في مثل قوله تعالىٰ: (ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ) [سورة الحديد: ٧]، وقوله سبحانه: (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ) [سورة التغابن: ١٥].

ولما كان المال ضرورياً لجميع الناس فقد أوجب الله فيه للفقراء حقوقاً، تُقيم أودهم، وتعينهم علىٰ تحمل أعباء الحياة، وامتدح من يؤدي هذه الحقوق، فقال تعالىٰ: (ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ) [سورة البقرة: ٢٧٤]. وذم من بخل به، فقال تعالىٰ: (ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ) [سورة محمد: ٣٨]، كما حثت السنة علىٰ الإنفاق فقد قال ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي، مالي(قال): وهل لك يا ابن آدم! من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٩٥٨، ص٧٤٨). وجميع ما ذكر في هذا الحديث فهو من النفقة المشروعة التي يثاب عليها فاعلها.

ولما كان المال بهذه الأهمية، وكان الإنسان مجبولاً علىٰ حبه وجمعه، نظمت التربية الإسلامية العلاقة بين المال والإنسان، فجعلت له حق التملك والاستمتاع به وفق ضوابط الشرع، كما أُمِرَ بتنميته والحفاظ عليه وعدم إتلافه، وحددت لذلك وسائل تعين عليه، وقد تضمنت غزوة الفتح عدداً من تلك الوسائل التي تدل على أهمية المال في الإسلام، وسيرد بيان شيء من ذلك في الفقرة التالية.

ثالثاً: بعض المواقف في غزوة الفتح والتي تضمنت المحافظة على المال وصيانته من التلف:

تضمنت غزوة الفتح بعض المواقف التي تبين أهمية المال، وتدل علىٰ حرص الإسلام عليه بحفظه وعدم إضاعته ومن تلك المواقف:

١- أن النبي ﷺ حرم أموال الجاهلية المبنية علىٰ الربا وغيره من المعاملات المحرمة كبيع الخمر ونحوها، وكان ذلك في أول خطبة له يوم فتح مكة، حيث قال ﷺ: «ألَا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعىٰ فهو تحت قدمي هاتين إلَّا سدانة البيت وسقاية الحاج» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٨).

٢- إقامة حد السرقة علىٰ المرأة المخزومية التي سرقت، وذلك لما في السرقة من اعتداء علىٰ أموال الآخرين، وقد استشفع قوم تلك المرأة بأسامة بن زيد إلىٰ رسول الله لكي لا تقطع يدها، ولكنه لم يُشَفِّعْهُ فيها، ونهاه عن أن يشفع في حد من حدود الله، ثم قال : «والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك....» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٣٠٤، ص٥٨٥).

٣- تحريمه بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقد روىٰ جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله يقول عام الفتح وهو بمكة: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة، والخنزير والأصنام....» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٢٣٦، ص٢٩٣). وذلك لأنها محرمة جميعها، وكسبها محرم أيضاً، ومن حفظ المال وصيانته وبركته أن يُكْتَسب بالطرق المشروعة الصحيحة، وينفق في المباحات، وقد حرم الله أكل المال بالباطل فقال تعالىٰ: (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ) [سورة البقرة: ١٨٨].

٤- أنه بايع الناس يوم الفتح علىٰ ما تضمنه قول الله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ) [سورة الممتحنة: ١٢]، ويؤيد ذلك ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي فقال: «أتبايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». وقرأ آية النساء» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٨٩٤، ص٦٩٥). وهذه البيعة متضمنة النهي عن السرقة والتي هي اعتداء علىٰ مال الغير. وفي ذلك حفاظ علىٰ المال العام والخاص، حيث أنه لا يجوز الاعتداء علىٰ شيء من ذلك.

٥- أنه وَدَىٰ لبني جذيمة ما أصيب من أموالهم، حتى إنه ليَدِي لهم مَيْلَغة الكلب، وفي هذا ما يدل على أهمية الأموال، ووجوب الحفاظ عليها.

هذه بعض المواقف التي ظهر من خلالها حرص الإسلام علىٰ حفظ المال، ومنع كل الأسباب المؤدية إلىٰ إضاعته وإتلافه. وإذا كانت هذه بعض المضامين الاجتماعية التي اشتملت عليها غزوة فتح مكة المكرمة، فإن هناك مضموناً اجتماعياً هاماً اشتملت عليه الغزوة، وهو المساواة بمفهومها الإسلامي، فقد حقق النبي خلالها هذا المبدأ في بعض الأمور التي يسمح الشرع والفطرة بالمساواة فيها، وذلك ما ستتناوله الدراسة بالبحث خلال المطلب التالي.

المطلب السابع: المساواة:

تمهيد:

لقد خلق الله سبحانه وتعالىٰ البشر كلهم من أصل واحد، فهم متساوون في المنشأ، كما وأنه كلفهم بأمر واحد هو تحقيق العبودية له سبحانه، فهم متساوون في التكليف أيضاً، يقول تعالىٰ: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ

ﮆ ﮅ ﮄ ﮃ) [سورة الحجرات: ١٣]، كما وأن مصير الخلق واحد، فهم متساوون في الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ:(ﮊ ﮋ ﮌﮍ ﮎ ﮏ ﮐﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ) [سورة يونس: ٤]، وذلك يدل علىٰ أن الناس متساوون في أصل الخلقة، وفي التكليف، وفي الموت والبعث بعد الموت، وما يعقب ذلك من عرض علىٰ الله تعالىٰ وحساب، ثم يتفاضل الناس بعد ذلك في الجزاء علىٰ الأعمال، وهذا يعني أن المساواة ليست قاعدة مطردة تتحقق في كل شيء بل هي نسبية تتحقق في أمور وتنتفي في أخرىٰ.

لقد عاش البشر منذ بدء الخليقة حتىٰ عصرنا الحاضر يناضلون ويكافحون من أجل تحقيق المساواة؛ لأن العنصرية البغيضة لا تزال تحدث تمايزاً بين الناس وتجعلهم طبقات يستعبد بعضهم بعضاً، ويُذِلُّ بعضهم بعضاً، وقد عجزت كل قوانين الأرض عن أن تحقق المساواة التي تسمح بها الفطرة ويؤيدها الشرع والعقل.

ولمَّا جاء الإسلام كافح كل أنواع التمييز القائمة علىٰ التفاخر بالأحساب والأنساب، أو الجنس، أو اللون، أو اللغة، وقضىٰ علىٰ كل أشكال العصبية والقبلية، وحقق مبدأ المساواة في كل أمر يمكن تحقيقها فيه، «فكل ما شهدت الفطرة بالتساوي فيه بين المسلمين فالتشريع يفرض فيه التساوي بينهم، وكل ما شهدت الفطرة بتفاوت البشرية فيه فالتشريع بمعزل عن فرض أحكام متساوية فيه، ويكون ذلك موكولاً إلىٰ النظم المدنية التي تتعلق بها سياسة الإسلام لا تشريعه، ففي المقام الأول قول الله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ) [سورة النساء: ١٣٥]؛ وفي المقام الثاني قول الله تعالىٰ: (□ ﯾ ﯿ ﯽ) [سورة الحديد: ١٠]. فالمساواة في التشريع ناظرة إلىٰ تساويهم في الخلقة وفروعها، مما لا يؤثر التمايز فيه أثراً في صلاح العالم» . (ابن عاشور، ١٤٢١هـ، ص٣٢٩ – ٣٣٠).

هذه هي المساواة التي يريدها الإسلام، والتي تكون منضبطة بضوابط الشرع، سائرة وفق أحكامه، غير مصادمة للفطرة التي فطر الله الناس عليها، لكن المساواة التي دعا إليها الإسلام لا تعني المساواة في كل شيء، لأنه لا يمكن أن يستوي العالم بالجاهل، ولا القوي بالضعيف، ولا المجد بالكسلان، ولا المستقيم بالمنحرف، ولا المسلم بالكافر، ولا المرأة بالرجل، فهذا ينافي العدل، ولا يقره شرع ولا عقل، وهو مرفوض في الإسلام، لأن الناس في نظر الإسلام يتساوون في أشياء، ويتفاضلون في أخرىٰ، وكل ذلك تضمنته غزوة فتح مكة المكرمة، لذا رأىٰ الباحث أن يكون ذلك محور دراسته في هذا المطلب بحيث يتناول الموضوع من خلال: مفهوم المساواة، وأهميتها ومكانتها في الإسلام، ثم مواقف من غزوة الفتح المباركة تحققت فيها المساواة، وأخرىٰ تحققت فيها سُنَّة التفاضل.

أولاً: مفهوم المساواة:

١ـ المفهوم اللغوي:

تطلق المساواة في اللغة ويراد بها التماثل، والتشابه، والمعادلة، والتكافؤ في

القدر والقيمة، «وتساوت الأمور واستوت وساويت بينهما أي سويت، واستوىٰ الشيئان وتساويا: تماثلا، ... يقال في البيع لا يساوي أي لا يكون هذا مع هذا الثمن سيَّيْن... وهذا لا يساوي هذا أي لا يعادله، ويقال: ساويت هذا بذاك إذا رفعته حتىٰ بلغ قدره ومبلغه... ويقال: ساوىٰ الشيء الشيء إذا عادله» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٤، ص٤١٠).

«والمساواة المعادلة المعتبرة بالذرع والوزن والكيل، يقال هذا ثوب مساوٍ لذاك الثوب، ... وقد يعتبر بالكيفية نحو هذا السواد مساوٍ لذلك السواد...، وتسوية الشيء جعله سواء إمَّا في الرفعة أو في الضِّعة، ... والمساواة متعارفة في المُثمَنَات، يقال هذا الثوب يساوي كذا، وأصله من ساواه في القدر، قال تعالىٰ: (□ □ □ □ □) [سورة الكهف: ٩٦]، (الأصفهاني، "د . ت"، ص٢٥١، ٢٥٢).

٢- المفهوم الاصطلاحي:

المساواة بين الناس تعني: «أن النفس البشرية واحدة لا فرق بين إنسان وآخر، فالناس متساوون ولا تمييز بينهم بسبب العرق أو الجنس أو الدين أو اللون، فلا تفضيل لإنسان علىٰ آخر، فالناس من جنس واحد وإن تعددت ألوانهم وقبائلهم، فليس لعنصر معين أو سلالة معينة فضل علىٰ الآخرين، فالتفاضل في الإنسانية غير موجود وعندما جاء الإسلام حرص علىٰ تأكيد المساواة وتقريرها، وأن الناس سواسية لا فضل لواحد علىٰ الآخر إلا بالتقوىٰ» (الحلبي، ٢٠٠٢م، ص١٣).

٣- المدلول الشرعي:

تُعَرَّف المساواة في الشرع من خلال أسس أربعة لابد من وجودها لتتحقق المساواة، «وهذه الأسس هي:

أ- المساواة في القيمة الإنسانية:

ويقصد بها مساواة جميع أفراد الإنسانية في أصل النشأة وكل المراحل والأطوار التي تتعلق بخلق الإنسان، وتتصل بنشأته ومصير وجوده، دون النظر إلىٰ ما يلابس ذلك من اعتبارات أخرىٰ عرضية كالجنس والشكل واللون وأسلوب الحياة وظروف المعيشة.

ب- المساواة في العقيدة والتكاليف الدينية:

ويقصد بها إلزام كل مكلف بالتصديق بشعب العقيدة الإسلامية من وحدانية الله تعالىٰ والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار، وكذلك الانقياد والامتثال لما فرضه الله من عبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج وما شرعه من تكاليف دينية تتمثل في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفرضية الجهاد.

ج- المساواة في المسؤولية والجزاء:

ويقصد بها استقلال كل إنسان في تحمله للمسؤولية والجزاء، وفقاً للمعايير الذاتية التي قررها الإسلام لفكرة المسؤولية والجزاء والتي يمكن ردها إلىٰ الاعتبارات التالية:

- شخصية المسؤولية والجزاء.
- بلوغ الدعوة والعلم بالشرع.

- تحقق شروط التكليف وانتفاء عوارض الأهلية.
- تماثل المعصية والجزاء.

د- المساواة في الحقوق والواجبات العامة:

ويقصد بها أمور معينة اقتضتها الفطرة الإنسانية واستلزمتها طبيعة الاستمرار البشري، تمكيناً لمسيرة الحياة، وضماناً لدفع عجلة الوجود، وعلىٰ هذا فقد قرر الإسلام لكل واحد من الناس حقوق طبيعية وألزمه بواجبات أساسية، وحذر من تضييع هذه الحقوق، وحدد ما يترتب عليها من واجبات، وتتمثل هذه الأمور في حق الحياة، وحق الحرية، وحق التملك، وحق التعليم، وحق العمل، وحق العدالة، وحق التأمين (إعطاء الأمان)» (خليل، "د . ت"، ص١٤، ١٥).

والمتأمل في التعاريف اللغوية والاصطلاحية والشرعية يرىٰ أنها جميعاً تدل علىٰ أن المساواة تعني التماثل والتشابه والتكافؤ بين بني البشر، وأنه لا تفاضل إلا بالتقوىٰ.

ثانياً: أهمية المساواة ومكانتها في الإسلام:

المساواة من المبادئ السامية والعناصر الهامة في بناء المجتمعات البشرية، وقد كافح الإنسان وكابد من أجل تحقيق المساواة والعدل، وتحقيق الحريات، واحترام كرامة الإنسان؛ لأن الله تعالىٰ حين خلق البشر خلقهم من أصل واحد، وكلفهم بتكليف واحد، وخاطبهم بخطاب واحد، وذلك لأنه تعالىٰ يعلم أنهم متماثلون في القدرة علىٰ فهم ذلك الخطاب، والقيام بذلك التكليف، ومتساوون في الموت والبعث والعرض علىٰ الله تعالىٰ للجزاء والحساب، فكلهم مكلفون وميتون ومبعوثون ومحاسبون ومجزيون علىٰ أعمالهم، وهذا أمر يبيِّن أن الله تعالىٰ قصد هذا الأمر وأراده حتىٰ لا يظلم عنده أحد.
ومما يدل علىٰ أهمية المساواة ما يلي:

١- كثرة ورود الآيات الدالة عليها في القرآن الكريم، ومنها:

قوله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ) [سورة النساء: ١].

وقوله سبحانه: (ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک) [سورة الحجرات: ١٣].

وقوله سبحانه: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ) [سورة آل عمران: ١٩٥].

وقوله: (ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ) [سورة سبأ:٢٦].

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جداً، كلها تبيِّن أن الخلق متساوون لا تفاضل بينهم إلا بالتقوىٰ.

٢- ورود نصوص في السنة تؤكد هذا المبدأ وتدعو إليه بصفته عنصر هام في حياة البشر يحقق لهم السعادة والعيش بسلام وأمان، وبدونه يعيش الناس حياة الظلم والاستعباد وتسلط القوي علىٰ الضعيف والغني علىٰ الفقير، وتُفقَد الحقوق والحريات.
ومن نصوص السنة التي تؤكد مبدأ المساواة وتدعو إليه ما يلي:

أ- عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم:

«إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٦٤، ص٦٥٦).

ب- عن حذيفة قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهيَّن قوم يفخرون بآبائهم أو ليكوننَّ أهون علىٰ الله من الجعلان». (البزار، ١٤٠٩هـ، ج٧، حديث رقم ٢٩٣٨، ص٣٤٠).

والنصوص في هذا المعنىٰ كثيرة تبين أهمية المساواة، وتدعو إلىٰ نبذ التفاخر بالأحساب والأنساب، وتلغي التمايز بين الناس بسبب الجنس أو اللون أو اللغة، وتحدد أمراً واحداً به يتفاضل الناس إنه التقوىٰ. أما ما عداها مما يتفاضل بها الناس في دنياهم فإنها لا تساوي في ميزان الإسلام شيئاً إن لم تتوجَّ بتقوىٰ الله ومخافته سبحانه.

٣- ومما يبين أهمية المساواة أن الرسول أعلنها وأكد عليها في حَدَثَين عظيمين هما: فتح مكة وحجة ا لوداع، ففي فتح مكة المكرمة وفي خطبة الفتح يقول : «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ...» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٨)، وفي حجة الوداع يقول : «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي علىٰ أعجمي ولا لعجمي علىٰ عربي ولا لأحمر علىٰ أسود ولا أسود علىٰ أحمر إلا بالتقوىٰ أبلغت. قالوا: بلغ رسول الله ....» (ابن حنبل، "د . ت"، ج٥، حديث رقم ٢٣٥٣٦، ص٤١١).

٤- ومن أعظم ما يبيِّن أهمية المساواة الشعائر التعبدية، كالصلاة والحج والصوم، ففي الصلاة نجد معنىٰ المساواة ماثلاً للعيان، حيث يقف الناس بين يدي إله واحد، في مكان واحد، يتعبدون الله بأفعال وأقوال مخصوصة، ويؤمهم إمام واحد، لا فرق بينهم، غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، حاكمهم ومحكومهم، لا تفاضل بينهم إلا بالتقوىٰ.

وقل مثل ذلك في الحج فهم يؤدون نفس الأعمال، وفي نفس الأمكنة، ويلبسون نفس اللباس، متوجهين لرب واحد، راجين فضله وكرمه، وكذلك الصوم والزكاة، وغيرها، كل ذلك يدل علىٰ أن نظرة الإسلام للناس واحدة، لا فضل عنده لأحد علىٰ أحد إلا بالتقوىٰ، (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ) [سورة الحجرات: ١٣). هذه بعض الأمور التي تبيِّن أهمية ومكانة المساواة في الإسلام، ومع حرص الإسلام علىٰ تحقيق المساواة، إلا أنه لا يقررها في كل شيء؛ لأن هناك موانع تمنع من تحقق ذلك سيبينها الباحث في الفقرة التالية.

ثالثاً: مواقف من غزوة الفتح المباركة قرر فيها النبي المساواة بقوله وفعله:

في غزوة الفتح العديد من المواقف التي أكد فيها الرسول المساواة بقوله ومارسها بفعله، ومن تلك المواقف:

١- أنه حين دخل مكة يوم الفتح، دخل مردفاً أسامة بن زيد، ومع بلال، وكذلك

حين دخل الكعبة، وبعد أن أزال ما في الكعبة من الصور والتماثيل وما حولها أمر بلالاً أن يؤذن بالصلاة من علىٰ الكعبة، وكان ذلك في حشد كبير من الناس، ليبين لهم جميعاً أن بلالاً وأسامة وغيرهما من الموالي والعبيد وضعفاء الناس أكرم عند الله من كل من حضر ذلك الموقف من المشركين، وأن الذي أحلهم هذه المنزلة هي التقوىٰ، وليست الأحساب والأنساب، فالناس واحد، وأبوهم واحد، لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لأبيض علىٰ أسود إلا بالتقوىٰ.

٢- أنه أجاز جوار النساء كما أجاز جوار الرجال، فقد أجاز جوار أم هانئ بنت أبي طالب، وأعطىٰ لأم حكيم زوجة عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهما الأمان لزوجها، ساوىٰ عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر بين الرجال والنساء، وهو بهذا يبين مكانة المرأة في الإسلام، ويقضي علىٰ النظرة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي نحو المرأة، حيث كانوا يعدونها من سقط المتاع، لا تستشار، ولا ترث، ولا تراعىٰ لها حرمة، بل كانوا يرون ولادتها مسبة وعاراً لابد من التخلص منه، ذكر الله ذلك في كتابه الكريم في قوله تعالىٰ: (ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ) [سورة النحل: ٥٨، ٥٩]، في هذا الموقف أراد أن يعلن علىٰ الملأ كرامة المرأة وإنسانيتها، ويثبت ما أثبت الإسلام لها من حقوق، ويضعها في المكانة التي تستحقها.

٣- أكّد عليه الصلاة والسلام علىٰ مبدأ المساواة في خطبة يوم الفتح، حيث قال فيها: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: (ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ) [سورة الحجرات: ١٣]» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٨).

٤- وكذلك في البيعة حيث بايع الرجال، ثم بايع النساء، بايع الجميع في موقف واحد وهو علىٰ الصفا يوم الفتح علىٰ ما تضمنته آية النساء: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ) [سورة الممتحنة: ١٢].

هذه بعض المواقف التي قرَّر فيها النبي المساواة بقوله أو بفعله خلال غزوة فتح مكة المكرمة، وإذا كان الإسلام قرَّر هذا المبدأ وأكد عليه، إلا أن التفاضل سنة الله في الخلق، فهم يتفاضلون في الفهم والمعرفة، والعمل، ويتفاوت بناء علىٰ ذلك الجزاء، وقد تضمنت غزوة الفتح بعض المواقف التي ظهر من خلالها أن التفاضل سنة كونية لابد من حدوثها، ومن تلك المواقف:

١- أن الله تعالىٰ فاضل بين المؤمنين، فمن آمن وأنفق وقاتل قبل الفتح أعظم درجة ممن آمن وأنفق وقاتل بعد الفتح، وإن كان الجميع علىٰ خير، يقول تعالىٰ: (ﯻ   ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ   ) [سورة الحديد: ١٠].

٢- أن من هاجر أفضل ممن لم يهاجر يدل علىٰ ذلك قول الرسول : «ذهب أهل

الهجرة بما فيها» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٣٠٥، ص٥٨٥)، وذلك عندما جاء مجاشع بأخيه بعد الفتح إلىٰ رسول الله □ ليبايعه علىٰ الهجرة، فقال □: «ذهب أهل الهجرة بما فيها». وذلك يدل علىٰ فضل الهجرة والمهاجرين إلىٰ الله تعالىٰ.

٣- ومما يدل علىٰ التفاضل بين الناس قول الرسول □ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين استأذنه في قتل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ظناً منه أنه قد نافق، فقال له عليه الصلاة والسلام: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع علىٰ من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٧٤، ص٥٨١)، وهذا يدل علىٰ فضل من شهد بدراً، وانه أعظم أجراً وقدراً عند الله تعالىٰ.

هذه بعض المواقف التي ظهرت فيها سنة التفاضل، وبها يُختتم هذا المبحث، وينتقل الباحث منه إلىٰ نوع آخر من المضامين، وهي المضامين التربوية الإدارية، حيث سيتناولها بالدارسة خلال المبحث التالي إن شاء الله تعالىٰ.

المبحث الرابع

<u>المضامين التربوية الإدارية المستنبطة من فتح مكة المكرمة</u>

<u>تمهيد:</u>

في المبحث السابق تناول الباحث عدداً من المضامين الاجتماعية التي اشتملت عليها غزوة فتح مكة المكرمة، وفي هذا المبحث سيتناول بإذن الله تعالىٰ عدداً من المضامين الإدارية، والتي تتلخص في العمليات الإدارية الأساسية (التخطيط، والتنظيم، والتوجيه، والرقابة)، حيث أن كل مجتمع بشري مكون من مجموعة من الأفراد، يعيشون علىٰ مساحة من الأرض، تجمعهم روابط مشتركة من دين أو لغة أو عرق أو خلافها، وتقوم بينهم علاقات ومعاملات وصلات، وهذا يحتم وجود إدارة لمجموعة الأفراد هذه تدبر أمورهم، وتصرف شؤونهم، وترعىٰ مصالحهم، وتنظم، وتوجه، وتراقب، وتسير بهذا المجتمع حسب الخطط المرسومة، الخاضعة لأهداف هذا المجتمع وغاياته، والمحققة لحاجياته ورغباته.

والإدارة تختلف من مجتمع إلىٰ آخر باختلاف المصادر التي تستقي منها أهدافها وغاياتها، وتخطط وتنفذ وفق تعاليمها وتشريعاتها، فكلما كانت المصادر سماوية، كانت الأهداف والغايات سامية، والخطط منضبطة بضوابط الشرع وآدابه، وهذا ما تتميز به الإدارة في الإسلام، حيث أن مصادرها الكتاب والسنة والاجتهاد، يدل علىٰ ذلك حديث معاذ بن جبل: «أن النبي □ لما بعثه قال: بم تقضي؟ قال: أقضي بكتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال بسنة رسول الله. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي. فقال رسول الله □: الحمد الله الذي وفق رسول رسول الله». (المزي، ١٤٠٠هـ، ج٥، حديث رقم ١٠٣٥، ص٢٦٧).

وإذا كانت تلك مصادرها، فإن أهدافها وغاياتها نبيلة حددتها تلك المصادر، إنها الصلاح والإصلاح بمعناهما الشامل الذي يوضحه مثل قول الله تعالىٰ: (ﮈ ﮉﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕﮖ ﮗ ﮘ ﮙ) [سورة الحج: ٤١]. وفي ضوء تلك الأهداف والغايات تمارس العمليات الإدارية الأساسية، وقد مارسها النبي □ في بناء دولة الإسلام، حيث كان يخطط وينظم ويوجِّه ويراقب، مستعيناً بما يوحىٰ إليه من ربه، وبمشورة أصحابه ورأيهم، وقد كان يعطي الفرصة لأصحابه ليقوموا بذلك بأنفسهم، ليبني قادة الأمة من بعده □، وإذا كانت هذه العمليات هامة في السلم، فإنها في حال الحرب أكثر أهمية؛ حيث أن الحرب تحتاج إلىٰ الدقة المتناهية في التخطيط والتنظيم والتنفيذ، لأن أي خطأ في ذلك يعني الهزيمة والهلاك والدمار، وقد راعىٰ النبي □ ذلك حين كان يخطط لذلك وينفذه، ظهر ذلك في سراياه وغزواته ومن أعظمها غزوة فتح مكة المكرمة، حيث مارس فيها النبي □ هذه العمليات الأربع باقتدار، وحقق الأهداف المرسومة مسبقاً، بأقل الخسائر، لذلك فقد رأىٰ الباحث أن تكون هذه العمليات هي محور الدراسة في المبحث التالي، من خلال أربعة مطالب هي:

المطلب الأول: التخطيط.
المطلب الثاني: التنظيم.
المطلب الثالث: التوجيه.
المطلب الرابع: الرقابة.

المطلب الأول: التخطيط:

تمهيد:

يعتبر التخطيط أولىٰ الوظائف الإدارية، بل هو أهمها، وهو وظيفة حتمية لأي عمل يراد له النجاح، وبالتالي فهو يؤثر علىٰ كل عناصر الإدارة الأخرىٰ من تنظيم، وتوجيه، ورقابة. «ولقد جاء الإسلام ليبني عقيدة ويقيم ديناً ويشيد أمة تحمل مشاعل أنوار العلم والعمل إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا يصبح التخطيط الوظيفة الإدارية الأولىٰ التي اهتم بها القرآن الكريم والسنة في الإدارة الإسلامية» (المزجاجي، ١٤٢١هـ، ص١٣٢). فالله تعالىٰ يوجه إلىٰ الأخذ بأسباب النصر، والتي من أهمها بعد التوكل علىٰ الله إعداد القوة، فيقول سبحانه: (ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې..) [سورة الأنفال: ٦٠].

وقد كان النبي قدوة لأصحابه في هذا الأمر حيث كان يخطط لأموره تخطيطاً دقيقاً، فخطط لدعوته، ولهجرته، ولبناء دولة الإسلام في المدينة، ولغزواته، ومنها غزوة فتح مكة المكرمة، التي خطط لها النبي تخطيطاً دقيقاً، حقق الأهداف المرادة بنجاح، وفي هذا المطلب سيدرس الباحث التخطيط من حيث بيان مفهومه، وذكر مواقف من غزوة الفتح تدل علىٰ أهمية التخطيط كوظيفة إدارية أولىٰ مطلوبة لأي عمل يراد له النجاح.

أولاً: مفهوم التخطيط:

١- **المفهوم اللغوي**: التخطيط: مأخوذ من الفعل خَطَّ، يَخُطُّ، خطاً وتخطيطاً، «والخَطّ: الطريقة المستطيلة في الشيء، ... والخَطّ: الطريق، يقال: الزم ذلك الخط ولا تَظْلِم عنه شيئاً... ويقال فلان يَخُطُّ في الأرض إذا كان يفكر في أمره ويدَّبّره... والخُطَّةُ: كالخَطِّ كأنها اسم للطريقة.

والتخطيط: التسطير ...، تقول: خُطِّطَت عليه ذنوبه أي سطرت». (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٧، ص٢٨٧ – ٢٨٨).

والتخطيط لا يخرج عن هذه المعاني اللغوية، حيث أن من أراد فعل أمر، فكر فيه وتدبره، ثم رسم له طريقة يسير عليها سواء كانت مكتوبة أو غير مكتوبة، لينفذ ذلك الأمر، ويحقق أهدافه التي حددها مسبقاً جزئياً أو كلياً.

٢- المفهوم الاصطلاحي:

للتخطيط تعريفات متعددة تختلف حسب نوع التخطيط وميادينه، وأوجه النشاط المختلفة التي يمارسها الإنسان، ومن تعريفاته:

أ- من التعريفات الاصطلاحية للتخطيط عموماً:

١- يُعَرَّف بأنه: «دراسة البدائل المختلفة لأداء عمل معين ثم الوصول إلىٰ أفضل البدائل الممكنة والتي تحقق هدفاً معيناً في وقت معين، وفي حدود الإمكانات المتاحة تحت الظروف والملابسات القائمة» (أبو سن، ١٩٩٦م، ص٦٣).

٢- كما يُعَرَّف بأنه: «التدبير الذي يرمي إلىٰ مواجهة المستقبل بخطط مصممة سلفاً لتحقيق أ هداف محددة في إطار زمني محدد» (درويش، وتكلا، ١٩٩٢م، ص٢٧٦).

٣- ويعرف بأنه: «جسر بين الحاضر والمستقبل» (الضحيان، ١٤١٨هـ، ص٦٩).

ب- تعريف التخطيط الإسلامي:

للتخطيط الإسلامي تعريفات متعددة أيضاً لعل من أشملها التعريف التالي:

يُعَرَّف بأنه: «التفكير والتدبر بشكل فردي أو جماعي في أداء عمل مستقبلي مشروع مع ربط ذلك بمشيئة الله تعالىٰ ثم بذل الأسباب المشروعة في تحقيقه مع كامل التوكل والإيمان بالغيب فيما قضىٰ الله وقدَّره علىٰ النتائج» (المطيري، ١٤١٧هـ، ص٧٦).

ثانياً: أهمية التخطيط:

تظهر أهمية التخطيط من خلال ما يلي:

١- أنه أولى الوظائف الإدارية وأهمها، فلا يمكن أن تتم أي عملية من العمليات الإدارية الأخرى دون تخطيط، لذلك فهو ضرورة حتمية لأي عمل منظم يراد له النجاح.

٢- يَحُولُ التخطيط دون التخبط والعشوائية في تنفيذ الأعمال، فكل عمل مخطط له يتم وفق مراحل معينة، وأوقات محددة، تكفل له النجاح، وتحقيق الأهداف المرسومة.

٣- وهو بذلك يحفظ الجهد والوقت والمال، ويحقق ما خُطِّطَ له بأقل التكاليف الممكنة.

٤- يتحقق من خلاله جزء من الأهداف، ويتم تحقيق بقية الأهداف من خلال العمليات الإدارية الأخرى كالتنظيم، والتوجيه أثناء التنفيذ، والرقابة.

٥- وإذا كان مهماً في كل الأعمال فإنه في النواحي التربوية والتعليمية أكثر أهمية، وذلك لعلاقة التربية بالتنمية؛ لأنه عن طريق النظام التعليمي يمكن إيجاد القوى العاملة المدربة التي تقوم بتنفيذ خطط التنمية، «وفي حالة وجود عجز فيها يبرز دور التخطيط لتوفير القوى العاملة المؤهلة المدربة، بأكبر قدرة وسرعة ممكنة، ويتم من خلال العديد من الإجراءات والعمليات لإصلاح التعليم وحل مشكلاته، والاختبار الواعي للأهداف التي ينبغي الوصول إليها » (ابن دهيش وآخرون، ١٤٢٧هـ، ص١٧٧).

هذه بعض الأمور التي تبين أهمية التخطيط وتجعله ضرورة حتمية للأفراد والأمم.

وقد استخدم النبي □ التخطيط في حياته كلها، والأمثلة في سيرته □ علىٰ ذلك كثيرة، يصعب استقصاؤها، ولكن يكفي ذكر نماذج من تخطيطه عليه السلام لفتح مكة المكرمة، والتي تبيّن حسن التخطيط النبوي وسلامته ودقته، حيث حقق الأهداف المرجوة بأقل التكاليف، وسيورد الباحث فيما يلي بعض المواقف التي تبيِّن ذلك وتوضحه.

<u>ثالثاً: مواقف من غزوة الفتح المباركة تبيِّن حسن وسلامة تخطيط النبي □ وتحقيقه للأهداف المرادة من تلك الغزوة.</u>

١ـ <u>تخطيط النبي □ للتجهيز للغزوة</u>، وذلك أنه أرسل رسله إلىٰ من حوله من المسلمين وإلىٰ أهل البادية يدعوهم لحضور رمضان في المدينة، وبذلك يضمن □ تجهيز جيشه لهذه الغزوة المهمة تحت نظره، وليعرف إمكاناته واستعداداته وليضمن أيضاً سِرِّيَّة ما ينوي القيام به من غزو مكة المكرمة وفتحها.

وزيادة في السرية والتكتم بعث العيون واتخذ الحرس علىٰ طرقات المدينة المنورة لمنع خروج أحد منها خشية نقل شيء من أخبار هذا الاستعداد للغزوة إلىٰ قريش أو غيرهم، إضافة إلىٰ بَعْثِه سرية بقيادة أبا قتادة بن ربعي رضي الله عنه إلىٰ بطن إضم ليظن من يرىٰ اتجاه تلك السرية أنه □ يريد نجد بهذه الغزوة. ثم معالجته للخطأ الذي حصل من حاطب بن ابن أبي بلتعة رضي الله عنه في الحال، حتىٰ لا يتكرر ذلك من أحد من أفراد الجيش الإسلامي.

<u>٢ـ تخطيطه □ لمسير الجيش الإسلامي إلىٰ مكة المكرمة:</u>

وذلك أن النبي □ خرج بجيشه من المدينة المنورة إلىٰ قديد لم يعقد ألوية أو يعين قيادات، بل ترك القبائل علىٰ راياتها، وتحت قيادته شخصياً، وذلك ليحتمل زعماء القبائل مسؤولياتهم خلال مسير الجيش، ولأنه لم يكتمل جيشه بعد، فبعض القبائل لم تَلْقَه إلا في قُدَيد، واستمر يسير بجيشه إلىٰ ذي طوىٰ، وهناك قسم جيشه إلىٰ خمس فرق، وعين قادته استعداداً لدخول مكة المكرمة، وهذا من حسن تخطيط □، فما كان ليقسم جيشه ويعيّن قياداته إلا بعد اكتمال عدده وعدته.

<u>٣ـ تخطيطه لدخول الجيش الإسلامي مكة المكرمة:</u>

حين وصل الجيش الإسلامي إلى مَرّ الظهران أمر رسول الله □ الجيش أن يوقدوا نيراناً، فأوْقدوا نيراناً كثيرة جعلت أبا سفيان بن الحارث يفزعُ لرؤيتها، وكان الهدف من إيقادها إرهاب العدو حتىٰ لا يفكر في المقاومة، وزيادة في إظهار قوة الجيش الإسلامي أمر رسول الله □ العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتىٰ تَمُرَّ به جنود الله؛ ليرىٰ عدد الجيش وعُدَّته، حيث كان في تعبئة كاملة، فأرهب ذلك الأمر أبا سفيان، فولىٰ إلىٰ قومه منذراً ومحذراً، وداعياً لهم إلىٰ الاستسلام وعدم المقاومة، وبذلك نجحت خطة النبي □ والتي أراد بها الحيولة دون حدوث الصدام المسلح مع قريش منعاً لإراقة الدماء في البلد الحرام.

ومن حسن تخطيطه □ أنه وزع جيشه إلىٰ خمس فرق أحاطت بمكة المكرمة

من جميع جهاتها إحاطة السوار بالمعصم، وذلك لتشتيت وتفريق قوة قريش لو فكرت في المقاومة، ولإحكام قبضة الجيش الإسلامي علىٰ البلد، ومنع خروج جيش العدو إلىٰ خارج مكة المكرمة مما يعطيه فرصة المقاومة مرة ثانية، ونجحت الخطة في هذا الموقف أيضاً، فلم تُبْد قريش أية مقاومة، إلا ما كان مع خالد بن الوليد رضي وفرقته، وقد تمكن رضي الله عنه وفرقته من سحق تلك المقاومة وقتل عدد من أفرادها.

٤- ومن حسن تخطيطه أنه حين تم له الفتح كان أول عمل قام به هو تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وجميع مظاهر الشرك، كما أَمَّنَ الناس جميعاً إلا بضعة نفر أمر بقتلهم لارتكابهم أعمالاً يستحقون بموجبها ذلك، ثم أصدر عفواً عاماً عن قريش حين أمكنه الله منهم، وأصبح قادراً علىٰ عقوبتهم، ليبين الهدف الحقيقي للغزوة، وهو تطهير بيت الله الحرام وبلده الآمن من الشرك، ونشر دين الله فيه، وتحقيق التوحيد، وليبيِّن للناس أيضاً أنه لم يأتِ ليأخذ بثأره وثأر أصحابه من قريش؛ لأنه ليس للأحقاد ولا للضغائن في قلوبهم مكان، بل جاء رحمة للعالمين، حيث أخرج الله به الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام وأنقذهم الله به من النار.

هذه بعض المواقف التي ظهر فيها حسن تخطيط النبي في غزوة فتح مكة المكرمة، وإذا كان التخطيط أولىٰ وأهم العمليات الإدارية التي يحتاج إليها الإداري المسلم، فإن هناك عمليات إدارية أخرىٰ لا ينجح التخطيط بدونها، ومنها التنظيم الذي يعتبر العمود الفقري للمنظمة أو المؤسسة، وعن طريقه يتم تحديد الصلاحيات، وتوزيع الأعمال، واتخاذ القرارات، وعلىٰ ضوء ذلك تتم المتابعة والمحاسبة، لذلك فقد رأىٰ الباحث أن يكون التنظيم ثاني المضامين التربوية الإدارية التي ستتم دراستها وبحثها ضمن المطلب التالي.

المطلب الثاني: التنظيم:

تمهيد:

«يمثل التنظيم مرحلة مهمة في إطار العمليات الإدارية المتلاحقة، ويُعَدُّ المرحلة اللاحقة للتخطيط، ويشكل التنظيم العمود الفقري للمنظمة أياً كان نوعها وحجمها، وتزداد أهمية التنظيم مع تعقد المشكلات الإدارية، واتساع المؤسسة، وتنوع أنشطتها.

وفي التنظيم تتخذ القرارات الهادفة إلىٰ تحديد الأعمال وتوزيعها، وتفويض الصلاحيات اللازمة لإتمامها، وتتخذ القرارات الهامة للتنظيم في المستويات الإدارية العليا، وخاصة ما يتعلق بكيان التنظيم والتصميم الهيكلي» (ابن دهيش، ١٤٢٧هـ، ص١٠٥).

ولأهمية التنظيم فقد عنيت به التربية الإسلامية عناية كبيرة، من خلال آيات القرآن الكريم وسنة النبي وسيرته، ومن خلال تشريعات الإسلام، فقد نظم الإسلام علاقات الأفراد والجماعات بربهم أولاً، ثم ببعضهم البعض، كما نظم علاقاتهم بالسلطة الحاكمة لهم، سواء ما يتعلق منها بالأحوال الشخصية، أم بالحقوق والواجبات، أم ما يتعلق منها بنظام الحكم وقواعده وتشريعاته، أو غيرها من الأمور المتعلقة بشؤون الراعي والرعية في الدولة الإسلامية، وقد طبق النبي ذلك كله بصفته القائد والحاكم للدولة الإسلامية في عهده، والمطبق لتعاليم الكتاب والسنة التي تنظم أمور الناس، وتكفل لهم حياة سعيدة في الدارين، وطبقه من بعده أصحابه واستمر ذلك في العصور التي تلتهم.

لقد نظم النبي أموره وأمور أمته كلها في كل نواحي حياتها، نظم علاقاتهم فيما بينهم، كما نظمها مع اليهود الذين كانوا يسكنون معهم المدينة المنورة، ومع القبائل خارج المدينة، وكما نظم حياتهم في سلمهم نظمها في حال الحرب، فقد كان يرسل سراياه ويحدد لها اتجاهاتها، ويقوم بغزواته وينظم أمورها، ويُعَيِّن قادتها، وغزوة الفتح المباركة إحدىٰ تلك الغزوات التي قادها بنفسه عليه الصلاة والسلام ونظم لها تنظيماً دقيقاً ضمن نجاحها وتحقيق أهدافها، وقد اشتملت علىٰ مواقف ظهرت فيها ضرورة التنظيم كوظيفة إدارية مكملة للتخطيط، لذلك رأىٰ الباحث دراسة التنظيم في هذا المطلب من خلال بيان مفهومه لغة واصطلاحاً، وأهميته ومكانته، ومبادئه، ثم إيراد بعض تلك المواقف التي اسْتُخْدِم فيها التنظيم، وحقق نتائج مرغوب فيها.

أولاً: مفهوم التنظيم:

١- المفهوم اللغوي:

التنظيم مأخوذ من الفعل نَظَمَ: «والنّظم: التأليف، نَظَمه ينظمه نظماً ونظاماً ونظَّمَه فانْتَظَم وتنظَّم.

ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نَظَمت الشعر ونظَّمْتُه.

(ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٢، ص٥٧٨).

٢- المفهوم الاصطلاحي:

للتنظيم في المفهوم الاصطلاحي تعريفات عديدة تختلف باختلاف نظرة من عرفوه بناءً علىٰ المجالات التي يستعمل فيها التنظيم. ومن تعريفات التنظيم ما يلي:

أ- يعرف بأنه: «توزيع العمل علىٰ العاملين علىٰ أسس سليمة كفيلة بتحقيق أهداف المؤسسة أي كان نوعها» (الحقيل، ١٤١٧هـ، ص٤).

ب- كما يعرف بأنه: «عملية تنسيق الجهود البشرية في أي منظمة لإمكان تنفيذ السياسات المرسومة بأقل تكلفة ممكنة». (توفيق، ١٤٠٠هـ، ص١٥).

ج- ومن تعريفاته أيضاً أنه: «تحديد من يقوم بكل عمل من الأعمال المتنوعة التي تضطلع بها الإدارة، وبيان العلاقات بين القائمين بهذه الأعمال وما يتمتع به كل منهم من سلطة وما يتحمله من مسؤولية» (الحلو، ١٩٨٣م، ص١٨٤).

والملاحظ أن المفاهيم السابقة تركز علىٰ توزيع العمل بين الأفراد في مؤسسة أو منظمة معينة وتنظيمه، وتحديد الصلاحيات، وتفويض السلطة؛ لتحقيق أهداف مرسومة مسبقاً بأقل جهد ووقت وتكلفة، وهذا هو ما يهدف إليه التنظيم.

د- أما المفهوم الإسلامي للتنظيم: فَيُعَرَّف علىٰ أنه: «وظيفة إدارية رئيسة تسعىٰ إلىٰ تحديد كل النشاطات المباحة في المؤسسة وتحديد أوجهها ثم تقسيمها إلىٰ مجموعات معينة مع توضيح كل الحقوق، والالتزامات، وكذلك العلاقات الداخلية بين الموظفين رؤساء ومرؤوسين في المؤسسة والمتعاملين معها من الخارج أفراد ومؤسسات في ضوء أحكام وتعليمات مصدرها الشريعة الإسلامية وذلك من أجل تحقيق أهداف مشروعة» (المزجاجي، ١٤١١هـ، ص٢٩).

وعند تَأَمُلِ التعريف السابق يُلَاحَظُ أن التنظيم في الإسلامي يتميز بمميزات لا توجد في غيره من أنواع التنظيم. ومنها:

١- أن الأنشطة التي يتم التنظيم لها أنشطة مباحة ومشروعة.
٢- أنه يسعىٰ لتحقيق أهداف مشروعة.
٣- الأحكام والتعليمات التي تُنَظَّم من خلالها العلاقات الداخلية والخارجية للمؤسسة مصدرها الشريعة الإسلامية.

ثانياً: أهمية التنظيم ومكانته:

إن نظرة متأملة في الكون وما أبدع الله فيه من جميل صنعه تعالىٰ لَتُبَيِّن مكانة التنظيم وأهميته، حيث أن الله تعالىٰ خلق السماوات وزينها بالنجوم والكواكب التي تسير في نظام بديع رائع لا يختلف ولا يتبدل إلا إذا شاء الله تعالىٰ، وقد أرشدت إلىٰ ذلك آيات القرآن الكريم، في قول الله تعالىٰ: (ۇ ۆ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ
ې ې ى ى
       ى ى يي ى   ) [سورة يس: ٣٧ – ٤٠].

كما أنه سبحانه خلق الأرض، وثبتها بالجبال الرواسي، وجملّها بما أجرىٰ فيها من الأنهار والعيون وبما أنبت من الزروع والثمار والأشجار، وبالبحار وما أودع فيها من

الكنوز والخيرات والأسرار، كل ذلك في نظام رائع لا ترىٰ فيه خلل ولا اضطراب.

وفي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وتزويده بأجهزة دقيقة ، تعمل في نسق عجيب، بل إن بعضها لا يتوقف، ولو توقف لتوقفت حياة الإنسان، كل ذلك يبيِّن أيضاً أهمية ومكانة التنظيم، وأنه ضرورة لسير واستمرار الحياة بشكل سليم، يقول تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ ٻ) [سورة التين: ٤].

وكذلك ما يُشاهد في عالم الحيوانات والحشرات والطيور، من تنظيم لممالكها، وطريقة معيشتها، وهجرتها، وحياتها كلها، كل ذلك يوحي بأهمية النظام وضرورته، كما يدل علىٰ عظمة الله وقدرته وكماله وجلاله وجماله.

ثم إن نظرة إلىٰ تعاليم الإسلام وشرائعه لتؤكد أيضاً علىٰ أن الإسلام دين نظام في العبادات، فالصلاة مثلاً وهي أعظم شعائر الإسلام بعد الشهادتين، يظهر فيها النظام واضحاً جلياً، حيث تؤدىٰ في أوقات محددة، وبصفة معينة، وبأقوال وأفعال مخصوصة لا يقبل غيرها، حتىٰ الوقوف لها يكون في صفوف منظمة متراصة، يقتدي الناس فيها بإمامهم، ويتابعونه في جميع أفعاله، كل ذلك يدل علىٰ أن النظام مطلوب في حياة المسلم كلها، وقل مثل ذلك في سائر العبادات.

وكذلك المعاملات من بيع، وشراء، وإجارة، ورهن... وغيرها، كلها نظمها الإسلام تنظيماً دقيقاً، يحفظ للناس حقوقهم، ويصونها من التلف والضياع، وهكذا بقية أمور الناس وعلاقاتهم نظمها الإسلام تنظيماً لم ولن يصل إليه أي قانون من وضع البشر. كل هذه الأمور تدل دلالة واضحة علىٰ أن النظام ضرورة حتمية لِسَيْر حياة الناس وفق ما أراد الله تعالىٰ، وبدونه تحدث العشوائية والتخبط والفوضىٰ التي عاقبتها الظلم وضياع الحقوق، والدمار في الدنيا، والخسران في الآخرة.

والتنظيم كعملية إدارية له أهميته ومكانته حيث أنه لا يمكن أن يسير العمل في أي مؤسسة صغيرة كانت أو كبيرة دون تنظيم، لأنه بواسطته يتم توزيع العمل، وتحديد المسؤوليات والصلاحيات، والحقوق والواجبات، وفي ضوء ذلك كله تتم المتابعة والمحاسبة.

وله أهميته ومكانته كعامل مساعد علىٰ نجاح الخطط المرسومة، لأن تلك الخطط يمكن تقسيمها إلىٰ مجموعات من الأعمال، وإسناد كل منها إلىٰ من تتوفر فيه شروط تمكنه من القيام به، وهذا لا يتم إلا عن طريق التنظيم.

هذه بعض الأمور التي تبين أهمية التنظيم ومكانته، وتدعو إلىٰ تطبيقه في حياتنا كلها، في مؤسساتنا بمختلف أنواعها وأنشطتها، وفي بيوتنا، وفي تعاملنا مع غيرنا.

ثالثاً: مواقف طُبِقّ فيها التنظيم خلال غزوة فتح مكة المكرمة:

إذا كان التنظيم ضرورياً في جميع الأحوال، فإنه في حال الحرب يكون ضرورياً للغاية؛ لأن توزيع المهام، وتحديد المسؤوليات في هذه الحال أمر لابد منه حتىٰ لا تتداخل الصلاحيات، ويحدث الاضطراب والخلل، وقد كان النبي ﷺ ينظم لغزواته تنظيماً دقيقاً، وقد فعل ذلك في غزوة فتح مكة المكرمة، ظهر ذلك في عدة مواقف منها:

١- حسن تنظيم الجيش الإسلامي في ذي طوىٰ، حيث كان في تعبئة كاملة جعلت أبا سفيان بن حرب رضي الله عنه يقول: حين رأىٰ ذلك: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، ويرجع إلىٰ قومه محذراً قائلاً لهم لقد جاءكم محمد بما لا قِبَل لكم به.
٢- توزيع الجيش الإسلامي إلىٰ أربع فرق، جعل علىٰ كل فرقة قائداً مغواراً، ثم حدد لكل جهته التي يدخل منها، وأمرهم بعدم القتال إلا أن يقاتلوا وكان هو علىٰ الفرقة الخامسة، وكان لهذا التنظيم أثره الجيد علىٰ سير الغزوة، حيث فتحت مكة المكرمة في وقت محدد، وبأقل الخسائر.
٣- وزع جيشه إلىٰ مجنبة يمنىٰ، ومجنبة يسرىٰ، وقلب، وكان هذا شأنه ﷺ في معظم غزواته، وهذا الأمر يجعل الجيش أقدر علىٰ الكر والفر، ويفرق قوة الجيش المهاجم، ويستثير حماس أفراد الجيش لأن كل فرقة لا ترضىٰ أن يؤتىٰ الإسلام من قبلها.
٤- تنظيم الأعمال حين تم الفتح، حيث جعلها أولويات، فبدأ بتطهير البيت من كل معالم الشرك، ثم الصلاة في جوف الكعبة المشرفة، ثم الخروج علىٰ الناس وإلقاء خطبة الفتح التي يبيِّن فيها سياسة الدولة، وألغىٰ كل أمور الجاهلية التي تخالف الإسلام، ثم أصدر عفواً عاماً عن قريش، ثم البيعة، وهكذا بقية الأعمال.
٥- أقام صلىٰ بعد الفتح تسعة عشر يوماً في أصح الروايات ينظم أمور الناس، ويحكم بينهم، ويفقههم في دينهم، وحين أراد الانصراف من مكة المكرمة أبقىٰ لهم معاذ بن جبل رضي الله عنه ليصلي بالناس ويفقههم في دينهم، ويعلمهم القرآن، كما استخلف عتاب بن أسيد رضي الله عنه يحكم بين الناس بكتاب الله، ويأخذ من قويهم لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم، وهكذا كان ﷺ حريصاً علىٰ تنظيم أمور الناس وهو بينهم وبعد أن انصرف عنهم.

هذه بعض المواقف التي اسْتُخْدِم فيها التنظيم في غزوة فتح مكة المكرمة، وكان له أثره الكبير في تحقيق أهداف الغزوة بالتكامل مع بقية العمليات الإدارية الأخرىٰ كالتخطيط الذي سبقت دراسته، والتوجيه والرقابة، والتي ستتم دراستهما خلال المطلبين التاليين.

المطلب الثالث: التوجيه:

تمهيد:

التوجيه هو العملية الثالثة من العمليات الإدارية التي يمارسها المدير داخل مؤسسته، وهو عنصر هام من عناصر الإدارة، من خلاله يوجه الإداري ويرشد العاملين معه إلىٰ أفضل السبل التي تعينهم علىٰ تحقيق الأهداف المرسومة بأقل جهد ووقت.

وقد «زخر القرآن الكريم والسنة المطهرة وسير الصحابة والتابعين والسلف الصالح برصيد هائل من التوجيهات والإرشادات المتعددة والمتنوعة التي تتعلق بالسلوك العام والخاص والعبادات والمعاملات والجوانب الاقتصادية والسياسية والإدارية والاجتماعية ونحوها بحيث اشتملت علىٰ كل ما هو صالح للإنسان في هذا الكون الفسيح، فأمرت .. بكل ما هو خير ورغبت فيه، ونهت عن كل ما هو شر

وحذرت منه» (المزجاجي، ١٤٢١هـ، ص٢٧٣). وهذا يدل علىٰ أهمية هذه العملية وضرورتها لتوجيه وإرشاد العاملين وتصحيح مسارهم حتىٰ يؤدي كل منهم عمله علىٰ الوجه الأكمل، وبما يوافق الأهداف المرسومة، وقد مارس النبي هذه العملية، فكان يوجِّه الناس ويرشدهم ويعالج أخطاءهم وسنته وسيرته حافلة بذلك، وفي أحداث فتح مكة المكرمة كان النبي يوجه قادة جيشه، ويحدد لهم مهامهم، ويوجه الناس عموماً. وفي هذا المطلب سيتناول الباحث التوجيه من حيث بيان مفهومه، وأهميته، ثم مواقف من غزوة فتح مكة مورس فيها التوجيه عملياً.

أولاً: مفهوم التوجيه:

١- المفهوم اللغوي:

التوجيه مأخوذ من الفعل وجَّه، «ووجَّه إليه كذا: أرسله، ووجهته في حاجة ووجهت وجهي لله وتوجهْتُ نحوك وإليك...، قال بعضهم وجَّه الحجر وِجْهَةً وَجِهةً مّاله ووجْهاً مّاله، ... يريد وجه الأمر وجْهَهُ؛ يضرب مثلاً للأمر إذا لم يستقم من جهةٍ أن يوجِّه له تدبيراً من جهة أخرىٰ، وأصل هذا في الحجر يوضع في البناء فلا يستقيم، فيقلب علىٰ وجه آخر فيستقيم، ويقال: وجْهَةٌ مّاله ...، أي دبر الأمر علىٰ وجهه الذي ينبغي أن يُوَجَّه عليه، وفي حسن التدبير يقال: ضرب وجْهُ الأمر وعيْنَه. (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٣، ص٥٥٧).

ومن هذا يُفهم أنَّ التوجيه في اللغة: تدبير الأمر علىٰ الوجه الصحيح الذي ينبغي أن يوجَّه إليه.

٢- المفهوم الاصطلاحي:

للتوجيه اصطلاحاً تعريفات عديدة منها:

أ- يُعَرَّف بأنه: «الاتصال بالموظفين العاملين بواسطة التسلسل الإداري وتبصيرهم وترشيدهم بالوسائل الكفيلة بتحقيق الأهداف المعلنة، وبهذا المعنىٰ فإن التوجيه يعني إرشاد العاملين لتنفيذ أعمالهم علىٰ أسس سليمة» (الحقيل، ١٤١٧هـ، ص٥).

ب- كما يعرَّف بأنه: «فن وقدرة المدير علىٰ السير الصحيح بمن تحت إمرته، وهدايتهم وتوجيههم، مع إشاعة روح الود، والحب، والرضا، والتفاني، والانتماء للعمل، حتىٰ يتحقق الهدف المطلوب تحقيقه» (الضحيان، ١٤١٨هـ، ص١١٩).

ج- كما يُعَرَّف التوجيه من منظور إسلامي بأنه: «مجموعة الإرشادات والنصائح والأوامر والتعليمات الشفوية والمكتوبة الصادرة من الرئيس إلىٰ مرؤوسيه بأسلوب حسن بعيد عن التهجم أو التهكم أو السخرية أثناء العمل بقصد القيام بعمل ما أو الامتناع عنه حرصاً علىٰ الأداء الإداري السليم وذلك من أجل الوصول إلىٰ هدف محدد مشروع» (المزجاجي، ١٤٢١هـ، ص٢٧٣).

والتعاريف السابقة جميعها تبيّن أن التوجيه هو مجموع الإرشادات والتوجيهات والنصائح والأوامر والتعليمات التي تصدر من الرئيس إلىٰ المرؤوسين، بقصد تنفيذ

أعمال معينة، أو الامتناع عن أخرىٰ، للوصول إلىٰ تحقيق الأهداف المحددة مسبقاً، ويتميز التوجيه من منظور إسلامي بأنه غايته تحقيق أهداف مشروعة.

ثانياً: أهمية التوجيه ومكانته في الإسلام:

للتوجيه في الإسلام أهمية ومكانة عظيمة يمكن بيانها من خلال ما يلي:

١- أن الله تعالىٰ أمر عباده بدعائه في كل ركعة من الصلاة بأن يهديهم إلىٰ صراطه المستقيم، والهداية هي الدلالة والإرشاد والتوجيه. فالله تعالىٰ يوجه عباده إلىٰ دعائه في أهم عبادة افترضها عليهم، وإلىٰ سؤاله الهداية والتوفيق لكل ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، «فالهداية إلىٰ الصراط المستقيم: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط المستقيم تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب علىٰ الإنسان أن يدعو الله به في ركعة من صلاته؛ لضرورته إلىٰ ذلك» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٣٩).

٢- أن إرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب إنما كان لإرشاد الناس وتوجيههم إلىٰ ما أراده منهم خالقهم ومليكهم سبحانه وتعالىٰ، يقول تعالىٰ: (ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ) [سورة البقرة: ٢٣١]، فالله تعالىٰ أنزل الكتاب والسنة لبيان طرق الخير والترغيب فيها، وبيان طرق الشر والتحذير منها، وهذا توجيه لعباده لإتباع طرق الخير، والبعد عن طرق الشر، وأرسل سبحانه الرسل عليهم السلام لبيان ذلك وتفصيله وإيضاحه للناس، فقال تعالىٰ: (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ) [سورة إبراهيم: ٤]، «وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولاً (إلا بلسان قومه، ليبين لهم) ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتىٰ به، ... فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله (فيضل الله من يشاء) ممن لم ينقد إلىٰ الهدىٰ، ويهدي من يشاء ممن اختصه برحمته» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٤٢١).

٣- أن التوجيه وظيفة العلماء والدعاة والمصلحون، يقول تعالىٰ: (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ) [سورة آل عمران: ١٠٤]. وهذا كله يكون به توجيه الناس وإرشادهم إلىٰ ما فيه فلاحهم وصلاحهم وسعادتهم في الدارين.

٤- وهو أيضاً وظيفة المربين من آباء وأمهات ومعلمين وغيرهم، فإبراهيم ويعقوب عليهما السلام يوصيان أبناءهم بتوحيد الله وطاعته والإخلاص له، يقول تعالىٰ: (ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ) [سورة البقرة: ١٣٢]، ولقمان يوصي ابنه بوصايا عديدة فيها صلاحه وخيره في الدنيا والآخرة، وهذا كله في حقيقته توجيه وإرشاد.

٥- ولأهميته فإنه يمارس من قبل الحكومات عن طريق مؤسسات الدولة المختلفة، حيث يوجه كل مسؤول من تحت يديه ليقوموا بأعمالهم وفق الخطط المرسومة، وكل حسب تخصصه وحسب الصلاحيات الممنوحة له.

٦- كما وأنه عملية هامة للغاية؛ لأنه لا يمكن أن تتم الرقابة والمحاسبة على

الأعمال إلا بعد التوجيه وتحديد الصلاحيات والمسؤوليات.

لذلك فهو عملية ضرورية لا غنىٰ عنها، تجب ممارستها والقيام بها من كل من ولي شيئاً من أمر الناس، فذلك من الأمانة التي افترض الله علىٰ الناس أداءها فقال تعالىٰ: (ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا...) [سورة النساء: ٥٨]، هذه بعض الأمور التي تبين أهمية التوجيه كعملية إدارية ضرورية. ولما كان التوجيه بهذه الأهمية كان لابد من ممارسته في حياة الناس، وقد تضمنت أحداث فتح مكة المكرمة مواقف حصلت فيها هذه الممارسة، وفي الفقرة التالية سيورد الباحث بعض تلك المواقف، فإلى ذلك وبالله التوفيق.

ثالثاً: مواقف من غزوة فتح مكة المكرمة اشتملت على التوجيه كوظيفة إدارية قيادية:

١- حين بدأ الرسول التجهيز للغزوة أصدر توجيهه إلىٰ المسلمين خارج المدينة المنورة لحضور رمضان فيها، وحضر منهم من حضر، ولقيه آخرون في الطريق كقبيلة سُليم، وعيينة بن حصن وبعض قومه، وغيرهم، وكان هدفه من هذا الأمر استنهاض الهمم وحضور أكبر عدد من المسلمين إلىٰ المدينة النبوية للمشاركة في الاستعداد للغزوة، لذلك لم يؤاخذ من لم يحضر إلىٰ المدينة، بل قبلهم في جيشه وأظهر لهم ما يدل علىٰ رضاه عنهم، «حيث جعل سُلَيم مقدمته» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨١٣)، «ودخل مكة بين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٠٤). وكلهم لم يحضر إلىٰ المدينة بل لقوه في الطريقة.

٢- عين الحراسات علىٰ طرقات المدينة، وجَعَل عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأصدر أمره إليهم بأن لا يمر بهم أحد ينكرونه إلا أوقفوه وتحفظوا عليه، حتىٰ لا تتسرب إلىٰ قريش أي أخبار عن استعدادات المسلمين للغزو، واستمرت الحراسات في عملها حتىٰ تمت عملية الفتح بنجاح، وكانت تنفذ أوامر الرسول بكل دقة، متحملة المسؤولية بكل أمانة واقتدار.

٣- حينما حدث من الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ما حدث، وسأله الرسول عن سبب ذلك، أجابه حاطب رضي الله عنه بما يثبت أنه لازال علىٰ دينه، محباً لله ولرسوله مبغضاً للكفر وأهله، وإنما فعل ذلك خشية علىٰ أهله وولده في مكة المكرمة، وحين علم النبي صدقه، عفا عنه وقدر له سابقته في الإسلام وحضوره غزوة بدر الكبرىٰ، وقال مخاطباً عمر رضي الله عنه حين اتهمه بالنفاق: «وما يُدْريك لعل الله اطَّلع علىٰ من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٤٢٧٤، ص٥٨١). وفي هذا توجيه لجميع المسلمين بعدم تكرار العمل الذي حصل من حاطب رضي الله عنه مهما كانت أسبابه، وهنا يشترك الجميع في المسؤولية، وتقع المساءلة علىٰ من يحدث منه مثل ذلك العمل أو غيره مما يلحق الضرر بالمسلمين.

وفيه توجيه آخر إلىٰ المسلمين بعدم التعرض لحاطب رضي الله عنه، أو

التثريب عليه بسبب ذلك العمل، وفي هذا مراعاة لمشاعره واحترام لـه وتقدير لمواقفه السابقة في سبيل الله.

٤- حين وزع جيشه إلىٰ خمس فرق أصدر لهم أوامر محددة، حيث حدد لهم الجهات التي يدخلون منها، وأمرهم بأن لا يقاتلوا إلا إذا قوتلوا، وأصدر أمره إلىٰ الأنصار بحصد من يعترض طريقهم من القرشيين، وأن يلقوه عند الصفا، ونفذ الجميع هذه الأوامر بدقة، إلا ما حصل من الصحابي الجليل سعد بن عبادة رضي الله عنه وكان حامل لواء الأنصار رضي الله عنهم حين قال والجيش الإسلامي يستعد لدخول مكة: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة» (ابن هشام، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٢٥٤) وعندما بلغ ذلك النبي وجَّه بنزع الراية منه وتسليمها لابنه قيس، وفي هذا توجيه لسعد رضي الله عنه ولغيره بعدم مخالفة أمر الرسول ، وفيه مراعاة لنفسية سعد حيث لم يسلم الراية لغير ابنه، ومراعاة لشعور الأنصار ونفسياتهم حيث أنهم ثلث الجيش ومن الأفضل أن تكون رايتهم مع أحدهم.

وكذلك حينما قاتل خالد بن الوليد رضي الله عنه وفرقته من اعتراض طريقهم من قريش لمنعهم من دخول مكة المكرمة، وعلم الرسول سبب ذلك، لم يَلُم خالداً ومن معه، بل استحسن فعلهم ذلك ورضي به.

٥- وجه من حضر ذلك الفتح من المسلمين وغيرهم، والناس إلى يوم القيامة أن مكة شرفها الله حرمها الله إلى يوم القيامة، ولم لا يحل لأحد استحلالها، ولم تحل لرسول الله إلا ساعة من نهار يوم الفتح؛ وذلك ليراعي الناس حرمة البلد الحرام وقدسيته، ويلتزمون بأحكامه إلى يوم القيامة.

هذه بعض المواقف التي ظهر فيها حسن توجيه النبي ، حيث تحققت فيه وحدة الأمر وسلامته من الازدواجية والتناقض، ووضوحه، ودقته في تحديد الصلاحيات وتوزيع المسؤوليات والمساءلة والمحاسبة، ومراعاة الاعتبارات الإنسانية حين التوجيه، كل ذلك يبين أهمية التوجيه وضرورته كعملية إدارية لابد أن تمارس ممارسة صحيحة لتحقيق أهدافها.

وإذا كان التوجيه وظيفة إدارية في غاية الأهمية، فإن هناك وظيفة إدارية أخرىٰ لا تقل أهمية عن التوجيه، إنها الرقابة والتي مارسها النبي خلال أحداث فتح مكة المكرمة في مواقف عديدة، ظهر من خلالها أهمية هذه العملية الإدارية، والتي سيتناولها الباحث بالدراسة خلال المطلب التالي.

المطلب الرابع: الرقابة:

تمهيد:

الرقابة هي إحدىٰ العمليات الإدارية الأربع، وهي وظيفة من وظائف الإدارة ترتبط بأوجه النشاط المختلفة الممارسة داخل المؤسسة، وقد تكون داخلية أو خارجية، علوية أم ذاتية، هدفها تتبع سير العمل داخل المؤسسة، ومتابعة أداء العاملين فيها، وكشف الأخطاء، وتصحيح مسارهم وتوجيههم إلىٰ أفضل الطرق والسبل التي تحقق الأهداف المرسومة.

وعلىٰ هذا فإنه لا تستقيم إدارة، ولا يتم عمل بوجه صحيح دون رقابة ومتابعة،

وقد اهتمت التربية الإسلامية بالرقابة بجميع أنواعها، حيث وردت ضمن آيات القرآن الكريم، وأحاديث المصطفىٰ ، ومُورست ممارسة فعلية منه ، حيث كان يرقب من يوليهم شيئاً من أمور الناس، ويكشف أخطاءهم، ويصحح مسارهم.

حدث ذلك منه في حال السلم والحرب، وغزوة فتح مكة المكرمة تضمنت شيئاً من ذلك، وهو ما سيبينه الباحث بإذن الله تعالىٰ في هذا المطلب، بعد بيان مفهوم الرقابة لغة واصطلاحاً، وأهميتها، وأنواعها، ثم بعض المواقف من غزوة الفتح والتي مُورست فيها الرقابة ممارسة فعلية.

أولاً: مفهوم الرقابة:

١- المفهوم اللغوي:

الرقابة مأخوذة من الفعل رقب، «ورَقَبَ الشيء يَرْقُبُه، وراقَبُه مراقبة ورِقابا: حَرَسَه، حكاه ابن الأعرابي، ... وتَرقَّبَه، وارْتَقَبَه: انْتَظَره ورصده، والتَّرَقُّب: الانتظار، وفي قوله تعالىٰ: (ۀ ہ ہ) [سورة طه: ٩٤]، معناه لم تنتظر قولي، والتَّرَقُّب: تَنَظُّرُ وتَوَقُّعُ شيء. والمَرْقَب والمرْقَبَة: الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب، وما أوتيت عليه من علم أو رابيه لتنظر من بعد. (و) في أسماء الله تعالىٰ: الرَّقِيب: وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيءٌ... وفي الحديث: «ارقبوا محمداً في أهل بيته أي احفظوه فيهم» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١، ص٤٢٤ – ٤٢٥). وعليه فإن الرقابة لغة تعني الانتظار والرصد بقصد الحراسة والحفظ.

٢- المفهوم الاصطلاحي:

للرقابة تعريفات عديدة حيث تناولها عدد من كُتّاب الإدارة والتنظيم بالدراسة، وعرفوها تعريفات كثيرة منها:

١- عُرِّفت علىٰ أنها: «عملية متابعة دائمة تهدف أساساً إلىٰ التأكد من أن الأعمال الإدارية تسير في اتجاه الأهداف المخططة بصورة مرضية، كما تهدف إلىٰ الكشف عن الأخطاء والانحرافات ثم تصحيح تلك الأخطاء، والانحرافات بعد تحديد المسؤول عنها ومحاسبته المحاسبة القانونية العادلة» (أبو سن، ١٩٩٦م، ص١٤٦).

٢- كما عُرِّفت علىٰ أنها: «التأكد من أن تنفيذ الأهداف المطلوب تحقيقها في العملية الإدارية تسير سيراً صحيحاً حسب الخطة والتنظيم والتوجيه المرسوم لها» (الضحيان، ١٤١٨هـ، ص١٢٩).

٣- كما عُرِّفت علىٰ أنها: «تلك الرقابة الشاملة سواء كانت علوية، أم ذاتية، أم إدارية (رئاسية)، أم خارجية، والتي تسعىٰ إلىٰ التأكد من أن الأهداف المرسومة والأعمال المراد تنفيذها قد تمت فعلاً وفقاً للمعايير والضوابط الشرعية الإسلامية» (المطيري، ١٤١٧، ص١٩٢).

٤- وعُرِّفت علىٰ أنها: «وظيفة إدارية فردية وجماعية ومهمتها متابعة النشاط الإداري وفحصه داخل المنظمة بموضوعية بهدف التقويم أو التغيير عند اللزوم وذلك للتأكد من سلامة ومشروعية العملية الإدارية أداءً ووسيلة وغاية، وتنفيذاً للواجب

وانقيــاداً لقــول الله تبــارك وتعــالىٰ فــي وصــف المــؤمنين: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ) [ســورة المؤمنون: ٧]. واستشعاراً للمسؤولية وامتثالاً لقول المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام وعلىٰ آلـه وصـحبه: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيتـه...» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٨٩٣، ص١٢٣)» (المزجاجي، ١٤٢١هـ، ص٣٤٦ – ٣٤٧).

والمتأمل في التعاريف السابقة يجد أن تعريف المزجاجي أدقها عبارة، فقد بيّن ما تتميز به الرقابة الإدارية الإسلامية، وحصر ذلك في ثمانية مقاصد هي:

١- التأكد من مشروعية النشاط الذي تمارسه المنشأة.

٢- التأكد من أن العملية الإدارية تسير بأمانة وفقاً لما رسم لها، ومن تكافؤ السلطة مع المسؤولية في جميع المستويات الإدارية.

٣- التأكد من أن الأنظمة والتعليمات الموجهة للنشاط مصدرها الشريعة الإسلامية.

٤- التأكد من سلامة الأداء وخُلُوِّه من الأخطاء.

٥- التأكد من أن الأهداف المزمع تحقيقها مباحة.

٦- التأكد من تحقيق الأهداف المحددة مسبقاً حسب مواصفاتها المثبتة في الخطة.

٧- التأكد من الاستفادة المثلىٰ من الإمكانات المتاحة دون تبذير أو تقتير.

٨- التأكد من الموضوعية عند ممارسة الرقابة.. أي الحياد التام وعدم التحيز إلىٰ عرق أو لون أو مكانة اجتماعية أو رتبة إدارية أو قرابة أو مصلحة شخصية أو ما شابه ذلك. (المزجاجي، ١٤٢١هـ، ص٣٤٨ – ٣٤٩).

ثانياً: أهمية الرقابة في الإسلام:

للرقابة أهمية كبيرة في الإسلامي، ومما يبين أهميتها ما يلي:

١- أن الله تعالىٰ تسمىٰ بالرقيب، فهو رقيب علىٰ خلقه، يدل علىٰ ذلك آيات كثيرة من كتاب الله الكريم، منها قوله تعالىٰ: (ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ) [سورة المائدة: ١١٧]، وقوله سبحانه: (... ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ) [سورة النساء: ١]، فهو رقيب علىٰ عباده مطلع علىٰ أحوالهم لا يغيب عنه من ذلك شيء، ورقابته تعالىٰ علوية تقع منه علىٰ عباده، حتىٰ لا يظلم عنده أحد.

٢- جعلها الله وظيفة من وظائف الملائكة، حيث جعل منهم رقباء علىٰ الناس، يحصون عليهم أعمالهم ويكتبونها، يدل علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: (ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ) [سورة ق: ١٨].

٣- كلف سبحانه بها الأنبياء، حيث جعلهم شهوداً علىٰ الناس، والشهادة تستلزم الرقابة أولاً، ثم يشهد الإنسان علىٰ غيره بناء علىٰ ذلك، يقول تعالىٰ: (ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ) [سورة النساء: ٤١].

٤- جعل علىٰ الإنسان رقابة من نفسه، حيث يقول تعالىٰ: (ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ) [سورة النور: ٢٤]، وهذه رقابة داخلية من ذات الإنسان، حيث ترقب الجوارح، وتشهد كل جارحة بما عملته.

٥- ثم كلَّف بها سبحانه جميع الناس، حيث أمرهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا

عن المنكر، في قوله تعالىٰ: (ڳ ڱ ڲ ڳ ڴ ڵ ڶ ڷ ں ں ڻڻ ڼ ڽ ۀ) [سورة آل عمران: ١٠٤]، والرسول □ يقول: «من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٤٩، ص٢٥)، والأمر والنهي لا يكون إلا بعد المراقبة وملاحظة ما يستوجب الأمر أو النهي.

٦- وهي هامة لأنها تبنىٰ عليها محاسبة الأفراد، وتتخذ القرارات بحقهم، فيثاب المحسن، ويعاقب المسيء، وتركها يتسبب في ضياع الأمانات، والإهمال في القيام بالواجبات، وذلك يؤدي إلىٰ عدم تحقيق الأهداف والوصول إلىٰ الغايات المرجوة.

٧- وهي هامة لأنه بواسطتها يتم الكشف عما يحدث في الأعمال من تقصير أو أخطاء، ويتم التصحيح والمعالجة والتوجيه بما يضمن سلامة الأداء، ويحقق الأهداف، «ولذلك فهي تحتاج إلىٰ قدر من الحكمة والحصافة، والإلمام بالنواحي النفسية والإنسانية للعاملين، وتتوفر العدالة في تقييم أداء العاملين» (أبو سن، ١٩٩٦م، ص١٤٦).

هذه بعض الأمور التي تبين أهمية الرقابة ومكانتها في الإسلام.

وفي أحداث فتح مكة المكرمة مواقف مُورست فيها الرقابة عملياً سيورد الباحث شيئاً منها في الصفحات التالية.

ثالثاً: مواقف من غزوة الفتح المباركة طُبِقَت فيها العملية الرقابية:

من تلك المواقف:

١- الرقابة حين الاستعداد للغزوة، وذلك بتعيين الحرس علىٰ طرقات المدينة، وإصدار الأوامر إليهم من الرسول □ بأن لا يدعوا أحداً يَمُرُّ بهم ينكرونه إلا ردوه، وذلك لضمان سرية التجهيزات للغزوة.

٢- الرقابة حين سير الجيش الإسلامي إلىٰ مكة، فقد كانت تُرْسَلُ قبله الطلائع لمراقبة الطريق، والقبض علىٰ الجواسيس، وقد كانت تقوم بدورها، حيث قبضت علىٰ عين لهوازن، كما قبضت علىٰ أبي سفيان وحكيم بن حزام وهم يتجسسون أخبار الجيش الإسلامي، وسلمت هؤلاء إلىٰ الرسول □، وتمَّ التحقيق معهم لمعرفة هدفهم، ومعرفة استعداد الأعداء، وتمَّ التحفظ علىٰ جاسوس هوازن لكي لا يطلع هوازن علىٰ استعدادات الجيش الإسلامي وتحركاته، أما أبو سفيان - رضي الله عنه - فقد أسلم وعاد إلىٰ قومه منذراً و محذراً من مواجهة الجيش الإسلامي.

٣- وقد مارس النبي □ الرقابة بنفسه خلال مسير الجيش إلىٰ مكة المكرمة، ومن ذلك أنه حين كان فيما بين العرج والطَّلوب، نظر إلىٰ كلبةٍ تهرُّ علىٰ أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها، لا يعرض لها أحدٌ من الجيش ولأولادها» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٠٤)، وفي ذلك دلالة علىٰ أنه كان يمارس الرقابة بنفسه إضافة إلىٰ من يكلفهم بذلك، وفيه أيضاً ما يدل علىٰ رحمته □ التي تجاوزت الإنسان إلىٰ الحيوان، وليس هذا الموقف الوحيد، فقد كان له □ مع الحيوانات مواقف مشابهة ليس هذا مجال ذكرها.

٤- وكذلك عندما رأىٰ بارقة السيوف والجيش الإسلامي يدخل مكة – وكان قد نهىٰ عن القتال – فسأل عن ذلك، فقيل له خالد بن الوليد رضي الله عنه قاتل، فسأله عن سبب ذلك فقال : «لِمَ قاتلت وقد نُهيتُ عن القتال؟ فقال: هم يا رسول الله بدأونا بالقتال، ورشقونا بالنَّبل، ووضعوا فينا السلاح، وقد كففت ما استطعتُ، ودعوتهم إلىٰ الإسلام، وأن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فأبوا، حتىٰ إذا لم أجد بداً قاتلتهم، فظفَّرنا الله عليه وهربوا في كل وجه يا رسول الله، ثم قال رسول الله : قضىٰ الله خيراً» (الواقدي، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٨٣٩).

٥- كما كانت تمارس الرقابة الشعبية، ويستطيع من لاحظ أمراً مخالفاً لما أمر به الرسول أن يبلغه ذلك الأمر، ومثال ذلك: ما بلغه عن سعد بن عبادة رضي الله عنه حين كان يحمل راية الأنصار ليدخل بها مكة، فقال لمَّا مرَّ بأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. فلما بلغ ذلك النبي ، عزله عن راية الأنصار وسلمها لابنه قيس، وقد قيل أن الذي أخبره بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل أبا سفيان، وقيل غير ذلك: وهذا يعني أن الرقابة كانت تمارس من الجميع.

هذه بعض المواقف التي مُورست فيها الرقابة خلال غزوة فتح مكة المكرمة، والتي تدل علىٰ أهمية الرقابة كعملية إدارية تتوقف عليها عملية المساءلة والمحاسبة علىٰ الأعمال، وتتخذ بموجبها القرارات بحق العاملين ويتوقف عليها نجاح العمليات الإدارية الأخرىٰ من تخطيط وتنظيم وتوجيه، هذه بعض المضامين الإدارية التربوية التي تم استنباطها من غزوة الفتح المباركة، وبها تُخْتَتمُ المضامين التربوية المستنبطة من هذه الغزوة ويختتم الفصل الثاني من هذه الدراسة، ويلي ذلك الفصل الثالث والذي سيتضمن – بمشيئة الله تعالىٰ – تطبيقات تربوية في بعض تلك المضامين المستنبطة من الغزوة وسيكون التطبيق من خلال بيان دور كل من الأسرة والمدرسة بصفتهما المؤسستين التربويتين الأكثر أثراً علىٰ النشء في مراحل هامة من حياته.

الفصل الثالث

التطبيقات التربوية لبعض المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة المكرمة

- المبحث الأول: تطبيقات تربوية في المضامين العقدية.
- المبحث الثاني: تطبيقات تربوية في بعض المضامين الأخلاقية.
- المبحث الثالث: تطبيقات تربوية في بعض المضامين الاجتماعية.
- المبحث الرابع: تطبيقات تربوية في بعض المضامين الإدارية.

مدخل إلى الفصل

في الفصل الثاني من هذه الدراسة استنبط الباحث عدداً من المضامين التربوية من أحداث فتح مكة المكرمة، في جوانب مختلفة: عقدية وأخلاقية، واجتماعية، وإدارية، ولكن هذه المضامين تظل قليلة الجدوىٰ ما لم تطبق في واقع الناس؛ لأن القرآن الكريم، وسنة المصطفىٰ وسيرته منهج حياة متكامل، يجب تطبيقه في حياة الناس، لذلك فإن دراستها تحتاج إلىٰ تدبر وفهم، لاستنباط ما فيها من العقائد والأخلاق والقيم والمثل، والإفادة من ذلك كله في مجالات التربية المختلفة، وهذا يجعل بيان بعض التطبيقات في مثل هذه الدراسة أمر له أهميته، لذلك رأىٰ الباحث أن يطبق في بعض المضامين التي استنبطها من غزوة الفتح المباركة، ويأمل أن يفيد من ذلك مَنْ تتاح له فرصة الاطلاع علىٰ هذه الدراسة والدراسات المشابهة لها، وهذه التطبيقات ستكون ضمن هذا الفصل، حيث سيتضمن بيان دور كل من الأسرة والمدرسة في تربية الناشئة علىٰ المضامين التالية: (التوحيد، والولاء والبراء، والصدق، والوفاء بالعهد، وحفظ النفس، والتخطيط)، وسيكون البدء بالمضامين العقدية بصفتها أولىٰ وأهم المضامين التي يجب تربية النشء عليها، فإلىٰ ذلك وبالله التوفيق.

المبحث الأول

التطبيقات التربوية في المضامين العقدية

المستنبطة من فتح مكة المكرمة

مما لا شك فيه أن التربية علىٰ العقيدة الصحيحة أعظم وأهم من التربية في أي جانب آخر؛ لأن فلاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة مبني علىٰ صحة المعتقد، ومهما فعل الإنسان من أفعال الخير والبر فإنها لا تغني عنه شيئاً في حال غياب العقيدة السليمة أو فسادها، لذلك فإن الواجب علىٰ كل مرب أن يبدأ بتربية النشء علىٰ العقيدة الصحيحة، وتعاهدها لتصحيح ما قد يطرأ عليها من انحراف أو فساد. لذلك فقد رأىٰ الباحث أن يورد عدداً من التطبيقات التربوية في المضمونين العقديين اللذين استنبطهما من الغزوة، مبيناً دور كل من الأسرة المدرسة في تربية النشء عليهما، وذلك خلال المطلبين التاليين:

المطلب الأول: التطبيقات التربوية في مضمون التوحيد:

إذا كانت التربية علىٰ العقيدة في عمومها أمر في غاية الأهمية، فإن أهم أمر عقدي تجب التربية عليه هو التوحيد، حيث أنه دعوة جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهو الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها، لذلك كانت التربية عليه مقدمة في التربية علىٰ أي جانب آخر، فالله تعالىٰ لا يقبل من العبد عملاً خالطه الشرك، ولا يغفر لصاحبه إن مات علىٰ ذلك، بينما يغفر للموحد ويدخله الجنة إذا مات علىٰ التوحيد، يقول الرسول ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٥٢، ص٣٣). لذلك فإن أعظم واجب علىٰ كل من يباشر أمر التربية أن يربي الناشئة علىٰ التوحيد، وسيورد الباحث خلال الصفحات التالية بعض أمور يرىٰ أنها قد تعين الأسرة والمدرسة علىٰ القيام بهذا الواجب حيث أنهما أول وأهم مؤسستين معنيتين بأمر التربية.

أولاً: دور الأسرة في تربية الناشئة على تطبيق التوحيد:

للأسرة دور كبير في التربية، حيث أنها المحضن الأول الذي يعيش فيه الطفل سنين عمره الأولىٰ، والتي يكون فيها الطفل مستعداً لتعلم الكثير مما يراه ويسمعه، لذلك فإنه يجب على الأسرة مراعاة هذا الأمر، والحرص علىٰ تعليم أبنائها وتنشئتهم تنشئة صالحة، قائمة علىٰ منهج سليم مستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته، وسيرة خلفائه الراشدين وسلف الأمة الصالح.

وخير ما يربىٰ عليه الأبناء توحيد الله عز وجل، إذ به تحصل السعادة في الدنيا والآخرة، وللأسرة دور بارز في ذلك يمكن توضحيه من خلال ما يلي:

١ـ تعاهد الفطرة وتنميتها:

لقد خلق الله سبحانه وتعالىٰ الخلق لغاية عظيمة، إنها عبادته وحده لا شريك له، يقول الله تعالىٰ: (ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ) [سورة الذاريات: ٥٦]، «هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٨١٣). ولما كانت هذه هي الغاية التي خُلِق الخلق من أجلها، و كان لابد من القيام بها، فقد هيأ الله للعباد من الأمور ما يعينهم علىٰ تحقيقها، ومن ذلك أنه فطرهم علىٰ التوحيد قبل أن يوجدوا، وأخذ عليهم العهد وأشهدهم علىٰ أنفسهم بأنه ربهم فأقروا بذلك، يقول تعالىٰ: ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ) [سورة الأعراف: ١٧٢]. «يخبر تعالىٰ أنه استخرج بني آدم من أصلابهم، شاهدين علىٰ أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالىٰ فطرهم علىٰ ذلك وجبلهم عليه» (ابن كثير، ١٤٢١هـ، ص٥٤١). ويؤكد ذلك ما رواه عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتهم مما علمني، يومي هذا، كل مال نَحَلْتُهُ عبداً، حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٨٦٥، ص٧٢٤).

النصوص السابقة تدل علىٰ أن الله تعالىٰ فطر الناس علىٰ التوحيد، وإنما الشرك طارئ إما بسبب الشياطين، وإما بسبب البيئة التي يعيش فيها الناس، يقول النبي ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة، هل ترىٰ فيها جدعاء» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ١٣٨٥، ص١٨٦).

«والمعنىٰ أن كل أحد لو ترك من وقت ولادته وما يؤديه إليه نظره لأداه إلىٰ الدين الحق وهو التوحيد» (ابن حجر، ١٣٧٩هـ، ج١٠، ص٣٣٩).

كما يبيِّن الحديث أثر الوالدين علىٰ الناشئ، وذلك لأنه يعيش معهم من يوم ولادته وشطراً كبيراً من حياته، وخصوصاً سنواته الأولىٰ، فهو يتأثر بهما تأثراً كبيراً، لذلك فقد علم الإسلام الأسرة كيف تتعامل مع أولادها منذ الولادة، حيث كان أول ما يستقبل به الطفل الجديد كلمة التوحيد، حيث يُؤَذَن في أذنه اليمنىٰ، ويُقَام في أذنه اليسرىٰ، وقد فعل النبي ﷺ ذلك، وحث عليه، فعن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ أذّن في أذن الحسن بن علي رضي الله عنه بالصلاة حين ولدته فاطمة رضي الله عنها» (البيهقي، ١٤١٤هـ، ج٩، حديث رقم ١٩٠٨٦، ص٣٠٥). وعن الحسن بن علي عن النبي ﷺ قال: «من وُلِد له مولود فأذن في أذنه اليمنىٰ، وأقام في اليسرىٰ، لم تضره أم الصبيان وأم الصبيان هي التابعة من الجن» (العظيم أبادي، ١٤١٥هـ، ج١٤، حديث رقم ٥١٠٥، ص٧).

«وسر التأذين، والله أعلم:

أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان، كلماته المتضمنة لكبرياء الرب، وعظمته والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند

دخوله الدنيا، كما يلقن التوحيد عند خروجه منها ...

وفيه معنىٰ آخر وهو: أن تكون دعوته إلىٰ الله، وإلىٰ دينه الإسلام، وإلىٰ عبادته سابقة علىٰ دعوة الشيطان، كما كانت فطرة الله التي فُطِر عليها؛ سابقة علىٰ تغيير الشيطان لها، ونقله عنها» (ابن القيم، "د . ت"، ص٢١، ٢٢).

هذا عند ولادة الطفل، ثم تستمر الأسرة في تنمية الفطرة وتهذيبها، فكلما كبر الطفل ربطته بالله سبحانه وتعالىٰ من خلال ما يسمع ويشاهد، ومن خلال نعم الله التي أنعم بها عليه في نفسه وفيما حوله، حيث سخر له ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وحين ينمىٰ عند الطفل هذا الحس يشعر بعظمة الله وفضله وكرمه ومنته عليه، ويعلم أنه الإله الحق المستحق للعبادة، فيعبده بدافع الحب والخشية، ويراقبه في كل عمل يقوم به، فإذا فعلت الأسرة ذلك ساهمت في بقاء فطرة أولادها صحيحة سليمة وفق ما أراد الله تعالىٰ. وهي بذلك تسير وفق منهج الله الذي رسمه لها، وسار عليه الأنبياء والرسل عليهم السلام والصالحون من بعدهم. ولقد ذكر الله لنا شيئاً من ذلك في كتابه الكريم حيث قال سبحانه: (ۇ ۆ ۈ ۉ ۊ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ٻ ٻ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [سورة البقرة: ١٣٣]. فهذا نبي الله يعقوب عليه السلام يقول: «لبنيه علىٰ وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: (ۉ ۉ ې ې)؟ فأجابوه بما قرت به عينه، فقالوا: (ٻ □ □ □ □ □ □ □ □ □) فلا نشرك به شيئاً ولا نعدل به أحداً، (□ □ □) فجمعوا بين التوحيد والعمل» (السعدي، ١٤٢٤ه، ص٦٧). وهكذا كان عليه السلام حريصاً علىٰ أن يبقىٰ بنيه علىٰ التوحيد بعد مماته كما كانوا في حياته. وهذا واجب علىٰ كل والد نحو ولده بحيث يبقىٰ متعهداً لفطرهم التي فطرهم الله عليها كلما سنحت له الفرصة، ناصحاً وموجهاً، ومصححاً لما قد يطرأ عليها من تغيير.

٢ ـ ترسيخ التوحيد والإيمان واليقين في نفوس الناشئة:

«وذلك عن طريق التأمل والتفكير في خلق السموات والأرض، وذلك في سن الإدراك والتمييز، ويحسن أن يتدرجوا معهم من المحسوس إلىٰ المعقول، ومن الجزئي إلىٰ الكلي ومن البسيط إلىٰ المركب.. حتىٰ يصلوا معهم في نهاية الشوط إلىٰ قضية الإيمان عن اقتناع وحجة وبرهان ...، وحين يأخذ الولد منذ الصغر القضايا الإيمانية الثابتة... وتنصب في ذهنه وفكره الأدلة التوحيدية الراسخة ... فلا تستطيع معاول الهدم أن تنال في قلبه العامر، ولا يمكن لدعاة السوء أن يؤثروا علىٰ عقله الناضج، ولا يقدر إنسان أن يزعزع نفسيته المؤمنة .. لما وصل إليه من إيمان ثابت، ويقين راسخ وقناعة كاملة» (علوان، ١٤٢٨هـ، ج١، ص١٢٣).

وأسلوب التدرج هو أسلوب القرآن الكريم، حيث يتدرج من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، ومن البسيط إلىٰ المركب، والآيات المتضمنة لذلك كثيرة جداً مثل قوله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ) [سورة البقرة: ١٦٤]. في هذه الآية «أخبر تعالىٰ أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي أدلة علىٰ وحدانية الباري،

وإلهيته، وعظيم سلطانه، ورحمته، وسائر صفاته، ولكنها (لقوم يعقلون) أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له» (السعدي، ١٤٢٤هـ، ص٧٨).

لذلك فإن تبصير الناشئة وتوجيههم للتأمل في آيات الله في الكون وفي النفس أمر هام يساعد علىٰ ترسيخ التوحيد وتثبيته في النفوس، والتدرج معهم في ذلك أمر مطلوب.

وهذا الأسلوب في التدرج وحده لا يكفي بل «لابد أن يقترن معه تفعيل واقعي من قبل الوالدين والمربين يكون بمثابة تعريف بالتوحيد والإيمان الحقيقي وفق تصور محسوس يراه الولد فيمن حوله ويعايشه من خلال التزام الوالدين والمربين بسلامة الاعتقاد وصحته، وتطبيق أحكام الدين وشعائره، وبهذا يتم ترسيخ العقيدة الصحيحة وإظهار معانيها ومتطلباتها، حتىٰ إذا عرفها الولد وعايشها وأدركها – حسب قدرته – أنكر غيرها من العقائد» (الزيلعي، ١٤٢٥هـ، ص١٩٠).

٣- غرس روح الخشوع والتقوىٰ والعبودية لله رب العالمين في نفوس الأولاد:

وذلك بتفتيح بصائرهم علىٰ القدرة المعجزة، والملكوت الهائل الكبير في كل شيء ... في الدقيق والكبير ... في الجامد والحي ... في النبتة النابتة والشجرة النامية... في الزهرة الفواحة البديعة الألوان... في ملايين الملايين من الخلائق العجيبة الصنع، البديعة التكوين ... فما يملك القلب إزاء ذلك إلا أن يخشع ويهتز لعظمة الله، و ما تملك النفس تجاه هذا إلا أن تحس بتقوىٰ الله ومراقبته، وأن تشعر بكليتها وقرارة وجدانها بلذة الطاعة وحلاوة العبادة لله رب العالمين» (علوان، ١٢٤٨هـ، ج١، ص١٢٤).

إن تربية الأولاد علىٰ هذه المعاني العظمية من خلال القدوة يكون له أكبر الأثر في نفوسهم، فهم حين يسمعون ويشاهدون والديهم يتلون القرآن بخشوع وتدبر وتؤثر فيهم آياته تأثيراً يظهر علىٰ سلوكهم، وحين يقيمون صلواتهم بخشوع أمام ناظري أبنائهم، وحين يتقربون إلىٰ الله بالصدقات وغيرها من القربات بطريقة تشعر الأولاد بأنهم إنما يفعلون ذلك طلباً لمرضاة الله، ورغبة فيما عنده من الأجر، كل ذلك سيترك أثراً طيباً في نفوسهم، ويجعلهم يحاكون آباءهم في ذلك، وأعظم من ذلك أن يقوم الطفل بممارسة هذه الأعمال بنفسه ويشجع علىٰ ذلك من الوالدين، إن ذلك يعمق محبة الله سبحانه وتعالىٰ في نفسه، ويجعله أكثر طاعة له، وتقرباً إليه، ويزيد من إيمانه به وتوكله عليه.

٤- تربيهم علىٰ مراقبة الله سبحانه وتعالىٰ في كل تصرفاتهم وأحوالهم:

«وذلك لا يكون إلا بترويض الولد عليها وهو يعمل، وترويضه عليها وهو يفكر، وترويضه عليها وهو يحس:

أما ترويضه علىٰ مراقبة الله سبحانه وتعالىٰ وهو يعمل ... فليتعلَّم الإخلاص لله رب العالمين في كل أقواله وأعماله وسائر تصرفاته، ولكي يقصد وجه الله سبحانه في كل عمل يسبقه نية، وعندئذ يتحقق بالعبودية الخالصة لله تعالىٰ، ويكون ممن شملهم القرآن بقوله: (ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ...) [سورة البينة:٥].

وأما ترويضه علىٰ مراقبة الله وهو يفكر ... فليتعلَّم الأفكار التي تقربه من خالقه

العظيم... والتي بها ينفع نفسه، وينفع مجتمعه، وينفع الناس أجمعين.
وأما ترويضه علىٰ مراقبة الله وهو يحس ... فليتعلَّم كل إحساس نظيف، وليتربّىٰ علىٰ كل شعور طاهر... فلا يحسد، ولا يحقد، ولا ينم، ولا يتمتع المتاع الدّنِس، ولا يشتهي الشهوات الباطلة ... وهذا النمط من التربية والمراقبة وجَّه إليه المربي الأول عليه الصلاة والسلام في إجابته السائل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٠، ص١٤)» (علوان، ١٤٢٨هـ، ج١، ص١٢٦، ١٢٧).
ودور المربي في هذه المرحلة أن يربي في أولاده هذه المعاني، بحيث يشعرهم بأن الله تعالىٰ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً، لقول الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ١، ص٥)، ولقوله عليه السلام: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٧١٨، ص٤٤٨).
كما أن عليه أن يربيهم علىٰ محاسبة النفس علىٰ الأفكار السيئة، والأحاسيس التي تمليها عليهم النفس الأمارة بالسوء، بحيث يتذكر الولد دائماً أن الله يسمعه ويراه ويعلم ما توسوس به نفسه، وإن كان سبحانه لا يؤاخذ الإنسان علىٰ حديث النفس، ولكن ما تُحَدِّث به النفس قد يتحول إلىٰ سلوك ممارس يضرُّ به المرء نفسه وغيره، فتربية الأبناء علىٰ مراقبة الله ومحاسبة النفس يجعلهم أكثر خشية لله وطاعة وإخباتاً، وقد كان هذا دأب سلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، فعن سهل بن سعد: «أن فتىٰ من الأنصار دخلته خشية من النار، فكان يبكي عند ذكر النار، حتىٰ حبسه ذلك في البيت، فَذُكر ذلك للنبي ﷺ، فجاءه في البيت، فلما دخل عليه اعتنقه الفتىٰ، وخرَّ ميتاً، فقال النبي ﷺ: «جهزوا صاحبكم؛ فإن الفَرَق فلذ كبده» رواه (الحاكم، ١٤١١هـ، ج٢، حديث رقم ٣٨٢٨، ص٥٣٦).

٥- حماية الناشئة من الانحراف العقدي:

فدور الأسرة لا يقتصر علىٰ بناء التوحيد وتنميته في نفوس أبنائها، بل لابد أن تقوم بدور وقائي تحمي به عقيدة أبنائها من أي فكر مضلل دخيل، وهي كثيرة وخاصة في زمن الانفجار المعرفي، واستخدام التقنيات علىٰ نطاق واسع، والبث الفضائي اللامحدود، كل ذلك يجعل مسؤولية الأسرة عظيمة في مواجهة تلك المعتقدات والأفكار الدخيلة التي تتصادم مع عقائدهم، وتشككهم في ثوابت دينهم، ويمكن للأسرة القيام بذلك من خلال ما يلي:
١- «تأصيل التوحيد: ولا يكون ذلك إلا بالتأصيل العلمي الشرعي في النفوس لغرس التوحيد أولاً، ولتكوين الهوية الإسلامية ثانياً، عن طريق تنمية الثقافة والمعارف بمجالسة العلماء وتكثيف العلوم المعينة علىٰ رد الشبهات والأباطيل للمحافظة علىٰ العقيدة الإسلامية» (الزيلعي، ١٤٢٥هـ، ص١٩٩).
٢- «بيان المخططات والحملات المعادية للإسلام مثل: اليهودية والنصرانية والماسونية والعلمانية وغيرها والتي تسعىٰ إلىٰ نزع الإسلام بكل صوره، والتي لها الأثر البالغ علىٰ العقائد والأخلاق، والأسرة وهي توضح ذلك لأولادها فإنها تسهم في

حياتهم من الانحراف العقدي والأخلاقي» (المالكي، ١٤٢٣هـ، ص٦٩).

٣- الوقوف ضد الأفكار المعادية للتوحيد: وذلك من خلال إيضاح هذه الأفكار وبيان فسادها ، وعدم صحتها، وهذه الأفكار إنما تتسرب عن طريق بعض الوسائل المسموعة أو المرئية أو المقروءة، وعلىٰ الأسرة إيجاد البديل المناسب لهذه الوسائل وتوفيرها داخل المنزل لسماعها ومشاهدتها بين وقت وآخر. (المالكي، ١٤٢٣هـ، ص٦٩).

وهذه الوسائل البديلة متوفرة – بحمد الله – منها الشريط الإسلامي، والكتاب، والقصص الصادقة الهادفة، والقنوات الفضائية الإسلامية، والمواقع الإلكترونية التي تعنىٰ بالدفاع عن الإسلام وترد علىٰ الشبهات التي تثار حوله بطريقه مقنعة تقوم علىٰ الحجة والبرهان الصحيح، وتعرضه للناس عرضاً صحيحاً يبين محاسنه ومزاياه، وأنه دين صالح لكل زمان ومكان.

ودور الأسرة هو توفير هذه البدائل والاستغناء بها عن غيرها، فإذا قامت الأسرة بذلك فقد أسهمت في حماية عقيدة أبنائها وحافظت عليها من كل معتقد باطل أو فكر دخيل منحرف، ويبقىٰ دور المؤسسات التربوية الأخرىٰ لتكمل ما بدأته الأسرة، ومن أهم هذه المؤسسات المدرسة، التي يقضي فيها الأولاد سنوات عمرهم الأولىٰ والممتدة من دخول الولد المرحلة الابتدائية وحتىٰ نهاية المرحلة الجامعية، وهي فترة طويلة وخطيرة؛ لأنها الفترة التي تتشكل فيها شخصية الناشئ واتجاهاته وميوله... لذا كانت مسؤولية المدرسة عظيمة ودورها خطير في تربية الناشئة عقدياً، وأخلاقياً، واجتماعياً، ومهنياً، وفي كل جوانب حياتهم.

وإذا كان دور المدرسة بهذه الخطورة، فما هي الخطوات التي تتبعها المدرسة للقيام بهذا الدور؟

هذا ما يود الباحث بيانه فيما يلي، من خلال بيان دور المدرسة في تربية الناشئة علىٰ تطبيق التوحيد، وترسيخ مفاهيمه في نفوسهم، والحفاظ عليه مما قد يفسده.

ثانياً: دور المدرسة في تربية الناشئة على تطبيق التوحيد:

من المعلوم أن الطفل ينتقل من البيت إلىٰ المدرسة وقد تكونت لديه فكرة مبسطة عن بعض قضايا التوحيد، مثل أن يعرف أن ربه هو الله، ودينه الإسلام، ونبيه محمد ، وقد يعرف بعض الأمور عن اليوم الآخر، ولكنها معلومات سطحية بسيطة ينقصها العمق والوضوح والتفصيل، وهنا يأتي دور المدرسة لزيادة معرفة الولد بقضايا التوحيد، وإيضاحها، وتفصيلها، وبيان ما يضادها وذلك من خلال الخطوات التالية:

١- زيادة وعي الطلاب بعقيدتهم وإيضاحها وتفصيلها، واستكمال جوانب النقص فيها:

وذلك لأن ما عرفوه من أمور العقائد لا يعد إلا شيئاً يسيراً مما ينبغي معرفته في قضايا يقوم عليه صلاح دين المرء أو فساده، وهم بحاجة إلىٰ استكمال ما ينقصهم من معارف في هذا الجانب، وإيضاح وتفصيل وتبسيط ما يحتاج إلىٰ ذلك مما عرفوه

من أسرهم وممن خالطوه قبل سن المدرسة، ولا يمكن التعرف علىٰ جوانب الضعف والقصور في عقائد الطلاب إلا من خلال ما يلي:

أ- «بطريقة مباشرة من خلال سؤال الطلاب أنفسهم، وذلك بعرض مثل تلك الموضوعات عليهم في صورة استفتاء مبسط يحددون فيه ما هم بحاجة له من موضوعات ومسائل خاصة بالعقيدة، أو طرح تلك الموضوعات أثناء المناقشة، والتي يتبين من خلالها مدىٰ حصيلتهم في تلك الموضوعات.

ب- بطريقة غير مباشرة من خلال الأسئلة التي يوجهونها إلىٰ آبائهم ومعلميهم، وإلىٰ بعضهم البعض، ومعرفة المسائل والمشكلات التي تدور حولها دراستها معهم» (الزيلعي، ١٤٢٥هـ، ص٢٠٢).

أما كيف تستكمل تلك القضايا والموضوعات؟ وكيف تعالج نواحي القصور فيها؟ فيكون من خلال المقررات الدراسية وما يصاحبها من أنشطة، والتي يجب أن توجه جميعها لخدمة العقيدة، وتعمل علىٰ ترسيخها في نفوس الناشئة، فكل المقررات بالإمكان جعلها تخدم هذا الجانب، وإن كانت المواد الشرعية أكثر تخصصاً، فمادة كالعلوم مثلاً، حينما يدرس فيها التلميذ شيئاً عن جسم الإنسان، أو البيئة، أو الحيوان، أو الكواكب أو غيرها، يجب لفت نظر التلميذ إلىٰ عظيم صنع الباري سبحانه، وكمال قدرته، وغيرها من المعاني التي تعمق في نفوسهم قضايا العقيدة، وتزيدهم إيماناً بربهم ووحدانية له، وكذلك من خلال المعلم الذي يستطيع تبسيط وتوضيح القضايا التي يصعب عليهم فهمها وإدراكها وبيان ما يضاد العقيدة الصحيحة، ويناقض التوحيد ويبطله.

٢- إكساب الطلاب القدرة علىٰ المناقشة والحوار والاستدلال والإقناع والاقتناع:

وذلك لأن الأبناء يأخذون عقائدهم من آبائهم بالمحاكاة والتقليد، وهم بحاجة إلىٰ دعمها وتقويتها وترسيخها من خلال الفهم والاقتناع، فعلىٰ المعلمين مناقشة الطلاب في جوانب العقيدة وتزيدوهم بالأدلة العقلية والنقلية المناسبة لمستواهم حتىٰ يعرفوا لماذا ينبغي أن يكون الإله واحد؟ ويتعرفون الكثير عن أسمائه وصفاته ودلالاتها، ولماذا أرسَل الرسل؟ وأنزَل الكتب؟ وما معنىٰ اليوم الآخر؟ وما الغاية منه ... وهكذا (الزيلعي، ١٤٢٥هـ، ص٢٠٣).

وكلما نُوقِش الطلاب في هذه القضايا نقاشاً يقوم علىٰ الدليل والبرهان والحجة البينة الواضحة، كلما أدىٰ ذلك إلىٰ رسوخ عقائدهم، واقتناعهم بها، وثباتهم عليها.

ولا بأس بإعطائهم الفرصة ليناقشوا ويحاوروا ويبدوا آراءهم في حدود ما تسمح به النقاش في مثل هذه القضايا، لأن هناك من أمور العقيدة ما لا ينبغي الخوض فيه، كمسائل القضاء والقدر، والخوض في الأسماء والصفات ، وفي ذات الله تعالىٰ، وغيرها من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها كما وردت في كتاب الله تعالىٰ وفي الصحيح من سنة رسوله ، ومع إيراد الأدلة التي تأمر بذلك وتوجبُه، حتىٰ لا تترك قضية دون بيان ووضوح، وبهذا نكسبهم القدرة علىٰ الحوار والمناقشة، وإبداء الرأي، وقبول الحق بعد وضوح الحجة والدليل، ومتىٰ كان الإيمان بقضايا العقيدة عن قناعة

ويقين ازداد الإنسان بها تمسكاً، وصَعُب التشكيك فيها والنيل منها.

٣- إزالة ما قد يقع في عقائد الطلاب من أمور تضاد العقيدة الصحيحة وتُنَاقضها:

وذلك لأنه تنتشر في بعض المجتمعات الإسلامية بعض البدع والشركيات والخرافات التي قد يتأثر بها الصغار، لأنهم رُبما لاحظوا من يكبرهم سنًا من آباء وإخوان وغيرهم من أفراد المجتمع يقعون في بعض تلك البدع أو الشركيات، أو يصدقون بعض الخرافات، والصغار يقلدون ويحاكون الكبار في كل شيء، لذلك فإنهم قد يأتون إلىٰ المدرسة وقد علق بأذهانهم شيء من تلك البدع والشركيات والخرافات، وحين يحدث ذلك فإن علىٰ المدرسة أن تعالج هذه الأخطاء العقدية المخالفة للتوحيد ببيان بطلانها، وبيان العقيدة الصحيحة في مثل هذه القضايا، والاستدلال علىٰ ذلك بالأدلة الصحيحة النقلية منها والعقلية، التي تبطل تلك الاعتقادات، وتصحح مفاهيم الطلاب حولها، ومن المفترض أن تكون المقررات الدراسية، وما يصاحبها من أنشطة متضمنة للأخطاء العقدية التي قد يقع فيها الناس، ومتضمنة أيضاً الحجج والبراهين والأدلة القوية التي تصحح تلك الأخطاء، وأن يكون المعلم قد أُعِدَّ إعداداً جيداً يؤهله لمعالجة ما قد يحصل من التلاميذ من مخالفات عقدية. كما وأنه لابد وأن تعالج هذه الأخطاء والمخالفات حال وقوعها ، متبعين في ذلك أسلوب الحجة والإقناع القائم علىٰ الدليل المقنع الواضح. ولا يكفي في ذلك الأمر أو النهي؛ لأن ذلك قد يبقي في ذهن الطالب تساؤلاً يحتاج إلىٰ جواب، أو أمراً يحتاج إلىٰ توضيح، أو قضية مبهمة تحتاج إلىٰ تفسير.

٤- التصدي لكل ما يصادم عقائد الطلاب من نظم اجتماعية فاسدة وفلسفات إلحادية ودعوات مضَلِلة:

في بعض المجتمعات البشرية وعلىٰ مر العصور تظهر نظم اجتماعية جديدة من صنع البشر، بعض تلك النظم مخالف لما جاء به الإسلام في النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، كالشيوعية، والرأسمالية، بمبادئها الباطلة، حيث دعت الشيوعية إلىٰ تحرير العمال، وتوجيه الاقتصاد، ومنع الحرية الفردية، وجعل كل شيء مشاع بين الناس، بينما أطلقت الرأسمالية الحرية الفردية، وسمحت للفرد بامتلاك ما يشاء، وبكل الطرق والسبل المتاحة، سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة، ودعت إلى التحرر والانفلات تحت ما يسمّىٰ بالديمقراطية والحرية الشخصية.

ثم جاء الإسلام ليقف من ذلك موقفاً وسطاً، حيث نظم الملكية الفردية والملكيات العامة، وكفل حرية الإنسان، وضمن له حقوقه، وألزمه بواجباته، كل ذلك يسير وفق شرع الله تعالىٰ الذي أنزله علىٰ رسوله ﷺ.

كما تظهر بين حين وآخر دعوات باطلة مضللة كالعلمانية التي ترىٰ فصل الدين عن الدولة، وإقصاءه عن جميع نواحي الحياة، وحصره في شعائر تعبدية تتم في المساجد أو البيوت، وكدعوىٰ تحرير المرأة، والتي يراد منها خروج المرأة وسفورها، واختلاطها بالرجال ومشاركتها لهم في ميادين العمل، بعيداً عن كل قيود تقيدها بها الأديان – كما يزعمون – دون مراعاة لطبيعتها وخصائصها التي خصها الله بها.

وكدعوات المبشرين وغيرهم من الذين يريدون دعوة أبناء المسلمين إلىٰ أديانهم، وإبعادهم عن دينهم، وإقناعهم بأن تلك الأديان أقدر علىٰ قيادة البشرية والنهوض بها، وتزعم أن الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام وكتابه مصدر العنف والإرهاب، وأنه لم يقم إلىٰ علىٰ ذلك، متبعين في ذلك كل وسيلة توصلهم إلىٰ هدفهم، وما الحملة الأخيرة علىٰ نبينا من الدنمارك وغيرها إلا شيء من ذلك.

كل تلك النظم الفاسدة والآراء والأفكار تقف وراءها فلسفات إلحادية كالفلسفة الوجودية التي من أبرز مبادئها «أن الإنسان هو المشكلة الكبرىٰ في هذا الوجود ... وأن حياته مجرد مشروع يزداد تحققاً كل لحظة، وأن الحياة عبث والوجود عارض» (نور الدين، ١٤١٩هـ، ص٢٤١، ٢٤٨)، وكالفلسفة المادية التي ترىٰ أن الحياة مادة، وتبالغ في اتجاهها المادي، وتنكر وجود الإله، وتعادي الأديان وأهلها، بل وتضطهدهم وتعذبهم وتقتلهم، والفلسفة الطبيعية التي ترىٰ أن الطبيعة هي التي تسير هذا الكون بمن فيه وما فيه، ولا دخل لغير الطبيعة في شيء من ذلك، إلىٰ غير ذلك من الفلسفات الإلحادية المنتشرة في أصقاع الأرض، داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها.

كل ذلك يحتم علىٰ المدرسة أن تتصدىٰ لتلك النظم والفلسفات الإلحادية، والدعوات الباطلة المضللة من خلال ما يلي:

أ- أن تتضمن المقررات الدراسية المعنية بمثل هذه القضايا، كمادة التوحيد والعقيدة، ومواد الثقافة الإسلامية عرضاً لتلك القضايا، يختلف باختلاف المرحلة، فيعرض مبسطاً في مرحلة كالمتوسطة، وأكثر تفصيلاً في مرحلة كالثانوية، ثم عرضاً مفصلاً تفصيلاً كاملاً في المرحلة الجامعية، مع إيراد ردود واضحة ومفصلة وشافية عن كل قضية تطرح، تدعم تلك الردود بالأدلة النقلية والعقلية التي تظهر بطلان تلك الفلسفات والعقائد والنظم الفاسدة، وتدحض كل الشُّبَهِ التي تثار حول الإسلام ونبيِّه وكتابه.

ب- لابد أن يكون للطالب دور فاعل في البحث والمناقشة وإبداء الرأي، ولكي يكون له ذلك الدور فإنه ينبغي طرح هذه القضايا علىٰ الطلاب ليقوموا ببحثها ودراستها، وخصوصاً في المرحلة الجامعية، ثم تعرض بحوثهم وتناقش لمعرفة ما توصلوا إليه من نتائج، وإثبات الصحيح منها والتأكيد عليه، وتصويب الخطأ، وإزالة اللبس والغموض فيما قد يشكل عليهم خلال بحثهم ودراستهم.

ج- تدريب الطلاب خلال ذلك علىٰ الحوار الهادي والهادف، القائم علىٰ المجادلة بالحسنىٰ، والمدعم بالأدلة الصحيحة الواضحة المقنعة التي ترد حجج الخصوم، وتؤدي إلىٰ اقتناع الطلاب في عقيدتهم، واعتزازهم بدينهم بعد بحث ودراسة وتبصر.

د- بيان موقف الإسلام من قضايا المجتمع المعاصرة، بطريقة مفصلة واضحة تظهر تناوله لها من جميع جوانبها، ومعالجتها بشكل يحفظ كرامة الإنسان، ويعطيه حقوقه، ويحقق له العدل والمساواة، ويجلب له المصلحة، ويدفع عنه المضرة، ويحقق له سعادة الدارين.

هـ- بيان ما يتميز به الإسلام عن غيره من الديانات كاليهودية والنصرانية

المحرفة، من حيث نظرته إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وإلىٰ الإنسان والكون والحياة، وما يتميز به عن النظم والقوانين الوضعية، من حيث مراعاته لحاجات البشر وخصائصهم وقدراتهم وطاقاتهم، ومعرفته بما يصلح به حالهم في الدنيا والآخرة، ولا بأس بتعريفهم ببعض ما تضمنته الشرائع الأخرىٰ قبل الإسلام من تشريعات، وما طرأ عليها من تحريف وتغيير حتىٰ تكون المقارنة بينها - بوضعها الحالي - وبين الإسلام مقارنة تُظهر بطلانها وفسادها بعد تحريفها وتبديلها(١).

و- أن تنمي المدرسة وباستمرار معارف ومعلومات الطلاب حول قضايا العقيدة وما يضادها، وأي قضايا جديدة تظهر علىٰ الساحة؛ لأنه لم يعد في مقدور أحد حجب هذه الأمور عنهم بعد تطور وسائل الاتصال لحد أصبح فيه العالم قرية صغيرة تنتقل الأخبار والثقافات والأفكار خلالها في ثوان معدودة، بل لابد من مناقشة كل جديد بكل صراحة ووضوح وشفافية تبين من خلالها الصحيح من السقيم من تلك القضايا والثقافات والمعتقدات.

ز- تدريب الطلاب علىٰ الدعوة إلىٰ الإسلام: (الزيلعي، ١٤٢٥هـ، ص٣٠٧):

لأن الدعوة إلىٰ الإسلام واجبة بقدر الطاقة، لقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٣٤٦١هـ، ص٧٤٣)، ولكي يستطيع الطالب القيام بهذا الدور فإنه لابد أن يكون قد أُعِدَّ إعداداً جيداً من خلال قيام المدرسة بدورها في هذا الجانب، ومن خلال دورات مكثفة للطلاب المبتعثين للدراسة في دول غير إسلامية، وتزويدهم ببعض الكتب التي تبين الشبهات التي تثار حول الإسلام، وكيفية الرد عليها، وتبين ما ينبغي أن يكون عليه الشاب المسلم في تلك البلدان في أخلاقه وتعامله، فإنه قد يكون داعية بأفعاله قبل أقواله حين يمثل الإسلام تمثيلاً صحيحاً، وما استطاع أعداء الإسلام النيل منه إلا من خلال أخلاق بعض أهله وتعاملاتهم وتطبيقهم الخاطئ لمبادئه. وفي البلدان الإسلامية التي يعيش فيها المسلم مع غير المسلم يجب تبصير المسلم بكيفية التعامل مع غير المسلمين من أهل بلده أو ممن يَفِدُ إليه، وتزويده ببعض الوسائل الدعوية التي تعينه علىٰ دعوة غيره إلىٰ الإسلام بالأسلوب الجيد المقنع القائم علىٰ المجادلة بالتي هي أحسن.

ح- العناية بسيرة النبي ﷺ قراءة وتدبراً وفهماً، لما حوته من أحداث تبين مواقف النبي ﷺ الدعوية، وصبره علىٰ أذىٰ الناس في سبيل ذلك، وتعامله معهم بالحسنىٰ، وكيف كانت عنايته بقضية التوحيد منذ بداية أمر دعوته إلىٰ منتهاها، وكذلك كانت دعوة الأنبياء جميعاً. إن قراءة متأنية لسيرة أنبياء الله ورسله عليهم السلام وسير الصالحين، ستبين للناشئة أهمية التوحيد الذي هو رأس الدين وأساسه، وتجعلهم أكثر تطبيقاً له، وثباتاً عليه، وهذا أهم ما تهدف إليه التربية الإسلامية، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال دور تكاملي تقوم به كل مؤسسات التربية في المجتمع وفي مقدمتها الأسرة

---

(١) النقاط (ج، د، هـ) مستفادة من دراسة (الزيلعي، ١٤٢٥هـ، ص٢٠٨ - ٢٠٩) بعد التنسيق، والإضافة أو الحذف حسب ما رآه الباحث مناسباً.

والمدرسة.

المطلب الثاني: التطبيقات التربوية في الولاء والبراء:

الولاء والبراء قضية ثابتة في الإسلام، وركن من أركان العقيدة، وشرط لاستكمال الإيمان، يقول الرسول ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان» (أبو داود، (د. ت)، ج٤، حديث رقم ٤٦٨١، ص٢٢٠). ومع أهمية هذه العقيدة، إلا أن بعض المسلمين – هداهم الله – فرط فيها، ولم تعد تعني له شيئاً، فتُراه يمجد الكافرين ويحبهم، ويتشبه بهم في كثير من أمورهم، وربما صاحب ذلك بغض لبعض أمور الدين ولمن يعتقدها ويدعو إليها، وهذا ولا شك انحراف عن العقيدة السليمة، ومجانبة لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في قضية الولاء والبراء، وسبب ذلك هو قصور التربية في هذا الجانب، لذلك فإنه يجب علىٰ المؤسسات التربوية في المجتمع المسلم العناية بأمر العقيدة عامة وأمر قضية الولاء والبراء خاصة لأهميتها، ولأنه يترتب عليها سلامة دين المسلم، وصلاح أمره في الدنيا، ونجاته في الآخرة، ومن أهم المؤسسات التربوية التي ينبغي أن تعنىٰ بهذا الأمر الأسرة والمدرسة، فهما المؤسستان اللتان تحتضنان الناشئ في أهم مراحل نموه، لذلك فإن دورهما هام وخطير، وسيحاول الباحث خلال الصفحات التالية عرض بعض الخطوات التي يرىٰ أنها قد تعين المؤسستين علىٰ القيام بدورهما في هذا الجانب:

أولاً: دور الأسرة المسلمة في تربية أبنائها على عقيدة الولاء والبراء:

للأسرة دور هام في التربية عموماً، فالولد يقضي مع أسرته أكثر أوقاته، وخصوصاً في مرحلتي الطفولة والمراهقة، وخلالهما يتأثر تأثراً كبيراً بأسرته، في معتقداتها وأخلاقها، وتعاملاتها، وسائر أمورها، لذلك فإنه يجب علىٰ الأسرة مراعاة هذا الأمر والقيام بواجبها في تربية أبنائها علىٰ أكمل وجه، وأهم أمر يجب العناية به أمر العقيدة ومنها قضية الولاء والبراء، ولكي تحقق الأسرة ذلك فإن عليها اتباع بعض الخطوات ومنها:

١- تربية الأبناء علىٰ العقيدة الصحيحة الخالية من البدع والانحرافات:

ويكون ذلك بـ «ربط الولد منذ تَعَقُّلِه بأصول الإيمان، وتعويده منذ تَفَهُّمِه أركان الإسلام، وتعليمه من حين تمييزه مبادئ الشريعة الغراء... ، حتىٰ يرتبط بالإسلام عقيدة وعبادة، ويتصل به منهاجاً ونظاماً، فلا يعرف بعد هذا التوجيه والتربية سوىٰ الإسلام ديناً، وسوىٰ القرآن إماماً، وسوىٰ الرسول ﷺ قائداً وقدوة» (علوان، ١٤٢٨هـ، ج١، ص١١٧)، وخلال ذلك تربي الأسرة في أبنائها عقيدة الولاء والبراء بحيث تُحَبِبُهم في الله تعالىٰ، ودينه، ورسوله ﷺ، وفي كل مسلم يدين بدينهم ويعتقد عقيدتهم بِغَض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو بلده، وتُبَغِّضُهم في الكفر وأهله مهما كانت قرابتهم.

٢- تدريبهم علىٰ أداء العبادات وأمرهم بها إذا بلغوا سن السابعة، وخاصة الصلاة، لقول النبي ﷺ: «علموا الصبي الصلاة ابن سبع [سنين]، واضربوه عليها ابن عشر»

(الترمذي، ١٣٩٧هـ، ج٢، حديث رقم ٤٠٧، ص٢٥٩). ولا بأس بترويضهم علىٰ عبادات أخرىٰ كالصوم إذا كان الطفل يطيقه والحج وغيرها، لأن هذا مما يرسخ فيهم عقيدة الولاء والبراء، ففي الصلاة مع جماعة المسلمين شعور بالرابطة القوية التي تربط المسلمين ببعضهم، وتجمعهم ليؤدوا هذه الشعيرة معاً في وقت واحد، وفي مكان واحد (المسجد)، ويشعر بمثل ذلك وأكثر حين يرىٰ جموع الحجيج يجتمعون في بلد الله الحرام تربطهم نفس الرابطة، إنها رابطة الدين التي ألفت بين قلوبهم، وجعلتهم إخواناً متحابين في ذات الله تعالىٰ، وفي المقابل يرىٰ فيمن لا يحرص علىٰ أداء شعائر الإسلام مخالفة لإخوانه المسلمين وبعداً عنهم، لذا فهو ينفر من فعله ويبرأ منه ويبغضه، وهذا تحقيق لمعنىٰ الولاء والبراء.

٣- «تأديبهم علىٰ حب الرسول ، وحب آل بيته، وتلاوة القرآن. (علوان، ١٤٢٨هـ، ج١، ص١١٩). وذلك لأن أوضح مظاهر الولاء والبراء الحب في الله والبغض في الله، وأعظم الحب بعد حب الله تعالىٰ حب الرسول وآل بيته، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٤٤، ص٢٥)، وقال في حب الحسن: «اللهم إني أحبه، فأحبَّه وأحبب من يحبه» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٤٢١، ص٦٢٢).

«ويتفرع عن هذا :

تعليمهم مغازي رسول الله ، وسير الصحابة الكرام، وشخصيات القادة العظماء، والمعارك الحاسمة في التاريخ ...» (علوان، ١٤٢٨هـ، ج١، ص١١٩)، ولاشك أن حب الرسول وحب آل بتيه من الولاء، وكذلك حب المؤمنين وبغض الكافرين الذي تأمر به بعض الآيات في القرآن الكريم هو من الولاء والبراء، لذلك فإن تأديب الأولاد علىٰ ذلك يعد تربية علىٰ عقيدة الولاء والبراء وترسيخاً لها.

٤- «توعية الأبناء بأهمية الحب في الله والبغض في الله وأنها من الإيمان:

وهذا الحب للطاعات وأهلها، والبغض للمحرمات وأهلها، لابد من وجوده في قلب المسلم؛ فإنه بقدر ما يضعف الحب والبغض في القلب بقدر ما يضعف الإيمان ويضمحل ... وإذا عرف الوالدان خطورة هذه القضية، وأهمية الحب والبغض في الله وأنها من الإيمان، توجب عليهما أن يجاهدا في توعية الأبناء بهذه المسألة، وأن يركزا في نفوسهم وقلوبهم حب الخير وأهله، وبغض الشر وأهله، مستغلين كل الوسائل المشروعة في هذا المجال» (الزيلعي، ١٤٢٥هـ، ص٢٥٠)، ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً وبياناً الاستشهاد ببعض النصوص الواردة في ذلك، كقول الله تعالىٰ: (ﮔ ﮕ ں ں ڻ ڻ ڼ ڼ ۀ ۀ ہ ہ ھ ھ ه ه ے ے ۓ ۓ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۉ ۉ ۋ ۋ) [سورة المائدة: ٥٤]. وكقول الرسول : «أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله» (ابن أبي شيبة، ١٤٠٩هـ، ج٧، حديث رقم ٣٤٣٣٨، ص٨٠). وإذا قامت الأسرة بمثل هذا البيان والوضوح والتوعية زادت عقيدة الولاء والبراء ثباتاً في نفوس أبنائها.

٥- إيجاد رابطة حب قوية بين الأبناء وإخوانهم المسلمين:

وذلك من خلال تعريفهم بأحوال إخوانهم المسلمين في أنحاء المعمورة، وما

يجب عليهم نحوهم من المحبة، والنصرة، والمساعدة، والدعاء لهم في حال الكروب والفتن، ومشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم، والأسرة الواعية هي التي تستغل الأحداث لتنمية العلاقة بين أبنائها وإخوانهم المسلمين في أنحاء العالم، وتشعرهم من خلال ذلك بأن المسلمين اسرة واحدة، بل جسد واحد، كما وصفهم بذلك الرسول ﷺ حين قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكىٰ منه عضو، تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٨٦، ص٢٥٨٦).

٦- «تعميق قضية المعاداة والبراء من أعداء الله الكفار منهم والمشركين والمنافقين والمرتدين، وإنه لا يجتمع إيمان في قلب مع حب الكفر وأهله، كما قال تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ) [سورة المجادلة: ٢٢]» (القحطاني، ١٤٠٢هـ، ص٤٣٦ – ٤٣٧).

ويدخل في ذلك التحذير من التشبه بهم في العادات والتقاليد واللباس وغيره مما يقع فيه طائفة من شباب المسلمين؛ لأن «الموالاة وإن كانت متعلقة بالقلب لكن المخالفة في الظاهر أعون علىٰ مقاطعة الكافرين ومباينتهم، ومشاركتهم في الظاهر إن لم تكن ذريعة أو سبباً قريباً أو بعيداً إلىٰ نوع ما من الموالاة والمودة فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة، مع أنها تدعو إلىٰ نوع ما من المواصلة كما توجبه الطبيعة، وتدل عليه العادة» (ابن تيمية، ١٤٢١هـ، ج١، ص١٨٤).

هذه بعض الخطوات التي يمكن أن تعين الأسرة علىٰ تربية أبنائها علىٰ عقيدة الولاء والبراء، وإذا كان دور الأسرة في غاية الأهمية في هذا الأمر، فإن دور المدرسة لا يقل أهمية عنه بصفتها المؤسسة التربوية الثانية التي سينتقل إليها الطفل بعد أسرته، وسيقضي فيها مراحل عمرية هامة جداً، يكون فيها أكثر استعداداً وتقبلاً وتأثراً بما يسمع ويشاهد ويقرأ ... ، كل ذلك يحتم علىٰ المدرسة القيام بدورها في التربية علىٰ أكمل وجه، وأول وأهم جانب تجب العناية به هو جانب العقيدة ومنه الولاء والبراء، وسيورد الباحث بعض الخطوات التي يرىٰ أنها قد تعين المدرسة علىٰ القيام بدورها في هذا الجانب.

ثانياً: دور المدرسة في تربية طلابها على عقيدة الولاء والبراء:

يمكن للمدرسة أن تقوم بدورها في تربية الطلاب علىٰ عقيدة الولاء والبراء من خلال ما يلي:

١- تعريف الطلاب بضوابط الولاء والبراء وحدوده:

وذلك بتعريف الطالب بأصناف الناس في الولاء والبراء، فمن الناس من يحب جملة وهم كل من آمن بالله ورسوله، وقام بما افترض الله عليه، وانتهىٰ عما نهاه الله عنه، وأحب في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وقدم قول الله عز وجل وقول رسوله ﷺ علىٰ قول كل أحد.

ومنهم من يُحبَّ من وجه، ويُبْغَضُ من وجه، يُحَبُّ علىٰ قدر ما معه من الخير،

ويبغض ويعادي علىٰ قدر ما فيه من الشر.

ومنهم من يبغض جملة، وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، أو أشرك بالله، أو ترك ركناً من أركان الإسلام الخمسة، أو ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام، أو ألحد في أسماء الله وصفاته.

هذه أمور ينبغي أن يعلمها الطالب حتىٰ يعرف من يوالي ومن يعادي، ومن الأمور التي يجب أن يتعلمها الطلاب في مدرستهم في قضية الولاء والبراء متىٰ يوالون ومتىٰ يعادون، فالموالاة والمعاداة لا تكون إلا بعد القيام بواجب الدعوة والمناصحة، والصبر علىٰ المدعو، والترفق به، فإذا قَبِل الحق وأذعن له، وقام بفرائض الله وَالَيْنَاه، وإذا أبىٰ قبول الحق ورَفَضَه وصد عنه، وجبت معاداته، مع بقاء حقه في المناصحة والدعوة كلما سنحت الفرصة؛ فاستمرار الدعة والمناصحة أمر مطلوب، وقد كان دأب أنبياء الله ورسوله، أما الهداية فهي بيد الله تعالى ييسر لها من شاء متى شاء.

هذه أمور يجب علىٰ المدرسة تعريف طلابها بها حتىٰ تنضبط قضية الولاء والبراء:

٢- تعريف الطلاب بالأسباب التي توجب بغض الكفر والنفاق والمعاصي والبراءة من أهلها، ومن أهم تلك الأسباب ما يلي:

أ- كفرهم بالله تعالىٰ ورسوله وما جاء به من عند الله من الوحي، وهذا من أعظم الأسباب التي توجب بغض الكفر وأهله والبراءة منهم.

ب- كراهتهم وبغضهم لدين الإسلام وأهله، وإلحاق الأذىٰ بهم بالقول والفعل، ومحاربتهم بكل السبل، ومحاولة القضاء عليهم وعلىٰ دينهم.

ج- تعديهم علىٰ حدود الله، وانتهاك محارمه، وسعيهم إلىٰ الإفساد في الأرض، وإضلال الناس، وقد وصفهم الله بذلك في قوله تعالىٰ: (ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ) [سورة البقرة: ٢٠٥].

إذا عرف الطلاب الأسباب الموجبة لبغض الكافرين والمنافقين والعصاة، وبغض أعمالهم التي يحادون بها الله – عز وجل – ورسوله أدركوا أن المعاداة لا تكون إلا بعد تحقق أسبابها، فمتىٰ ما انْتَفَت تلك الأسباب، وأقلع الإنسان عن كفره ونفاقه وعصيانه، وآمن بالله ورسله عليهم السلام، وملائكته واليوم الآخر وغيرها من الأمور التي يجب الإيمان بها، وقام بفرائض الإسلام، وجبت له الموالاة والمحبة والنصرة، لذلك فإن من الواجب علىٰ المدرسة بيان مثل هذه الأمور؛ ليمارس الطلاب الولاء والبراء علىٰ وعي وبصيرة.

٣- «تنمية روح الأخوة الإسلامية في البيئة المدرسية ونبذ الخلاف»: (الزيلعي: ١٤٢٥هـ، ص٢٥٣).

وذلك بأن يشيع في المدرسة جو من التحَّاب والتآلف والتواد ونبذ الفرقة والخلاف، وليكن شعار المدرسة قول الله تعالىٰ: (ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ..) [سورة آل عمران: ١٠٣]، وليكن جميع العاملين

في المدرسة قدوة لطلابهم في هذا الأمر، وعليهم أن يشعروهم بأن هذا التحَّاب والتآلف من اجل الله تعالىٰ، وأنَّه من الخُلَّة الباقية في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: (ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ) [سورة الزخرف: ٦٧، ٦٨)، فإذا ترسخت هذه المعاني في نفوس التلاميذ كانوا أكثر تآلفاً وحباً وولاء لبعضهم ولكل مسلم، راجين ثواب ذلك من الله تعالىٰ.

٣- التطبيق العملي للولاء والبراء داخل المدرسة:

وقد ورد في النقطة السابقة بعض مظاهر الموالاة من التحَّاب، والتآلف والتواد، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، يضاف إلىٰ ذلك استخدام العمالة المسلمة، وتشجيع المنتجات التي تنتجها بلدان إسلامية، كالأثاث والمستلزمات المدرسية وغيرها، والاستغناء بها عن المنتجات التي تصدرها بلدان غير إسلامية، والاعتزاز بقيمنا وديننا ولغتنا وتاريخنا، وفي جانب البراء منع كل مظاهر التشبه بالكفار في اللباس والسلوك ونحوه، والتحذير من مشاركتهم الاحتفال بأعيادهم أو مناسباتهم الوطنية، أو تقليدهم في شيء من ذلك، ومتىٰ ما لوحظ شيء من ذلك وجب التنبيه علىٰ أنه مناقض لعقيدة الولاء والبراء، مع تدعيم ذلك بالأدلة والشواهد من الكتاب والسنة والسيرة.

٤- استغلال المناسبات والأحداث لترسيخ عقيدة الولاء والبراء:

من المناسبات العظيمة التي ينبغي استغلالها في ترسيخ الولاء والبراء، الحج، فهو مناسبة عظيمة يلتقي فيها الملايين من المسلمين، يجمعهم هدف واحد، وتسود بينهم صفات عظيمة، وأخلاق فاضلة، منها: المحبة، والألفة، والإيثار، والبذل، والعطاء، والصبر، وكل هذه الصفات تنبع من الشعور بأنهم إخوة متحابين في ذات الله تعالىٰ.

أما الأحداث فمنها ما يصيب بعض البلدان المسلمة من حوادث وأزمات وكوارث، فتهب البلدان الإسلامية الأخرىٰ لمد يد العون والمساعدة، عملاً بقول الرسول : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٥٨٥، ص٦٦٠)، وما يقع علىٰ بعضها من حروب وفتن، سواء كان فيما بينها، أو مع عدو غير مسلم، كل ذلك يحتم علىٰ المدرسة بيان ما يجب علىٰ المسلم نحو أخيه من الحب و النصرة والكون معه ظاهراً وباطناً، يَحْزَن لِحُزنِه، ويَفْرَح لفرحه، وما يجب عليه نحو أعداء الله من دفع شرهم وأذاهم عن إخوانه المسلمين، ويقدم في سبيل نصرة إخوانه ما يستطيع، وأقل ذلك الدعاء لهم بالنصر والتمكين، فذلك من الاهتمام بأمر المسلمين، والذي هو تحقيق لمعنىٰ الولاء، يقول الله تعالىٰ: (ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ...) [سورة التوبة: ٧١].

٥- العناية بإيضاح عقيدة الولاء والبراء:

وذلك من خلال المقررات الدراسية وما يصاحبها من أنشطة، بحيث تحتوي المناهج علىٰ موضوعات تتحدث عن الولاء والبراء بشيء من الإيضاح والتفصيل، بحيث تبين كيف يكون الولاء والبراء؟ ومن نوالي؟ ومن نتبرأ؟ ولماذا نوالي ؟ ولماذا نعادي؟ كل ذلك موضح بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم، كما أن علىٰ المعلم دور في إيضاح هذه القضية وبيان ضوابطها وحدودها، وما يجب علىٰ المسلم في حال

الولاء، وكذلك في حال البراء، والحقوق الواجبة للمسلمين، ولغير المسلمين، والتي لا تتعارض مع الولاء والبراء، لأن البراء لا يعني الظلم وهضم الحقوق، والتعدي علىٰ المخالف بالقول أو الفعل، فكل ذلك منهي عنه في كتاب الله وسنة رسوله ، وقد وردت أدلة كثيرة علىٰ ذلك عند الحديث عن مضمون الولاء والبراء في الفصل الثاني من هذه الدراسة، فبيان وإيضاح قضية الولاء والبراء، وما يترتب عليه من حقوق وواجبات أمر في غاية الأهمية، حتىٰ لا تُفهم هذه القضية فهماً خاطئاً يسيء إلىٰ دين الإسلام ونبيِّه وأهله، وحتىٰ لا يترتب علىٰ ذلك أحداث فيها تعدٍ علىٰ الناس والممتلكات بحجة الدفاع عن الدين، وأن ذلك من الولاء والبراء.

هذه بعض الخطوات التي يرىٰ الباحث أنها قد تكون معينة للمدرسة للقيام بواجبها في تربية النشء علىٰ عقيدة الولاء والبراء، وبذلك يكون الباحث قد أتم التطبيقات التربوية في الجانب العقدي، وسينتقل بإذن الله إلىٰ المبحث الثاني ليطبق في بعض المضامين التربوية الأخلاقية.

المبحث الثاني

تطبيقات تربوية في بعض المضامين التربوية الأخلاقية المستنبطة من غزوة فتح مكة المكرمة

في الفصل الثاني من هذه الدراسة استنبط الباحث عدداً من المضامين التربوية الأخلاقية وهي: الصدق، والتواضع، والوفاء بالعهد، والعفو عند المقدرة، وسيقوم الباحث بإذن الله تعالىٰ بالتطبيق في مضموني الوفاء بالعهد والصدق، من خلال بيان دور كل من الأسرة والمدرسة في تربية الناشئة علىٰ هذين الخُلقين العظيمين وذلك ضمن مطلبين:

المطلب الأول: تطبيقات تربوية في خلق الوفاء بالعهد.
المطلب الثاني: تطبيقات تربوية في خلق الصدق.

المطلب الأول: تطبيقات تربوية في خلق الوفاء بالعهد:

الوفاء بالعهد أهم وأفضل أخلاق المسلم، وذلك لأن «مبنىٰ الشريعة كلها قائم علىٰ الوفاء بالعهد والوعد إذ أن العقيدة والشريعة كلتيهما نشأتا عن التزام بالعهد الذي أخذه الله تعالىٰ علىٰ بني آدم وهم في صلب أبيهم آدم عليه السلام، قال تعالىٰ: (ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ) [سورة الأعراف: ١٧٢]... والعقود والعهود في معناها الواسع تشمل الديانات والشعائر والعبادات، والمعاملات، والمعاهدات، لذلك فإن الأمر بالوفاء بالعقود أمر بإقامة ضوابط الحياة، ما تعلق منها بالضمير، وما تعلق منها بالسلوك، ما كان بين المرء وربه، وما كان بينه وبين غيره» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص١٠٣ – ١٠٥). لذلك فإن أهم خلق يجب تربية النشء عليه هو خلق الوفاء بالعهد، وكل مؤسسة تربوية تستطيع القيام بدور في ذلك، وأول تلك المؤسسات الأسرة التي هي المحضن الأول للطفل، تليها المدرسة المؤسسة التربوية الثانية التي ينتقل إليها الطفل حين يبلغ سن المدرسة، فكيف يمكن لكل من المؤسستين القيام بدورهما في تربية النشء علىٰ هذا الخلق الفاضل؟ هذا ما سيحاول الباحث بيانه في الصفحات التالية.

أولاً: دور الأسرة في تربية أبنائها على الوفاء بالعهد:

يمكن للأسرة أن تقوم بدورها في تربية أبنائها علىٰ الوفاء بالعهد من خلال خطوات عدة أهمها ما يلي:

١ـ تكوين اتجاه إيجابى لدىٰ الناشئة نحو خلق الوفاء بالعهد:

للأسرة دور هـا م فـي تكوين الاتجاهـات الإيجابيـة نحـو بعـض القيم والمبـادئ والمثل والأخلاق، وذلك لأن تنمية الانفعالات، وتكوين الاتجاهات يمكن أن يبدأ من سن مبكرة، لم ينمو تدريجياً، والأسرة تستطيع أن تساهم في هذا الأمر من خلال:

أ- بيان مفهوم الوفاء بالعهد بلغة سهلة يستطيع الأبناء فهمها، وبالتالي يمارسون هذا الخلق عملياً بناء علىٰ ذلك الفهم، مع تشجيع الآباء لهم، ومتابعتهم والثناء علىٰ الطفل كلما مارس هذا السلوك، بل ينبغي أن نضع الطفل في مواقف تحتم عليه القيام بهذا الخلق النبيل، وعلىٰ الأسرة المتابعة والتشجيع والتوجيه.

ب- بيان أهمية الوفاء بالعهد، حيث تبين الأسرة لأبنائها أنه خلق اتصف به الله تعالىٰ، ونفىٰ عن نفسه ضده، فقال تعالىٰ: (ﭑ ﭒﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ) [سورة الروم: ٦]. كما أنه خلق الأنبياء والصالحين، ومن المهم أن تبين الأسرة ما يحصل لمن يتخلق بهذا الخلق العظيم من حب الناس له، والثقة به، والثناء عليه في الدنيا، وما أعده الله له من الأجر في الآخرة؛ فإن ذلك مما يرغب الأبناء ويشجعهم علىٰ ممارسة هذا الخلق رغبة فيما يترتب عليه من عواقب حميدة في الدنيا والآخرة.

ج- ومما يُرَغِّب في ممارسة هذا الخلق وتكوين اتجاه إيجابي نحوه، مطالعة سير الصالحين، وقراءتها علىٰ الأبناء، وتمكينهم من الاستماع إليها عن طريق الأشرطة أو أي وسيلة إعلامية متاحة، مع الحرص علىٰ اختيار ما يناسب الأولاد، بحيث يتم التدرج في عرض تلك السير عليهم حسب سنهم، وحسب قدرتهم علىٰ استيعابها وفهمها، ولا يخفىٰ علىٰ أحد ما تحدثه القصة من أثر في نفوس الناشئة، ومن أجمل القصص الذي يمكن أن يقص عليهم هو سيرة المصطفىٰ ﷺ، فهي حافلة بأروع الأمثلة الدالة علىٰ وفائه ﷺ مع ربه، ومع الخلق.

د- توضيح الآثار السيئة لخلف الوعد والتي منها نفرة الناس عن الخالف لوعده، وعدم الثقة به، وبيان ما يترتب علىٰ ذلك من ضياع الحقوق والأوقات، ثم بيان الوعيد الشديد لمن اتصف بهذه الصفة الذميمة.

٢- الممارسة العملية لخلق الوفاء بالعهد داخل الأسرة:

فالقدوة لها أثرها الكبير، حيث تؤثر سلباً أو إيجاباً، وممارسة الأسرة لسلوكيات معينة يكسب أطفالها تلك السلوكيات، سواء كانت حميدة أو مذمومة، لذلك فإنه يجب علىٰ الأسرة أن تحرص علىٰ ممارسة الأخلاق الفاضلة وتربية أبنائها علىٰ ذلك، ويمكن تحقيق ذلك من خلال:

أ- وفاء الوالدين والأخوة الكبار بما يعدون به الصغار، وإن حصل عدم الوفاء فلابد من بيان سبب ذلك، حتىٰ يعلموا أن عدم الوفاء حصل بأسباب خارجة عن إرادة الأسرة، مع الحرص علىٰ الوفاء بما وُعِدَ به حين القدرة علىٰ ذلك.

ب- الوفاء بالوعد مع الأصدقاء الجيران وغيرهم ممن يقع بيننا وبينهم شيء من العهود والمواثيق، مع إشعار الأولاد بأهمية هذا الأمر ووجوبه، فالله تعالىٰ يقول: (ﯗ ﯘﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ) [سورة الإسراء: ١٧].

ج- مساعدة الأسرة أولادها علىٰ الوفاء بوعودهم التي يعدون بها صحبتهم أو

رفاقهم أو أحداً من أفراد أسرتهم، حتىٰ وإن كان الوعد بشيء يسير، وغير ذي أهمية، فإن في ذلك توطين لهم علىٰ الوفاء بوعودهم مستقبلاً متىٰ ما اعتادوا علىٰ ذلك في صغرهم.

٣- استمرار تدريب الأولاد وتعويدهم علىٰ الوفاء بالوعد:

إن أي أمرٍ يُراد له البقاء والدوام والاستمرار يحتاج إلىٰ تدريب وتطبيق وتكرار، فالعبادات مثلاً تحتاج إلىٰ تكرار وممارسة حتىٰ تصبح سلوكاً معتاداً يتم عمله باستمرار دون معاناة، وكذلك الأخلاق لا يكتب لها الدوام ما لم تمارس باستمرار ويعتد عليها الصغير والكبير. وقد أمر النبي علىٰ توطين النفس علىٰ ذلك، فعن حذيفة قال: قال رسول الله : «لا تكونوا أمَّعة تقولون إن أحسن الناس أحْسَنَّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا» (الترمذي، ١٣٨٢هـ، ج٤، حديث رقم ٢٠٠٧، ص٣٦٤). كم بين أن الأمر لا يحصل للإنسان إلا بتكراره والمداومة عليه فقال: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، من يتحر الخير يُعْطَه ومن يتق الشر يُوْقَه ...» (البغدادي، "د . ت"، ج٥، حديث رقم ٢٦٧٤، ص٢٠١).

في الحديثين السابقين حث علىٰ توطين النفس وتعويدها علىٰ ما فيه الخير لها وللغير في الدنيا والآخرة، وبيان أنه لا يحصل لها الأمر الذي تريده إلا بعد تعويدها عليه، وممارسته المتكررة، لذا فإن علىٰ الأسرة تدريب أبنائها وتعويدهم علىٰ الوفاء بالعهد، وأعظمه الوفاء مع الله تعالىٰ بالقيام بأوامره واجتناب نواهيه، ثم الوفاء مع المخلوقين بدءاً بالوالدين ثم الأقربين ثم سائر الناس، وليكن جميع أفراد الأسرة قدوة للصغار في هذا الأمر، وعليهم تشجيعهم وترغيبهم في ذلك، وإثابتهم عليه بالقول والفعل.

٤- وقاية الأولاد من الوقوع في الخلف بالوعد والعهد:

للأسرة دور وقائي هام، لا يقل عن دورها العلاجي أو البنائي، فهي حين تبني خلق أبنائها وتتعهده بالرعاية، يجب عليها أن تقيهم من الوقوع في أي خلق مذموم، فالوقاية من الوقوع في الخطأ أسهل من المعالجة بعد حصوله، ويمكن أن تحقق الأسرة الجانب الوقائي من خلال:

أ- مراقبة سلوك الأولاد وتصحيح ما قد يقع منهم من خلف في الوعد.

ب- تشجيعهم علىٰ الاعتذار عندما لا يستطيعون الوفاء بعهودهم مع الآخرين، وبيان أن ذلك من احترام النفس واحترام الآخرين.

ج- تعريفهم بأن خُلف الوعد فيه استهانة بالآخرين وضياع لوقتهم وحقوقهم، وهذا يؤدي إلىٰ عدم الثقة بمن يتصف بهذه الصفة، وإلىٰ عدم احترامه، وعزوف الناس عن التعامل معه، لأن ذلك صفة من صفات المنافقين.

د- تربية الأبناء علىٰ مراقبة الله في كل أعمالهم وأقوالهم، وذلك من خلال بيان إطّلاع الله عليهم في كل أحوالهم، ودعم ذلك بالآيات والأحاديث التي تدل علىٰ أن أعمال العبد لا تخفىٰ علىٰ الله، وإن خفيت علىٰ الخلق، وتربية الأبناء علىٰ المراقبة الدائمة لله تجعلهم بعيدين عن كل أمر لا يرضاه الله ولا يحبه، ومن ذلك خلف الوعد.

بهذه الخطوات وغيرها يمكن للأسرة تربية أبنائها علىٰ خلق الوفاء بالعهد، وإذا كان هذا ما يمكن أن تقوم به الأسرة في هذا لمجال، فما دور المدرسة في ذلك؟ هذا ما سيتم بيانه فيما يلي:

ثانياً: دور المدرسة في تربية الناشئة على الوفاء بالعهد:

دور المدرسة دور مكمل لدور الأسرة، لذا فإن عليها أن تكمل ما بدأته الأسرة من بناء في هذا الجانب وذلك من خلال:

١- تنمية ما تكوَّن لدىٰ الأولاد من اتجاه إيجابي نحو خلق الوفاء بالعهد، وذلك بـ:

أ- زيادة توعية التلاميذ بمفهوم هذا الخلق الفاضل، وأهميته، وتشجيعهم علىٰ ممارسته، ومتابعتهم أثناء ذلك، والإشادة بمن يفي بوعده منهم أمام زملائه، ويمكن تقديم بعض الهدايا لمن يلاحظ عليه الالتزام بهذا الخلق الفاضل، أما الممارسة والمتابعة فيمكن أن تكون من خلال قيامهم بواجباتهم، وإنجاز ما تطلب منهم المدرسة من أعمال، وما يَعُدون به بعضهم أو معلميهم، وليوضح لهم أن كل ما يعد به الشخص غيره، فإنه وعد يجب الوفاء به ما لم يكن معصية لله تعالى.

ب- ومما ينمي عندهم هذا الجانب زيادة قراءتهم واطلاعهم علىٰ سير الصالحين، ممن ضربوا أمثلة رائعة في هذا الجانب، ودور المدرسة هنا هو توجيه الطلاب إلىٰ المناسب من القصص، والتي تعالج هذا الجانب بشكل جيد.

ج- طرح هذه القيم من خلال شعارات تتبناها المدرسة ولمدة محددة، لتدور حولها برامج الإذاعة المدرسية، والكلمات بعد الصلاة، وموضوعات الإنشاء والتعبير، ويمكن أن يطرح الموضوع كمسابقة تكتب حولها البحوث والمقالات، لأنه كلما قرأ الطالب عن الموضوع كلما ازداد معرفة به، وثقة بما يتوصل إليه من معلومات، وحين يقوم بالتطبيق يقوم به عن قناعة واختيار، ولا ينبغي أن نَغْفل جانب التدرج في الطرح حسب المرحلة العمرية والدراسية.

٢- لفت أنظار التلاميذ إلىٰ الجزاء المترتب علىٰ الوفاء بالعهد، من خلال النصوص الواردة في ذلك، مثل قوله تعالىٰ: (ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ) [سورة الفتح: ١٠]. وقوله سبحانه: (ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ) [سورة الرعد: ٢٠]. ذكر الله في الآية السابقة والآية التي تليها أعمالاً فاضلة، وافتتحها بالوفاء بالعهد، لأهميته ولأن ما بعده من أعمال إنما هي عهود يجب الوفاء بها، ثم بين سبحانه جزاء من وفىٰ بوعده مع الله ومع الخلق، فقال سبحانه: (ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ) [سورة الرعد: ٢٢ – ٢٤]، فعند سماع الطلاب لمثل هذه النصوص التي تبين جزاء الوفاء بالوعد يكونون أكثر حرصاً علىٰ الوفاء بوعودهم والتزاماً بها، ابتغاء الأجر العظيم من الله تعالىٰ.

٣- وفي المقابل تحذيرهم من إخلاف الوعد، وبيان أنه صفة من صفات المنافقين، وأن الله قد توعد من اتصف به بالوعيد الشديد، مع إيراد بعض النصوص الدالة علىٰ ذلك، مثل قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف،

وإذا اؤتمن خان» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٣٣، ص١١)، ومثل قوله: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع به بِقَدْر غَدْرَه ...» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٣٧٦، ص٤٥٣). أما الوعيد الذي توعد الله به من يخلف الوعد فهو البعد والذم من الله تعالىٰ ومن الملائكة ومن عباد الله المؤمنين، والجحيم بما فيها من العذاب الأليم والمهين. يقول الله تعالىٰ: (ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ) [سورة الرعد: ٢٥]. مثل هذه النصوص إذا اطلع عليها الطالب، وفهم ما تعنيه، كان حذراً أشد الحذر من إخلاف الوعد، حريصاً علىٰ الوفاء بوعده ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً.

٤- بيان الحالات التي يحدث بها إخلاف الوعد والعهد حتىٰ يتجنبها التلاميذ،

فإن «إخلال الوعد والعهد يبدو من خلال حالات أربع هي:

أ- التعبير العملي عند حلول أجل العهد أو الوعد، وفاعل هذا جَمَع إلىٰ رذيلة الإخلاف رذيلة الكذب، بتسويفه، وعدم إنجازه عهده، أو وعده عند حلول أجله.

ب- النكث والنقض لما أبْرم والتزم به من عهد أو وعد، وهذا يعبّر عن عدم احترامه شرف الكلمة، ويقضي علىٰ ثقة الآخرين به. وهاتان الحالتان مذمومتان لا تليقان بمؤمن يحترم إيمانه.

ج- التحول إلىٰ ما هو أفضل، وخير عند الله، والانتقال إلىٰ ما هو أكثر طاعة عند الله تعالىٰ، ويكون غالباً في غير العهود العامَّة، ألا ترىٰ أن موسىٰ عليه السلام وفىٰ للرجل الصالح، بأبعد الأجلين؟! فعمل عنده راعياً عشر سنين، ولم يعمل ثمانيا.

د- العجز عن الوفاء لسبب من الأسباب، فمن عجز عن الوفاء مع صدق رغبته، وحرصه فهو معذور لعدم الاستطاعة، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه عن النبي قال: «إذا وعد الرجل أخاه، ومن نيته أن يفي له، فلم يف، ولم يجيء للميعاد، فلا إثم عليه» (أبو داود، "د . ت"، ج٤، حديث رقم ٤٩٩٥، ص٢٢٩)» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص١١٤ – ١١٥).

٥- التدريب العملي:

يكتسب الفرد كثيراً من العادات والتقاليد والأخلاق من خلال ممارسته لها داخل مجتمعه الذي يعيش فيه، حيث تقوم الأسرة بتدريب أبنائها عملياً علىٰ ممارسة ما ترغب فيه من أخلاق وعادات وعبادات، وتبعدهم عما لا ترغب فيه لأنه ينافي معتقداتها، أو أعراف المجتمع وعاداته وتقاليده، والمدرسة تكمل ذلك الدور فتستمر في التدريب العملي علىٰ كل خلق فاضل أو عادات حميدة، والوفاء بالعهد من أهم الأخلاق التي يجب التدريب عليها، حيث أن مبنىٰ الشريعة كله قائم علىٰ الوفاء بالعهد، وأهم أمر يمكن التدريب من خلاله علىٰ هذا الخلق هو ممارسة العبادات التي افترضها الله علينا، فالصلاة تعودنا النظام والتواضع لله تعالىٰ ، والصوم يعودنا الصبر وضبط النفس، والزكاة تعلمنا البذل و التضحية والشعور بالآخرين، وهكذا سائر العبادات، وهي قبل هذا وذاك وفاء بالعهد مع الله تعالىٰ، وبعدها يكون الوفاء بالعهد سمة بارزة داخل المدرسة، تفي المدرسة بما تَعِدُ به طلابها، ويفي المعلمون بكل ما يلتزمون به مع

أبنائهم الطلاب، ويفي الطلاب بوعودهم مع معلميهم، ومع بعضهم، ومع غيرهم قدر استطاعتهم، فإذا طرأ ما يخل بالوعد وجب بيانه، وإذا كان هذا الأمر سلوكاً ممارساً من الجميع، فإن ذلك سبب في ثبات هذا الخلق ودوامه داخل المدرسة وخارجها؛ لأن الجميع شعر بأهميته وثمرته.

٦- القدوة الحسنة:

فإنه لابد أن يكون كل من في المدرسة قدوة حسنة لغيرهم في هذا الأمر، ولأن للقدوة أثرها في تهذيب السلوك والتربية علىٰ أحسن الأخلاق والأعمال والأقوال، والمعلم هو أهم شخص يمكن أن يقتدي به التلميذ، ويحذو حذوه، فعليه أن يتنبه لهذا الأمر، ويحرص علىٰ أن يكون قدوة صالحة، يكتسب منه تلاميذه الأخلاق الفاضلة وعلىٰ رأسها الوفاء بالعهد. ومعلم البشرية الأول محمد كان أحرص الناس علىٰ ذلك، وأمثلة وفائه أكثر من أن تحصىٰ، وقد ورد شيء منها عند الحديث عن المواقف التي تضمنت خلق الوفاء بالعهد في غزوة الفتح المباركة، فليكن قدوتنا وأسوتنا.

٧- **تضمين المناهج الدراسية موضوعات تعنىٰ بالتربية الخلقية**، بحيث يطرح الخلق المراد تدريب الطلاب عليه، وتعليمهم إياه، ضمن موضوع أو عدة موضوعات، يغلب عليها طابع الإثارة والتشويق، ويستشهد فيه ببعض القصص، وتترك فيه الفرصة للتلاميذ للمناقشة والحوار وإبداء الرأي، حتىٰ يؤصل فيهم هذا الخلق، ويمارس في حياتهم علىٰ علم ووعي ودراية، وعن قناعة تامة، فإن ذلك أدعىٰ لبقائه وثباته، وما لم تؤصل الأخلاق وتمارس علىٰ وعي وإدراك، فإنها قد تنحرف بصاحبها عن المراد، فالعهد الذي يقطعه الإنسان علىٰ نفسه إن كان متضمناً إثماً أو قطيعة رحم فإنه يجب عدم الوفاء به، فإذا فَهم إنسان أنه يجب الوفاء بكل وعد أو عهد قطعه علىٰ نفسه أياً كان، فإن ذلك قد يوقعه في الإثم وقد يعرضه للعقوبة في الدنيا والآخرة. لذلك كان لابد من العناية بالتربية الخلقية وتعليمها لأبنائها وتدريبهم وتعويدهم عليها، وعلىٰ الممارسة الصحيحة لها، من خلال المناهج الدراسية، والقدوة، والوعظ، وغيرها من الوسائل التي تعين علىٰ ذلك.

المطلب الثاني: تطبيقات تربوية على الصدق:

الصدق خلق عظيم، وصف الله تعالىٰ به نفسه، فقال سبحانه: (ڎ ژ ژڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ) [سورة آل عمران: ٩٥]، ووصف به أنبياءه ورسله عليهم السلام، وهو صفة المتقين والأبرار، كما وأنه يهدي إلىٰ البر الذي هو الطريق إلىٰ الجنة، هذه بعض فضائل الصدق التي تدعو إلىٰ التخلق به واتخاذه سلوكاً ممارساً في حياتنا كلها. لذلك فإنه يجب علىٰ كل المؤسسات التربوية القيام بواجبها نحو الأمة وتربية ناشئتها علىٰ الأخلاق الفاضلة، ومن أهمها الصدق، وأهم مؤسستين تربويتين يجب عليهما القيام بهذا الدور، الأسرة والمدرسة، فدورهما في ذلك كبير، لا يكاد يخفىٰ علىٰ أحد، وهو ما سيحاول الباحث بيانه خلال الصفحات التالية.

أولاً: دور الأسرة في تربية أبنائها على الصدق:

يمكن للأسرة تربية أبنائها علىٰ خلق الصدق من خلال أمور عديدة يذكر منها الباحث ما يلي:

١- بيان مفهوم الصدق للأولاد:

وذلك يكون بالممارسة العملية للصدق، بحيث تكون الأسرة صادقة في أقوالها وأفعالها ونياتها وعُزُومِها، وتُعَوِّد أبناءها علىٰ ذلك، ومتىٰ ما كانت الأسرة كذلك شعر أبناؤها بأهمية الصدق، وأصبح سجية وطبعاً لكل فرد فيها، فإذا بلغ الأطفال سناً معينة يمكنهم معها استيعاب بعض المفاهيم، وجب علىٰ الأسرة بيان مفهوم الصدق بأسلوب مبسط، يفهمه الأولاد، وتستمر الممارسة والتطبيق من جميع أفراد الأسرة؛ ليكون الكبار قدوة للصغار في ذلك، والحذر من مخالفة الأفعال للأقوال، كأن تَعِد الأسرة بأشياء ثم لا تفي بها، سواء كان ذلك فيما بينها أو مع غيرها؛ لأن ذلك يحدث تناقضاً يُشَوِّش أفكار الأولاد، ويوقعهم في حيرة واضطراب.

٢- الترغيب في هذا الخلق العظيم من خلال بيان فضائله، والأجر المترتب عليه، وقد سبق ذكر فضائله وبعض فوائده والأجر المترتب عليه، كل ذلك في الفصل الثاني من هذه الدراسة عند الحديث عن أهمية الصدق وفوائده (١٣٦-١٤٣). وسيورد الباحث شيئاً من ذلك باختصار فيما يلي:

أ- لو لم يكن في الصدق من الفضائل إلا أنه اتصف به الله تعالىٰ، ووصف به رسله عليهم السلام، وجعله صفة للأتقياء والأبرار الصالحون من عباده، لكفاه ذلك شرفاً وفضلاً، ولكان هذا كافياً لأن يتصف الإنسان بصفة اتصف بها الرب سبحانه وتعالىٰ.

ب- الصدق سبب لحصول البركة، وزيادة الرزق.

ج- أنه يهدي إلىٰ البر والذي بدوره يوصل إلىٰ الجنة.

د- أن الله تعالىٰ وعد أهله بالمغفرة والأجر العظيم في الدار الآخرة.

هـ- أنه سبب في حب الناس للعبد وثقتهم به، واطمئنانهم إليه.

و- يعد من أهم أسباب تقدم المجتمعات وترابطها وتماسكها.

هذه بعض فضائل الصدق التي إذا بينتها الأسرة لأفرادها، واستشهدت علىٰ ذلك بالنصوص من الكتاب والسنة، وبأحداث من السيرة تبين حال الصادقين ومآلهم، من شأن ذلك كله أن يزيد من تمسك الجميع بهذا الخلق العظيم، وممارسته حباً فيه، ورغبة في الثواب المترتب عليه.

٢- التحذير من الكذب:

ويمكن التحذير منه بأمور منها:

أ- بيان أنه صفة ذميمة ذم الله أهلها، وبيَّن أنهم أظلم الناس، وذلك في مثل قوله تعالىٰ: (ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گگ گ گ گ گ گ) [سورة الأنعام: ٢١]. وأخبر النبي أنه صفة من صفات المنافقين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٠٧، ص٢٨).

بمثل هذه الأدلة وغيرها من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله تستطيع الأسرة تحذير أفرادها من الوقوع في الكذب.

ب- وكذلك ببيان العقوبة المترتبة علىٰ الكذب المتمثلة في العذاب الأليم الذي أعده الله للمتصفين بالكذب، والنصوص الواردة في ذلك كثيرة، منها قوله تعالىٰ: (ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک) [سورة البقرة: ١٠]. وقول النبي : «من حلف علىٰ يمين كاذبة، ليقتطع بها مال رجل مسلم، أو قال: أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان» فأنزل الله تصديقه: (   ) [آل عمران: ٧٧]. (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٦٦٥٩، ص٩١٨).

ج- ويكون التحذير من الكذب بمجانبة الوقوع فيه من الوالدين أو أفراد الأسرة الكبار، فهم قدوات للصغار، فتجنب الكذب علىٰ عمومه أمر بالغ الأهمية، وتجنبه مع الأطفال أكثر أهمية «بسبب مخالفته لما فطروا عليه من الصدق، فإنه يحدث لهم هزة نفسية عنيفة في مستقبل حياتهم» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص٧٩، ٨٠).

بمثل هذه الأمور يمكن للأسرة أن تجنب أفرادها الكذب، وتعودهم علىٰ الصدق في شؤونهم كلها.

٣- توجيه الأبناء إلىٰ أنواع الصدق وصوره، وأنواع الكذب وصوره:

لأن الصدق حينما يطلق يتبادر إلىٰ الذهن في الغالب نوع واحد منه وهو الصدق في القول، وتُنْسَىٰ بقية الأنواع، وربما كان الإنسان صادقاً في قوله، ولكنه لا يصدق في فعله، أو نيته، أو عزمه، أو الوفاء بعزمه، ولا يصدق في مقامات الدين، فهذه ستة أنواع للصدق من أتىٰ بها جميعاً فهو صديق، وهذه الأنواع الستة ذكرها الغزالي، "د . ت" مفصلة في كتابه الإحياء (ج٤، ص٣٥٤ – ٣٥٨).

وكذلك بيان أنواع الكذب، لأن الكذب أيضاً حينما يطلق لا يتبادر إلىٰ الذهن إلا الكذب في القول، مع أنه «ينقسم بحسب صدوره عن الإنسان إلىٰ أقسام ثلاثة:

١- الكذب الاعتقادي، (كذب القلب).

٢- الكذب القولي (كذب اللسان).

٣- الكذب العملي (كذب الجوارح)» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص٧٦).

أما صوره فكثيرة، ذكر منها (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ) ست عشرة صورة. (ص٧٦ – ٨٠). ويصعب في هذه الدراسة تقصي هذه الصور كلها، فمن أراد معرفة تلك الصور فليرجع إلىٰ المرجع المذكور.

وإذا كان الصدق تتعدد أنواعه وصوره، وكذلك الكذب، فإن ذلك يُحَتِّم علىٰ الأسرة بيان ذلك كله لأفرادها، حتىٰ يتحرىٰ الفرد منهم الصدق بجميع أنواعه وصوره ، ويتجنب الكذب بجميع أنواعه وصوره.

تلك بعض الأمور التي إذا فعلتها الأسرة ساهمت في تربية أبنائها علىٰ الصدق، وجنبتهم ما يضاده وهو الكذب، ودور الأسرة لا يتوقف عند مرحلة عمرية معينة، بل تظل تراقب سلوك أبنائها، وتصحح ما يطرأ عليه من انحراف، وتتعاون مع بقية المؤسسات التربوية الأخرىٰ في المجتمع، وأهم مؤسسة تربوية ينبغي التعاون معها هي المدرسة، التي سينتقل إليها الطفل حين بلوغه السن النظامي للالتحاق بها، ودور المدرسة التربوي لا يقل أهمية عن دور الأسرة في تربية الناشئة علىٰ خلق الصدق، ويمكن للمدرسة أن تقوم بهذا الدور من خلال خطوات عدة يذكر الباحث بعضها في المحور التالي.

ثانياً: دور المدرسة في تربية الناشئة على خلق الصدق:

ويمكن للمدرسة القيام بدورها في ذلك من خلال عدة أمور من أهمها:

١- الممارسة الفعلية للصدق بجميع أنواعه من جميع العاملين بالمدرسة، فلذلك أثر بالغ علىٰ الطلاب، وذلك لأن الطالب يرىٰ فيمن يعلمه ويؤدبه الأسوة والقدوة، ويحاول أن يَحْذُو حَذْوَه، ويتصف بصفاته، فإذا كان منسوبو المدرسة قدوة حسنة لطلابهم في هذا الخلق العظيم، كان أثر ذلك كبيراً علىٰ الطلاب، واتصفوا بهذه الصفة، ومارسوها حتىٰ أصبحت صفة ملازمة لهم، وتحقق بذلك الخير لهم ولمجتمعهم في عاجل أمرهم وآجله، ومن أهم الأمور التي ينبغي أن تمارس المدرسة من خلالها الصدق الوعود التي تعد بها طلابها، فالوفاء بها واجب قدر المستطاع، ومتىٰ ما تعذر ذلك وَجَب بيان أسباب عدم الوفاء، حتىٰ لا يظن الطالب أن من وعده كذب عليه ولم يف بوعده.

٢- زيادة وعي التلاميذ بمفهوم الصدق، وأهميته، وفوائده الدنيوية والأخروية: وذلك لأن الطفل يصبح أكثر فهماً واستيعاباً، كلما انتقل من مرحلة إلىٰ أخرىٰ، ويكون بإمكان المدرسة بيان مفهوم الصدق، وأهميته، وفوائده في كل مرحلة بما يتناسب مع المرحلة العمرية والدراسية للطالب، وهي بذلك ترغب في هذا الخلق العظيم، وتحث عليه، وتظهر الحب والمودة والتقدير لمن يتصف به من طلابها، ومن العاملين بها، وكم هو جميل أن تكرم المدرسة من يظهر هذا الخلق الفاضل في ظروف معينة، كأن يفعل الطالب عملاً مخالف لنظم المدرسة، وحين يسأل عن سبب ذلك يكون

صادقاً في رده علىٰ هذا التساؤل، ويظهر الحقيقة، وهنا تستغل المدرسة مثل هذا الفعل لتشيد بما اتصف به هذا الطالب من صدق، ولا مانع من بيان عدم رضاها عن الخطأ الذي وقع فيه، وتعالجه بما يناسب، مُظْهرة أن ما اتصف به هذا الطالب من الصدق كان سبباً في صفح المدرسة عنه، هذا الأمر يرغب في الصدق ويدعو إليه.

<u>٣- الاستفادة من الموضوعات التي تتحدث عن الصدق فيما يدرسه التلاميذ</u>:

وذلك للترغيب في هذا الخلق العظيم، وتحبيبه إلىٰ التلاميذ، وتوضيح مفاهيمه وأنواعه، والأجر المترتب عليه، حتىٰ يمارسه التلاميذ رغبة في حصول فوائده ومنافعه في الدنيا، وحسن العاقبة في الآخرة، لأن الصدق «يزيد الصادق في العالم نباهة ووقاراً، ألا ترىٰ أنه يكون دائماً موضع الثقة، ومحل الأمانة، مبجلاً محترماً مهما كانت درجته؟ لأن الصادق يُطْبَعُ علىٰ كمال في الخلق، فلا يكون خائناً، ولا مختلساً، ولا مزوراً، ولا نماماً، ولا منافقاً، ولا مخادعاً، ولا غشاشاً، ولا متصفاً بما يشينه بين الناس، وعليه فالصدق عِزٌّ والباطل ذل» (قرعوش وآخرون، ١٤٢٦هـ، ص٦٦، ٦٧).

وأما في الآخرة فأجره عظيم ذكر الله تعالىٰ في آيات كثيرة مثل قوله سبحانه: (ى ى ي ي □ □□ □□) [سورة المائدة: ١١٩].

<u>٤- طرح هذا الخلق من خلال شعار تتبناه المدرسة كغيره من القيم التي تريد المدرسة تربية طلابها عليها</u>، ليتحدث عنه التلاميذ من خلال الإذاعة المدرسية، والكلمات بعد الصلاة، وكتابة المقالات والبحوث حوله، حسب المرحلة التعليمية، مع الإشادة من قبل المدرسة بكل مشاركة جيدة في ذلك، وبكل الممارسات الصحيحة لهذا الخلق العظيم، فكل ذلك يعززه في نفوس التلاميذ، ويجعله أكثر رسوخاً وثباتاً.

<u>٥- تعويد الطلاب الصراحة والوضوح وقول الحق، وقبول أعذارهم حينما يحدث منهم تقصير</u>، حتىٰ لا يلجأ الطلاب إلىٰ الكذب خشية العتاب أو العقاب؛ لأن في تعويدهم علىٰ الصراحة وقول الحق تعويد علىٰ الصدق، وهذا الأمر ينبغي أن يعوَّد عليه التلاميذ من حين دخولهم المدرسة، وينمىٰ فيهم هذا الأمر، حتىٰ يصبح صفة ملازمة لهم، عندها يصبح الطالب جريئاً في قول الحق، لا يخش في ذلك إلا الله، مع مراعاة الآداب حين يكون ذلك مع معلمه، ومع من يقوم علىٰ تربيته؛ لأن الصراحة وقول الحق والجرأة لا تعني التطاول وعدم الاحترام واللامبالاة. لذلك يجب علىٰ المدرسة والأسرة قبْلها تربية الناشئة علىٰ هذا الأمر؛ لأنه مما يعودهم الصدق ويجنبهم الكذب.

<u>٦- تجنب الكذب والتحذير منه</u>:

وهذا واجب علىٰ كل من يقوم بعملية التربية، فالمربي لابد أن يكون قدوة حسنة لمن يربيهم، فلا يرون ولا يسمعون منه إلا الجميل، ومن أخطر الصفات التي يجب تجنبها وعدم الوقوع فيها الكذب، حيث أنه من أقبح الأخلاق، ويكيفه قبحاً أنه صفة من صفات المنافقين، الذين هم أصحاب الدرك الأسفل من النار، فجدير بكل مربٍ أن يتجنب هذه الصفة القبيحة، ويحذر طلابه منها، ويبين لهم أنها من كبائر الذنوب، حيث قال □: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: الإشراك بالله،

وعقوق الوالدين – وجلس وكان متكئاً – فقال: ألا وقول الزور، قال: فما زال يكررها حتىٰ قلنا: ليته سكت» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٦٥٤، ص٣٥٢). فشهادة الزور من الكذب الذي حرمه الله، وعليه فإن الكذب كبيرة من كبائر الذنوب. كما يمكن التحذير من الكذب ببيان عقاب الكاذبين في الآخرة، حيث يقول الله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ) [سورة التغابن: ١٠]. بمثل هذه الأمور وغيرها يمكن التحذير من الكذب، والأهم من ذلك أن يتجنب كل من يتعامل مع المتعلم الكذب بكل أنواعه، حتىٰ يكون أسوة وقدوة للمتعلمين.

هذه بعض الخطوات التي يرىٰ الباحث أنها تعين المدرسة علىٰ تربية الناشئة علىٰ خلق الصدق. وسيكتفي الباحث بهذا القدر من التطبيق في المضامين الأخلاقية، وسينتقل منها إلىٰ المضامين الاجتماعية ليطبق في بعضها، فإلىٰ ذلك وبالله التوفيق.

المبحث الثالث

تطبيقات تربوية في بعض المضامين التربوية الاجتماعية المستنبطة من فتح مكة المكرمة

من المضامين التربوية الاجتماعية التي تم بحثها خلال الفصل الثاني من هذه الدراسة، الحفاظ علىٰ الضرورات الخمس (الدين والنفس والعقل والنسل والمال)، وكذلك المساواة، وفي هذا المبحث سيقوم الباحث بإذن الله تعالىٰ بالتطبيق في بعض تلك المضامين، وليكن البدء بمضمون حفظ النفس، وذلك لأن دور الأسرة والمدرسة في حفظ الدين قد تضمنه المبحث الأول في هذا الفصل حين الحديث عن دورهما في تربية الناشئة علىٰ تطبيق التوحيد، والولاء والبراء، وقد تضمن ذلك المبحث عدداً من الخطوات التي يمكن للأسرة والمدرسة من خلالها أن تقوم بدورها في تربية النشء علىٰ التوحيد، والولاء والبراء، لذلك فقد رأىٰ الباحث أن يبين في هذا المبحث دور كل من الأسرة والمدرسة في حفظ النفس.

تطبيقات تربوية على حفظ النفس:

عندما عنيت التربية الإسلامية بحفظ النفس، وأمرت بذلك ونهت عن ضده، لم تترك الأمر للإنسان في اتخاذ ما يراه من سبل ووسائل تحقق له ذلك، بل وضعت له خطوات ووسائل تعين علىٰ حفظ النفس، منذ أن تكون نطفة في رحم الأم وخلال مراحل حياته حتىٰ الوفاة، وفيما يلي سيورد الباحث بعض تلك الوسائل التي قد تعين كل من الأسرة والمدرسة علىٰ تربية النشء علىٰ حفظ النفس.

أولاً: دور الأسرة في تربية أبنائها على حفظ النفس:

لقد جاء الإسلام بوسائل عديدة تعين الأسرة علىٰ الحفاظ علىٰ النفس قبل الولاة منها:

١ـ **الحفاظ علىٰ الجنين**، وهو «الولد ما دام في بطن أمه لاستتاره فيه» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٣، ص٩٣). ويمكن الحفاظ علىٰ الجنين من خلال:

أـ **منع إسقاطه**، وهو ما يسمىٰ بالإجهاض «أجهضت الناقة إجهاضاً، وهي مُجْهِضٌ: ألقت ولدها لغير تمام» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٧، ص١٣١). وقد منعت الشريعة من فعل ذلك سواء كان عن طريق المرأة أو غيرها، ورتبت علىٰ ذلك عقوبات بدنية ومالية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرىٰ بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلىٰ رسول الله □ فقضىٰ رسول الله □: أن دية جنينها غرةٌ: عبدٌ أو وليدة. وقضىٰ بدية المرأة علىٰ عاقلتها. وَوَرَّثَها ولدَها ومن معهم» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٦٨١، ص٤٣٧).

«والغُرَّة – بالضم –: بياض في الجبهة،... وغُرَّة الفرس: البياض الذي يكون في وجهه، ... وغرة الشيء: أوله وأكرمه» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٥، ص١٤، ١٥).

«والغرة : العبد أو الأمة كأنه عبَّر عن الجسم كله بالغُرَّة، ... والغرة عند العرب أنفس شيء يملك وأفضله، ... وتفسير الفقهاء: إن الغُرة من العبيد الذي يكون ثمنه عشر الدية». (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج٥، ص١٨، ١٩).

ب- **تأجيل إقامة الحد علىٰ المرأة الحامل:**

وفي ذلك حفاظ علىٰ حياة الجنين؛ لأن إقامة الحد علىٰ المرأة الحامل – خصوصاً حد القتل – يؤدي إلىٰ قتل جنينها، وبذلك تُقْتَل نفس بريئة بلا ذنب، وقد منع الشارع ذلك، ففي حديث عمران بن حصين: أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ، وهي حبلىٰ من الزنىٰ، فقالت: يا نبي الله! أصبت حداً فأقمه عليَّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها، فقال: «أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها» ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ، فَشُكَّت عليها ثيابها. ثم أمر بها فَرُجِمَت، ثم صلىٰ عليها، فقال له عمر: تصلي عليها؟ يا نبي الله! وقد زنت. فقال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالىٰ؟» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٦٩٦، ص٤٤٢). فالنبي ﷺ قد أمر وليها بالإحسان إليها، وذلك حفاظاً عليها وعلىٰ جنينها، وفي هذا تربية للأمة علىٰ الترفق بأهل المعاصي، والإحسان إليهم، وقبولهم في المجتمع، والدعاء لهم، وعدم نَبْزهم بما حصل منهم، سواء كان ذلك قبل إقامة الحد عليهم أو بعده، فقد كان هذا منهج المصطفىٰ ﷺ.

هذا فيما يتعلق بحد القتل، وكذلك حد الجلد فإنها لا تجلد وهي حبلىٰ حتىٰ تضع جنينها، وتبرأ من ألم الولادة، لأن جلد المرأة في هذا الوضع فيه خطر عليها وعلىٰ الجنين، يدل علىٰ ذلك ما رويَّ عن علي رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال: «يا أيها الناس أقيموا علىٰ أرقائكم الحد، من أحصن منهم ومن لم يحصن، فإنَّ أمةً لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن أنا جلدتُها، أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أحسنت»، وعن السدي: «أتركها حتىٰ تماثل». (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ١٧٠٥، ص٤٤٤)، ففي إقرار النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه واستحسانه لفعله ما يدل علىٰ حفظ النفس، ومنع كل ما يلحق بها الضرر والأذىٰ.

ج- **رعاية الأم الحامل والاهتمام بها:**

من الأمور التي تحمي الجنين وتحافظ عليه رعاية الأم الحامل والاهتمام بها، ويمكن تحقيق ذلك من خلال التالي:

١- **التغذية:**

إن غذاء الجنين في بطن أمه مصدره الوحيد الأم، فلهذا لابد من الاهتمام بغذائها وذلك لتأثيره علىٰ الجنين سلباً أو إيجاباً.

إن افتقاد الغذاء لبعض العناصر الغذائية قد يؤدي إلىٰ حدوث مضاعفات مرضية خلال فترة الحمل، وربما ترتب علىٰ ذلك سقوط الجنين، أو ولادة الطفل ميتاً،

أو انخفاض وزن الوليد عن المعدل الطبيعي. (القاضي، ١٤٢٣هـ، ص١٤٨).

ولهذا فلابد للأسرة أن توفر للأم الحامل الغذاء الجيد المتنوع، المحتوي علىٰ جميع العناصر الغذائية اللازمة والمطلوبة لها ولجنينها. وتدل البحوث علىٰ أن نقص غذاء الأم، ولاسيما البروتين والفيتامينات، وخاصة فيتامين (ب المركب)، يؤدي إلىٰ تعب الأم الحامل، وإلىٰ نقص في نمو الجنين، كما يعرضه للإصابة بالكساح، وفقر الدم أو الهزال، كما يؤثر علىٰ جهازه العصبي، كما يؤدي كذلك إلىٰ الضعف العقلي، والاضطرابات النفسية. (عبدالباقي، ١٤٠٠هـ، ص١٠٥، ١٠٦).

وقد اهتمت التربية الإسلامية بهذا الأمر حيث ألزمت الزوج الإنفاق علىٰ الزوجة الحامل المطلقة طلاقاً بائناً، حتىٰ تضع حملها، فإن كانت رجعية فالإنفاق عليها وعلىٰ حملها، فإن أرضعته فلها الأجر المتفق عليه أو أجر المثل، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ) [سورة الطلاق: ٦ – ٧].

٢- حمايتها مما يؤثر علىٰ الجنين:

كثيراً ما يتأثر الجنين في بطن أمه، بما تتعرض له الأم من أعراض، نذكر منها ما يلي:

أ- المرض: يتأثر الجنين تأثراً خطيراً إذا تعرضت الأم للإصابة بمرض خطير أثناء الحمل، فالمرض يؤثر في عملية التمثيل الغذائي، والتركيب الكيميائي للدم، وغير ذلك مما يؤثر في نمو الجنين.

فالأم الضعيفة أو المريضة أو التي لا تتغذىٰ بشكل جيد أو التي تتعرض للأمراض بشكل مستمر كل ذلك يؤثر علىٰ تكوين الجنين وصحته. لهذا فإنه يجب علىٰ الأسرة حماية الأم من الأمراض، وخاصة المعدية منها، والتي تؤثر علىٰ صحة الجنين. (القاضي، ١٤٢٣هـ، ص١٥٠).

ب- التعرض للإشعاع:

«تدل الدراسات أن تعرض حوض وبطن الأم الحامل للأشعة السينية بجرعات كبيرة، يؤذي الجنين ويؤثر علىٰ الجهاز العصبي، ويؤدي إلىٰ التأخر العقلي، أو التشوه الجسمي، ويؤدي إلىٰ الإجهاض» (زهران، ١٤٢٥هـ، ص١٢٨).

لذلك فإنه يجب علىٰ الأسرة تجنيب الأم الحامل التعرض للأشعة، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك بإشعار الأم الحامل بخطورة ذلك عليها وعلىٰ جنينها، وإشعار الجهات الصحية حين زيارتها لغرض التداوي بوجود حمل، حتىٰ تتخذ الإجراءات اللازمة لحمايته من الإشعاع.

ج- الأدوية والعقاقير:

تدخل في صناعة الأدوية والعقاقير الطبية مواد كيميائية، قد تؤثر تأثيراً خطيراً علىٰ الأم أو الجنين، إذا تعاطتها الأم الحامل دون إشراف الطبيب، لذلك فإن علىٰ الأسرة الحذر من استعمال الأدوية أو العقاقير للحامل إلا باستشارة وإشراف طبيب، حتىٰ لا يؤدي ذلك إلىٰ الإضرار بالأم أو جنينها.

٣- إباحة الفطر في رمضان للحامل والمرضع: (القاضي، ١٤٢٣هـ، ص١٥٢).

ومن أساليب التربية الإسلامية في حفظ النفس إباحة الفطر للمرأة الحامل والمرضع إذا خافتا علىٰ نفسيهما وولديهما، أو علىٰ نفسيهما فقط، أو علىٰ ولديهما فقط، فعند ابن عباس وابن عمر أنهما تفطران، وعليهما الفدية، ولا قضاء عليهما، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ) [سورة البقرة: ١٨٤] قال: كانت رخصة للشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، وهما يطيقان الصيام، أن يفطرا، ويطعما مكان كل يوم مسكيناً، والحبلىٰ والمرضع، إذا خافتا قال أبو داود: يعني علىٰ أولادهما أفطرتا وأطعمتا» (أبو داود، د.ت، ج٢، حديث رقم ٢٣١٨، ص٢٩٦).

«وعن نافع أن ابن عمر سُئِل عن المرأة الحامل إذا خافت علىٰ ولدها فقال تفطر، وتطعم مكان كل يوم مسكيناً مُدّاً من حنطة» (البيهقي، ١٤١٤هـ، ج٤، حديث رقم ٧٨٦٨، ص٢٣٠).

ومسألة الفدية والقضاء علىٰ المرأة الحامل والمرضع محل خلاف بين العلماء، وليس هذا مجال تتبع هذه المسالة، إذ أن الهدف بيان عناية الإسلام بالنفس وحفاظه عليها، حيث أباح للمرأة الحامل، والمرضع الفطر في رمضان في حال الخوف علىٰ نفسيهما أو ولديهما، أو عليهما معاً، وهذا من أوضح الأدلة علىٰ حفاظ الإسلام علىٰ النفس في جميع مراحلها العمرية.

هذه بعض الوسائل للحفاظ علىٰ النفس قبل ولادتها، وقد تضمنت ما يشير إلىٰ الحفاظ علىٰ النفس بشكل عام، وذلك حين نهت التربية الإسلامية عن إقامة الحد علىٰ الحامل أو النفاس، إلا بعد الوضع وذهاب ألم النفاس، وكذلك الاهتمام بصحة الأم الحامل من خلال غذائها، وعدم تعريضها لما يضر بها وبجنينها، ولم تهمل التربية الإسلامية النفس في جميع مراحل حياتها، بل وضعت العديد من الوسائل والطرق التي تستطيع بها الأسرة الحفاظ علىٰ النفس بعد الولادة، وهذا ما سيرد بيانه بإذن الله تعالىٰ فيما يلي:

١- الإرضاع:

حين يولد الطفل يكون كامل التكوين من الناحية الجسمية، ولديه بعض الاستعدادات التي تتطلبها المرحلة الجديدة التي انتقل إليها، فحين كان في بطن أمه كان يعتمد علىٰ الأم مباشرة في غذائه، أما بعد الولادة فإنه يحتاج إلىٰ القيام ببعض الوظائف الفسيولوجية ومن أهمها: المص، والبلع والإخراج والنوم، وهذه العمليات ضرورية للطفل في هذه المرحلة، لأنه سيعتمد علىٰ نفسه في غذائه وإخراجه، وسيحتاج إلىٰ النوم، فهو يقضي معظم وقته في النوم.

ولما كان الحليب هو أهم غذاء له في هذه المرحلة، وكان مصدره الأم، فقد كفل الله له هذا الأمر من خلال أمر الأم بإرضاعه، وذلك في قول الله تعالىٰ: (ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ) [سورة البقرة: ٢٣٣]. في هذه الآية يبين الله تعالىٰ حق الطفل في الرضاعة، حتىٰ وإن كانت الأم مطلقة.

«إن علىٰ الوالدة المطلقة واجباً تجاه طفلها الرضيع؛ واجباً يفرضه الله عليها، ولا يتركها فيه لفطرتها وعاطفتها، التي قد تفسدها الخلافات الزوجية، فيقع الغرم علىٰ

هذا الطفل، إذا يكفله الله ويفرض له في عنق أمه الإرضاع، ... والله يفرض للمولود علىٰ أمه أن ترضعه حولين كاملين، لأنه سبحانه يعلم أن هذه الفترة، هي المثلىٰ من جميع الوجوه: الصحية، والنفسية، للطفل» (قطب، "د. ت"، ج١، ص١٩٩) وهذه خطوة أولىٰ تكفل بقاء الطفل علىٰ قيد الحياة.

٢- النفقة:

حيث أوجب الله تعالىٰ علىٰ الوالد أجرة الرضاع في قوله تعالىٰ: (ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ □ □ □ □) [سورة البقرة: ٢٣٣]. «والمراد بالرزق هنا: الطعام الكافي المتعارف به بين الناس، والمراد بالكسوة: ما يتعارفون به أيضاً؛ وفي ذلك دليل علىٰ وجوب ذلك علىٰ الآباء للأمهات المرضعات وهذا في المطلقات، وأما غير المطلقات فنفقتهن وكسوتهن واجبة علىٰ الأزواج من غير إرضاعهن لأولادهن» (الشوكاني، ١٣٨٣هـ، ج١، ص٢٤٥).

وإن تعاسر الزوجان في أجر الرضاع، فللوالد أن يسترضع لولده، أي يستأجر مرضعة أخرىٰ ترضع ولده، قال الضحاك: «إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرىٰ، فإن لم تقبل أُجْبِرت أمّه علىٰ الرضاع بالأجر» (الشوكاني، ١٣٨٣هـ، ج٥، ص٢٤٥).

وفي هذا كله ضمان لحق الطفل في الرضاعة الطبيعية التي هي من أهم أسبا بقائه وسلامته وصلاح حياته.

٣- الحضانة:

وهي حق للأمهات إذا توفرت فيهن الشروط، لأنهن أقدر من الرجال لما فطرهن الله عليه من العطف والحنان والصبر، وخاصة إذا افترق الزوجان، لما رواه أبو داود عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، أن امرأة أتت النبي □ فقالت: يا رسول الله! إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وحجري له حواء، وثديي له سقاء، وزعم أبوه أنه ينزعه مني. قال: «أنت أحق به ما لم تنكحي» (ابن حنبل، "د . ت"، ج٢، حديث رقم ٦٧٠٧، ص١٨٢).

وإذا كانت الحضانة حق للطفل «فإن الأم تجبر عليها إذا تعيَّنت بأن يحتاج الطفل إليها ولم يوجد غيرها، كي لا يضيع حقه في التربية والتأديب، فإن لم تتعين الحضانة بأن كان للطفل جدة ورضيت بإمساكه وامتنعت الأم فإن حقها يسقط بإسقاطها إياه، لأن الحضانة حق لها» (سابق، ١٣٩٧هـ، ج٢، ص٣٣٨ – ٣٣٩).

ولما كانت الحضانة واجبة للصغير حتىٰ يسلم من الهلاك والضياع، وهي حق للأم، فإن لم تكن الأم فالجدة للأم، ثم الجدة للأب، وهكذا، كل ذلك في حال حاجة الطفل إلىٰ خدمة النساء، «وتنتهي الحضانة إذا استغنىٰ الصغير أو الصغيرة عن خدمة النساء وبلغ سن التمييز والاستقلال، وقَدِر الواحد منهما علىٰ أن يقوم وحده بحاجاته الأولية، بأن يأكل وحده، ويلبس وحده، وينظف نفسه وحده، وليس لذلك مدة معينة تنتهي بانتهائها ... والمفتىٰ به في المذهب الحنفي وغيره: أن مدة الحضانة تنتهي إذا أتم الغلام سبع سنين، وتنتهي كذلك إذا أتمت البنت تسع سنين، وإنما رأوا الزيادة بالنسبة للبنت الصغيرة لتتمكن من اعتياد عادة النساء من حاضنتها» (سابق، ١٣٩٧هـ، ج٢،

ص٣٤٦).

كل ما سبق يدل علىٰ أن التربية الإسلامية حرصت علىٰ ضمان حق الطفل في الحضانة حتىٰ يسلم من الضياع والحرمان والهلاك.

٤ـ التغذية:

«فإذا بلغ الطفل سن الفطام أصبح لزاماً علىٰ الأسرة وخاصة الوالدين الاهتمام بغذائه، فالغذاء عامل أساسي في نمو الإنسان، وتكامله فهو الذي يقوم عليه بناء الجسم، وتجديد خلاياه، وتزويده بالطاقة اللازمة له، كما يعمل الغذاء الجيد علىٰ تقوية المناعة الجسمية اللازمة لصحة الجسم» (القاضي، ١٤٢٣هـ، ص١٦١).

وقد رغبت الشريعة الإسلامية في الإنفاق علىٰ الأهل، بل جعلت ذلك أفضل النفقة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به علىٰ مسكين، ودينار أنفقته علىٰ أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته علىٰ أهلك» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٩٩٥، ص٢٣٧).

فالإنفاق علىٰ العيال أفضل النفقة، وهو يشمل الإنفاق علىٰ المأكل والمشرب والملبس، والتعليم والتداوي، وغيرها مما هم بحاجة إليه، ومن الأمور التي ينبغي أن تراعيها الأسرة في جانب التغذية تنوعها، والتوسط والاعتدال فيها، فلا تقتير ولا إسراف، كما أن عليها تعليمهم بعض العادات الصحية في الأكل والشرب.

٥ـ وقاية الأولاد من الأمراض:

إن الوقاية من الأمراض أمرٌ دعيت إليه التربية الإسلامية، ولهذا شرعت كثيراً من الأمور التي تؤدي إلىٰ ذلك ومنها:

أـ النظافة: وتكون في الجسم والمأكل والمشرب والملبس والآنية، فقد أُمِر المسلم بالوضوء، والغسل، وتعاهد شعره وأخذ الزائد منه، وكذلك قص أظافره، والعناية بفمه وأنفه من خلال المضمضة والاستنشاق، والختان، وغيرها من الأمور التي تحصل بها نظافة الجسم، وقد ورد في ذلك نصوص منها:

ما روته عائشة رضي الله عنها، قال: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقصّ الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء».

قال زكَرِياءُ: قال مصعب (وهما من رواة الحديث): ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة.

زاد قتيبة: قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء. (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٦١، ص٧٥).

ومن النصوص الواردة في نظافة الملبس والمأكل والمشرب والآنية: قول الله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ) [سورة الأعراف: ٣١].

وما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «نهىٰ النبي ﷺ عن الشرب من فيِّ السقاء» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٦٢٩، ص٧٩٧). وما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «طَهُور إناء أحدكم، إذا ولغ فيه الكلب، أن يغسله سبع مرات، أولاهن بالتراب» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢٧٩، ص٧٩). هذه النصوص

وغيرها تبين عناية الإسلام بأمر النظافة، وحرصه عليها، لما لها من أثر علىٰ صحة الفرد وسلامته، وبالتالي صحة وسلامة المجتمع بكامله، فعلىٰ الأسرة أن تحرص علىٰ نظافة أولادها في أجسامهم، وملبسهم، ومأكلهم، ومشربهم، وآنيتهم، والبيئة التي يعيشون فيها، حتىٰ يبقوا أصحاء، سالمين من الآفات والأمراض. كما وأنه يجب علىٰ الأسرة أن تعود أبناءها العادات السليمة في الأكل والشرب، والملبس، والنوم، ونظافة وترتيب الأمكنة التي يتواجدون فيها، وتبين لهم أهمية ذلك، حتىٰ يمارسوا هذه السلوكيات بقناعة واختيار.

ب- «الاهتمام بالتطعيم أو ما يسمىٰ باللقاح ضد الأمراض التي تصيب الطفل، مما يسبب له المشاكل الصحية المتعددة.

فقد كشف العلم الحديث العديد من اللقاحات التي تكسب الجسم مناعة ضد المرض الذي تعطىٰ من أجله، ومن هذه اللقاحات ما يعطىٰ عند سن معينة، وخاصة في الأشهر الأولىٰ من عمره» (القاضي، ١٤٢٣هـ، ص١٧١). فمتىٰ ما فعلت الأسرة ذلك استطاعت بإذن الله تعالىٰ تحصين أولادها ووقايتهم من العديد من الأمراض، كما أن عليها تجنيبهم مخالطة أصحاب الأمراض المعدية، لأن مخالطتهم سبب لانتقال تلك الأمراض إليهم، وقد نهىٰ الله تعالىٰ الإنسان عن الإلقاء بنفسه إلىٰ ما يهلكه، فقال تعالىٰ: (ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ) [سورة البقرة: ١٩٥]، كما نهىٰ النبي ﷺ عن ذلك بقوله: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٧٢٨، ص٨٠٩). وذلك لأن دخول الأرض الموبوءة يعرض الإنسان للإصابة بالوباء، وقد يهلك، والخروج منها قد ينقل ذلك الوباء إلىٰ غيرها.

كما أن علىٰ الأسرة معالجة المرضىٰ من أولادها، وقد حثت التربية الإسلامية علىٰ التداوي فقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٦٧٨، ص٨٠٤). وروىٰ ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة: في شَرْطة مَحْجَم، أو شربة عسل، أو كَيَّةٍ بنار، وأنهىٰ أمتي عن الكي». (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٥٦٨١، ص٨٠٤). والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة.

كما أنه يمكن معالجة الأولاد بالرقية الشرعية، من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وتدريبهم علىٰ ذلك، فقد رخص النبي ﷺ في الرقية، ورَقَىٰ غيره، ورُقِيَّ هو ﷺ. فعن أنس رضي الله عنه قال: «رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين، والحمة [١]، والنملة [٢]» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢١٩٦، ص٥٧٠)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحدٌ من أهله، نفث عليه بالمعوذات، فلما

---

(١) الحمة: «حُمَة العقرب، مخففة الميم: سَمُّها... ابن الأعرابي: يقال لِسَمِّ العقرب الحُمَّة والحُمَة» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١٢، ص١٥٩).

(٢) النَّمْلَة: «شيء في الجسد كالقَرْح وجمعها نَمْل، وقيل: النَّمْلُ والنَّملة قروح في الجنب وغيره» (ابن منظور، ١٤١٠هـ، ج١١، ص٦٨٠).

مرض مرضه الذي مات فيه، جعلت أنْفُثُ عليه وأمسحه بيد نفسه، لأنها كانت أعظم بركة من يدي، وفي رواية يحيىٰ بن أيوب: بمعوذات» (مسلم، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٢١٩٢، ص٥٦٩).

هذه بعض الخطوات التي يجب أن تقوم بها الأسرة للحفاظ علىٰ أولادها بعد ولادتهم، ثم إذا كبر الأولاد تَوَجَّب علىٰ الأسرة اتخاذ خطوات أخرىٰ تناسب مراحلهم العمرية، فإن دور الأسرة لا يتوقف عند مرحلة معينة من مراحل نمو الأولاد، بل يستمر مادامت الأسرة موجودة، ولمّا كانت تلك الخطوات يمكن أن تقوم بها الأسرة والمدرسة، فقد رأىٰ الباحث أن يوردها ضمن المحور التالي منعاً للتكرار.

ثانياً: خطوات مشتركة بين الأسرة والمدرسة لتربية النشء على حفظ النفس:

حين بلوغ الأطفال سن دخول المدرسة، تبدأ مرحلة جديدة من مراحل التربية تشترك فيه الأسرة والمدرسة وذلك من خلال عدة خطوات منها:

١- بيان أهمية النفس البشرية ومكانتها في الإسلام، ووجوب المحافظة عليها، وذلك من خلال منع الاعتداء علىٰ النفس، وعلىٰ الآخرين بالسب أو الشتم أو الضرب أو القتل، وبيان أن ذلك محرم في الإسلام، والاستدلال علىٰ ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة، وهي كثيرة منها:

قول الله تعالىٰ:(□ □ □ □ □ □ □) [سورة الأنعام: ١٥١].

وقول الرسول □: «اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٢٧٦٦، ص٣٧٤)، فهذه النصوص وأمثالها متىٰ ما عُرِضت علىٰ الناشئة بشكل جيد، وبُيِّنَتَ معانيها ومقاصدها، ووجه سلوكهم بناء علىٰ ذلك، امتنعوا عن القيام بأي أمر فيه الإضرار بالنفس، سواء كانت نفس الإنسان أو غيره.

٢- بيان العقوبة المترتبة علىٰ إزهاق النفس:

العقوبة المترتبة علىٰ الاعتداء علىٰ النفس عقوبتان:

أ- عقوبة دنيوية وهي القصاص، حيث بيَّن الله ذلك في كتابه الكريم في قوله تعالىٰ: (ے ے ۓ ۓ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ □ □ □ □ □ □ □ □) [سورة المائدة: ٤٥] فكتب الله القصاص بحسب الجناية، كل ذلك حماية للنفس وصيانة لها من أي عدوان سواء كان بقتل أو دونه، ولا يسقط ذلك إلا بعفو من ولي المقتول، أو قبول الدية.

ب- أما العقوبة في الآخرة فهي ما ذكره الله في كتابه الكريم في قوله تعالىٰ: (ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ) [سورة النساء: ٩٣]. هذه العقوبات في حق من قتل مؤمناً متعمداً، أما في حال القتل الخطأ، فإن في ذلك الدية، إلا أن يعفو صاحب الدم، ودور الأسرة والمدرسة هنا بيان هذه العقوبات الكبيرة، والتي ترتبت علىٰ جرم عظيم، قال عنه النبي □: «لن يزال المؤمن في فُسْحَة من دينه

ما لم يصب دماً حراماً» (البخاري، ١٤٢٥هـ، حديث رقم ٦٨٦٢، ص٩٤٥)، ومتىٰ ما بينت الأسرة والمدرسة ذلك، كان ذلك رادعاً قوياً يمنع الناشئة من الاعتداء علىٰ النفس البشرية، ويدعوهم إلىٰ صيانتها والحفاظ عليها.

٣ـ تصوير الاعتداء علىٰ النفس بصورة بشعة واستهجانه وتقبيحه، واستغلال الأحداث في ذلك، كحوادث السيارات التي سببها التهور والسرعة أو القيام ببعض الألعاب الخطرة كالتفحيط ونحوه، أو حوادث الإرهاب التي يروح ضحيتها العديد من الأبرياء، فاستغلال مثل هذه الأحداث لبيان فظاعة هذا الفعل، والآثار المترتبة عليه، من إزهاق أنفس بريئة، وترميل نساء، وتيتيم أطفال، وهدم أسر، وقلب حياتها من سرور إلىٰ حزن، ومن سعادة إلىٰ شقاء، كل ذلك يجعل الأبناء يبتعدون عن مقارفة هذا الفعل مدركين سوءه وسوء عاقبته.

٤ـ إشاعة روح العفو والصفح والتسامح داخل الأسرة والمدرسة:

فهذه جميعها صفات حميدة يجب تربية الناشئة عليها، وتستطيع الأسرة والمدرسة تحقيق ذلك حين يسود بين أفرادها جو من الحب والوئام، وتنتشر بينهم ثقافة العفو والتسامح، بحيث يعفو كل فرد عمن أساء إليه، أو قصر في حقه، أو ظلمه، يفعل كل ذلك امتثالاً لقول الله تعالىٰ: (ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ) [سورة فصلت: ٣٤] وقول الرسول فيما رواه عقبة بن عارم قال: «لقيت رسول الله يوماً فابتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال: يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» (الحاكم، ١٤١١هـ، ج٤، حديث رقم ٧٢٨٥، ص١٧٨). وحين تفعل الأسرة والمدرسة ذلك، تبيِّن للناشئة أنها إنما تفعل ذلك رغبة في الأجر والثواب من الله تعالىٰ، ولا تفعله ذلاً وجبناً وضعفاً، وإذا تربىٰ الناشئة علىٰ ذلك أصبحت تلك الصفات سجية وطبعاً وألِفوها وتعاملوا بها مع غيرهم، وتجنبوا الانتقام والانتصار للنفس الذي ربما أدىٰ إلىٰ إزهاق النفس أو إلحاق الضرر بها.

٥ـ المتابعة المستمرة لسلوك الأولاد:

المتابعة المستمرة للأولاد داخل الأسرة وفي المدرسة، وملاحظة سلوكهم وما يطرأ عليه من تغيُّر أمر بالغ الأهمية، ومتىٰ ما لاحظت الأسرة أو المدرسة تغيراً سلبياً، بحثت أسبابه، فربما نتج عن رفقاء السوء، أو عن الإعلام سواء المقروء منه أو المسموع أو المرئي، أو نتج عن تفكك الأسرة، أو التشاجر والصراع والخصومات داخلها، أو عن المجتمع الذي تسود بين أفراده ثقافة العنف وعدم التسامح والانتقام، أو عن المدرسة التي لا تراقب سلوك طلابها، ولا تتعامل مع قضايا العنف والانتقام بما تستحق، كل هذه عوامل قد تتسبب في انتشار ثقافة حب الانتقام والانتصار للنفس وعدم التسامح، وذلك قد يتسبب في أن يُضر الإنسان بنفسه أو بالآخرين.

ودور المدرسة والأسرة هنا، هو توجيه الأولاد إلىٰ السلوكيات الحميدة مثل: الصبر، والصفح، والعفو، وكظم الغيظ، وحب الناس، وتحذيرهم من السلوكيات السيئة: كالغضب، وحب الانتقام، والانتصار للنفس أو للقرابة أو للقبيلة، وتحذرهم أيضاً من المزاح الزائد، أو اللعب بالأشياء الخطرة مع بعضهم، وحين تقوم المدرسة والأسرة

بهذا الدور ينبغي أن تكون قدوة لأبنائها فيما تـأمر بـه وتنهـىٰ عنـه، إذا حصـل ذلك كـان من الأسباب المعينة علىٰ تجنب الاعتداء علىٰ النفس وإزهاقها بغير حق.

<u>٦ـ للمناهج دور بارز في الحدَّ من قضايا الاعتداء علىٰ النفس:</u>

وذلك متىٰ ما تضمنت المنـاهج موضـوعات تتحـدث عن أهميـة الـنفس البشـرية، وحرمة الاعتداء عليها، وكانت تلك الموضوعات بأسلوب سـهل مبسط يفهمـه التلاميذ، مـع تـدعيم ذلك بأدلـة كافيـة مـن الكتـاب والسـنة مشـروحة وموضـحة تزيـد مـن قناعـات الطلاب بما يتعلمـون حـول هـذه القضـية، ولا مـانع مـن أن تتضـمن الأنشـطة المصـاحبة للمنهج الدراسية بحوثاً يقوم بها التلاميذ حول القضايا التي تستجد في حياة النـاس ومنهـا قضـية الاعتداء علىٰ النفس، لأنه من خلال عمليـة البحث يصـل الطـالب إلـىٰ الحكم فـي مثل هذه القضية، وإلـىٰ العقوبـات المترتبـة علـىٰ الاعتـداء علـىٰ الـنفس، كـل ذلـك معـزز بالأدلـة مـن كتـاب الله عـز وجـل، وسـنة نبيـه ﷺ، وذلـك يجعـل الطـالب مطمئنـاً إلـىٰ مـا توصـل إليه مقتنع بـه، وذلـك كلـه يـؤدي إلـىٰ عزوفـه عـن الإضـرار بـالنفس سـواء كانـت نفسه أو نفس غيره.

<u>٧ـ ويبقـىٰ دور المعلـم، فـدوره رئـيس فـي تبصـير الشـباب بـأمور ديـنهم،</u> وحثهم علىٰ اتباع تعاليمه السمحة، التي يرشد إليها الكتاب والسنة، وبيان أن ديـنهم جـاء بحفـظ الضـرورات الخمـس ومنهـا الـنفس، يسـتطيع المعلـم القيـام بكـل ذلـك مـن خـلال الموضـوعات التـي يدرسـها لتلاميـذه، ومـن خـلال الأنشـطة التـي يمارسـها معهـم، ومـن خلال تـهذيب سلوكهم، وغـرس الصـفات الحميدة فيهم مثل: العفو، والتسـامح، والصـفح، والصـبر علـىٰ أذىٰ الآخـرين، ولـيكن المعلـم قـدوة لطلابـه فيمـا يـأمر بـه أو ينهـىٰ عنـه، وليكن محمد ﷺ قدوة الجميع.

كما أن علىٰ المعلم والأب توجيه الأبناء إلىٰ العودة لأهل العلم فـي المسـائل التـي تسـتجد ولا يسـتطيعون معرفـة الحكـم الشـرعي فيهـا، مثـل قضـايا الإرهـاب والعنـف وغيرها، وتحذيرهم من الاستعجال في إصدار الأحكام واتخاذ القرارات قبل العودة إلىٰ العلماء الربانيين، كما يحذرونهم من مصاحبة الأشرار الذين يهونون عليهم المعاصـي، ويـدعونهم إلـىٰ مقارفتهـا، ويغـررون بهـم حتـىٰ يوقعـونهم فـي أمـور عظيمـة كالسـرقة والقتل، وتعاطي المخدرات، وغيرها من الأعمال التي تلحق الضرر بهم وبالآخرين.

كمـا أن عليهمـا استغلال الأحـداث للتوجيـه والإرشـاد، فاستغلال الأحـداث أمـر معروف في التربية الإسلامية، فالرسول ﷺ كان يربي أصحابه بالأحداث، كما فعل مع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، والرماة في غزوة أحد ... وغيرها، كل ذلك يدل علـىٰ أهميـة استغلال الأحـداث فـي التربيـة، ويبيَّن أهمية دور المعلم، فلن تؤدي الأسرة والمدرسة دورهما بدون أب ومعلم يدركان شرف المهنة، وعظيم الأمانة التي يحملانها، ويؤديان الواجب بناء علىٰ ذلك.

المبحث الرابع

تطبيقات تربوية في بعض المضامين التربوية الإدارية المستنبطة من فتح مكة المكرمة

في الفصل الثاني من هذه الدراسة استنبط الباحث عدداً من المضامين التربوية الإدارية التي تضمنتها غزوة الفتح المباركة، وكانت تلك المضامين عبارة عن العمليات الإدارية الأساسية: (التخطيط، والتنظيم، والتوجيه، والرقابة)، وإذا كانت كل هذه العمليات هامة لنجاح الأعمال الفردية والجماعية، فإن التخطيط يُعَدُّ أهمها، لأنه لا يمكن ممارسة أي عملية من العمليات الثلاث الأخرىٰ ما لم يسبقها تخطيط، فالتخطيط أول الخطوات الإدارية، وعلىٰ ضوئه ترسم الخطط، وتوزع الأعمال، وتحدد المسؤوليات، وتمنح الصلاحيات، ويوجه الأفراد، ويتابعون لمعرفة ما حققوه من نجاح في أعمالهم، وما حصل من تقصير، ثم التخطيط من جديد لتلافي التقصير في المستقبل بعد معرفة الأسباب التي أدت إليه.

وإذا كان التخطيط بهذه الأهمية فقد رأىٰ الباحث أن يطبق في هذه العملية الإدارية الهامة، من خلال بيان دور كل من الأسرة والمدرسة في تربية الناشئة علىٰ التخطيط السليم لإدارة أعمالهم وتصريف شؤونهم، وذلك خلال الصفحات التالية.:

أولاً: دور الأسرة في تربية أبنائها على التخطيط:

للأسرة دور بارز في تربية أبناءها علىٰ التخطيط لكل أمر ذي بال يريدون القيام به، ويمكن تحقيق ذلك الدور من خلال ما يلي:

١- بيان أهمية التخطيط في حياة الفرد والجماعة:

يمكن للأسرة بيان أهمية التخطيط من خلال ممارسته فيما تنوي القيام به من أعمال، وفي كل أمر هام في حياتها، ومتىٰ ما لاحظ الأولاد اهتمام الأسرة بعملية التخطيط ولاحظوا أيضاً نجاح الأعمال التي تخطط لها الأسرة، أدركوا أهميته، وحاولوا ممارسته في حياتهم، كما يمكن بيان أهميته من خلال حوار يشارك فيه الأولاد يتعرفوا من خلاله معنىٰ التخطيط، وكيفية ممارسته، وفوائده، وجميل أن تستشهد الأسرة ببعض الأحداث من حياة الرسول ﷺ، والتي مارس فيها التخطيط بشكل سليم، وحقق الأهداف المرجوة، كتخطيطه ﷺ لدعوته، ولهجرته، ولبناء دولة الإسلام في المدينة، ولغزواته، إلىٰ غير ذلك من الأمور التي تبين أهمية التخطيط وتنمي الرغبة لدىٰ الأولاد في ممارسته.

٢- التدريب العملي علىٰ التخطيط:

وذلك بأن تقوم الأسرة بإشراك أولادها فيما تخطط له، كأن تسمح لهم بالتخطيط لنزهة تنوي القيام بها، ويتابع الأبوان أو أحدهما ما قام به الأولاد، ويشيدان بذلك،

ويُعَدِّلان ما تدعو الحاجة إلىٰ تعديله، مع بيان سبب ذلك، حتىٰ يراعي الأولاد ذلك مستقبلاً، وتستمر عملية التدريب، كأن يخطط الأولاد لقضاء إجازة نهاية الأسبوع أو نهاية فصل دراسي، والأهم من ذلك التخطيط ليومهم الدراسي، حتىٰ يعتادوا علىٰ التخطيط، ويصبح أمراً مألوفاً في حياتهم.

٣- <u>بيان الفوائد المترتبة علىٰ التخطيط السليم:</u>

من الضروري أن تبين الأسرة للأولاد فوائد التخطيط، ومن أهمها معرفة الفرد للعمل الذي يريد القيام به، والحفاظ علىٰ الوقت والجهد، ومعرفة نواحي القوة وتعزيزها، ونواحي الضعف وتلافيها، ومن فوائده البعد عن التخبط والعشوائية، أو السير في الحياة بلا هدف؛ لأن الشخص الذي لا يخطط تكون أهدافه غير واضحة، وإذا كانت واضحة فقد لا يستطيع تحقيقها، وإن تحقق منها شيء فقد يكون دون المطلوب بكثير، ومتىٰ ما اتضحت هذه الفوائد للأولاد أدركوا أهمية التخطيط وحرصوا علىٰ ممارسته في كل أمر يحتاج إلىٰ تخطيط.

٤- <u>إيضاح الآثار السلبية المترتبة علىٰ إهمال التخطيط:</u>

وذلك لأن إهمال التخطيط له آثار سلبية، يعاني منها الفرد والمجتمع، ولعل من أبرز هذه السلبيات:

أ- ضياع الوقت والجهد، فعدم التخطيط يجعل الإنسان يُضَيعَ جهداً ووقتاً أثناء تنفيذه لأعماله، لأنه لا يسير في ذلك وفق خطط منظمة، يتبع بعضها بعضاً، بل ينفذ أعماله بتخبط وعشوائية تذهب بكثير من وقته وجهده، وقد يضطر إلىٰ التراجع عما أراد القيام به إذا رأىٰ عدم تمكُّنه من إنجازه، أو أنه أنجزه بشكل غير مرضٍ.

ب- عدم تحقق الأهداف المرجوة بالشكل المطلوب، إما لعدم وضوحها، أو لافتقادها إلىٰ خطة واضحة عند التنفيذ، وهذا يؤدي إلىٰ عدم تحققها بالكلية، أو تحققها بشكل جزئي، وأقل من المراد بكثير، أو تحققها ولكن في وقت وجهد وتكلفة أكثر بكثير مما لو خطط لتحقيق تلك الأهداف سلفاً.

ج- الإضرار بجوانب التنمية المختلفة: وذلك لأن عدم التخطيط لا يضر بالفرد وحده، وإنما يضر بالمجتمع بأكمله، لأنه إذا سار الناس في أمورهم بدون تخطيط صَعُبَ عليهم تحقيق أهداف التنمية في مجتمعهم، وبالتالي يحدث القصور في جوانب التنمية المختلفة، وما تعانيه المجتمعات المتخلفة له أسباب عدة من أهمها عدم وجود خطط مستقبلية دقيقة، وإن وُجِدَت فقد يكون هناك قصور في الجوانب الأخرىٰ من تنفيذ، ومتابعة، وتوجيه وغيرها.

هذه أبرز السلبيات التي تترتب علىٰ عدم التخطيط، أو عدم دقته، ومتىٰ ما بينت الأسرة لأبنائها هذه الأمور، وعَوَّدَتْهم علىٰ التخطيط السليم، وكانت قدوة لهم في ذلك حرص الأبناء علىٰ أن يمارسوا التخطيط في حياتهم، وابتعدوا عن التخبط والعشوائية.

هذه بعض الخطوات التي يمكن أن تساهم بها الأسرة في تربية أبنائها علىٰ التخطيط، وحين يبلغ الأطفال سن المدرسة ويلتحقون بها وجب علىٰ المدرسة إكمال دور الأسرة في هذا الجانب، وفي المحور التالي سيورد الباحث بعض الخطوات التي يرىٰ أنها قد تعين المدرسة علىٰ القيام بدورها في تربية الناشئة علىٰ هذه العملية

الإدارية الهامة.

ثانياً: دور المدرسة في تربية طلابها على التخطيط:

دور المدرسة مكمل لدور الأسرة، وذلك لأن الطفل سينتقل إلىٰ بيئة أكثر تنظيماً وانضباطاً، وأكثر دقة في ممارسة أعمالها، والتخطيط عملية رئيسية تمارسها المدرسة باستمرار، لذلك فإن المدرسة أقدر علىٰ تربية طلابها علىٰ هذه العملية، ويمكنها القيام بذلك من خلال عدة خطوات منها:

١- زيادة وعي التلاميذ بأهمية التخطيط:

ويمكن أن يحدث ذلك من خلال ممارسة المدرسة لهذه العملية، بحيث يشعر الطالب أن كل شيء في المدرسة يسير وفق تخطيط مسبق، فحين يحضر إلىٰ المدرسة في أول يوم دراسي يلاحظ انتظام العمل وانسجامه وخلوه من كل ما يشعر بالارتجال والعشوائية وعدم التخطيط، كل ذلك يجعل الطالب يُحسُّ بأن الأمور مرتبة مسبقاً، إذ لا يمكن أن يسير العمل بانضباط وانتظام من خلال خطوات سريعة وليدة الساعة.

وكذلك من خلال عمل المعلم داخل فصله، بحيث يؤدي عمله بطريقة منظمة، يشعر الطالب من خلالها بأن هذا الأمر مخطط له مسبقاً، وبذلك يكون المعلم قدوة لتلاميذه في ذلك، كما أن عليه إشعارهم بأهمية التخطيط وتدريبهم عليه فيما يمارسون من أعمال أو أنشطة مصاحبة للمادة، ثم يراجع معهم الخطط ليتعرفوا علىٰ مدىٰ نجاحها، ويعالجوا سوياً نواحي الضعف فيها، مع مراعاة التدرج في ذلك حسب مراحل نموهم العمري والمعرفي.

وخلاصة القول في هذا الأمر أن يكون كل من في المدرسة قدوة للطلاب في عملية التخطيط.

٢- التدريب العملي علىٰ التخطيط:

وذلك بإعطاء الطلاب الفرصة للمشاركة في التخطيط لبعض الأعمال التي تتم داخل المدرسة، كأن يقوم الطلاب بالتخطيط للأعمال اليومية أو الأسبوعية التي يُطلَب منهم القيام بها داخل المدرسة، أو التخطيط لزيارة أمكنة، أو جهات حكومية، أو رحلة مدرسية، أو أنشطة، أو خلافها، وتشرف المدرسة علىٰ تلك الخطط، وتتابعها، وتجري عليها بعض التعديلات عند الضرورة، مع إشعار التلاميذ بأسباب التعديل، ثم تراقب وتوجه أثناء التنفيذ، وبعدها تتم عملية تقييم لمعرفة مدىٰ نجاح الخطط، وأسباب الإخفاق لو حصل، لتلافي ذلك في الخطط المستقبلية، مع استمرار التدريب حتىٰ يصبح التخطيط أمراً مألوفاً لدىٰ الطلاب يقومون به قبل البدء في تنفيذ أعمالهم وأنشطتهم داخل المدرسة وخارجها.

٣- إشعار التلاميذ بأن التخطيط أمر أرشد إليه الإسلام وحث عليه، فقد أرشد الله نوحاً عليه السلام إلىٰ صنع السفينة حين أ راد سبحانه إهلاك قومه بالغرق، وأرشد يوسف عليه السلام إلىٰ تخطيط اقتصادي جميل في تعبيره لرؤيا عزيز مصر، كما أرشد موسىٰ عليه السلام ومن معه من المؤمنين إلى سبيل النجاة من فرعون

وجنده، وأهلك الله فرعون وجنده، فعلىٰ المدرسة أن تبيِّن هذا الأمر وتوضحه لطلابها، كما تدعم ذلك بذكر بعض الأمور التي خطط لها الرسول ، كدعوته، وهجرته، وتنظيم شؤون دولة الإسلام في المدينة، وتخطيطه لنشر دين الله في الأرض، بدعوة الخاصة والعامة من الناس، والمراسلات، والجهاد في سبيل الله، كل ذلك كان يسير وفق تخطيط دقيق، جاءت ثماره يانعة، حين دخل الناس في دين الله أفواجاً، وفعل ذلك أصحابه رضي الله عنهم وأمراء الدولة الإسلامية من بعدهم وهي عملية تمارس في سائر المجتمعات على اختلاف في دقة التخطيط وتنفيذه، هذه أمور متىٰ اتضحت للطلاب كانوا أ كثر حرصاً علىٰ التخطيط لكل أمر ذي بال يريدون القيام به.

<u>٤- من المناسب لتربية الطلاب علىٰ التخطيط وإشعارهم بأهميته لفت أنظارهم إلىٰ ما وصل إليه العالم المتقدم من نجاح في مجالات متعددة</u>، كل ذلك كان بتخطيط دقيق وطويل الأمد، ومراجعة للخطط أثناء التنفيذ لمعالجة السلبيات، والوصول إلىٰ الأفضل دائماً، وأبرز مثال في ذلك ما وصلت إليه بعض الدول من تقدم في مجال التقنية، والتي يستخدمها العقلاء في كل مفيد، ويستخدمها غيرهم في تضييع الأوقات، ومشاهدة وسماع وقراءة وكتابة ما يضر، ويسيء إلىٰ أنفسهم وإلىٰ الناس، ومعظم هذه الممارسات تتم وللأسف الشديد في عالمنا العربي والإسلامي، أما من اخترعوا تلك التقنيات وأبدعوا في ذلك، فهم يستخدمونها فيما فيه نفعهم وتحقيق مصالحهم.

<u>٥- من المناسب أيضاً أن تتضمن المناهج مشاريع تطرح علىٰ التلاميذ</u>، وتترك لهم الفرصة للتخطيط لها، وتنفيذها، ودور المدرسة هنا هو المتابعة والتوجيه وتصحيح مسار الخطط إذا لزم الأمر، ومن المشروعات التي يمكن أن تطرح بعض المشاريع الاجتماعية الخدمية كالمشاركة في نشاطات مراكز الأحياء مثلاً من قبل عدد من طلاب المدرسة، بحيث يحددون هم نوعية المشاركة ووقتها وبرامجها وهكذا، أو مشروع إقامة حديقة داخل المدرسة، بحيث يختار الطلاب المكان، ويحددون طريقة تنظيميه، ومحتويات الحديقة، وكيفية العناية بها والحفاظ عليها، ويمكن أن تطرح بعض المشاريع الأخرىٰ في جوانب توعوية أو دعوية أو غيرها من خلال المناهج، وتترك للتلاميذ عملية التخطيط والتنفيذ تحت إشراف المدرسة ومتابعتها، وهذا الأمر فيه تفجير لطاقات التلاميذ الكامنة، واستفادة منها، وتَعَرُّف علىٰ مواهب الطلاب وقدراتهم وتنميتها.

هذه خطوات عدة يرىٰ الباحث أن تعين المدرسة علىٰ القيام بدورها في تربية النشء علىٰ التخطيط.

وبهذا يختتم الباحث هذا الفصل، والذي أورد فيه بعض التطبيقات التربوية علىٰ عدد من المضامين التربوية التي استنبطها من أحداث فتح مكة المكرمة، وسينتقل بعد ذلك إلىٰ الفصل الرابع والذي سيتضمن بمشيئة الله تعالىٰ، خاتمة هذه الدراسة ونتائجها وتوصياتها.

الفصل الرابع

خاتمة الدراسة ونتائجها ومقترحاتها

- 🕮 أولاً: الخاتمـــــــــــــة.
- 🕮 ثانيـــاً: نتـــائج الدراســـة.
- 🕮 ثالثــاً: مقترحــات الدراســة.

أولاً: الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ من بعثه الله رحمة للعالمين، وحجة علىٰ الخلائق أجمعين، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين أما بعد:

فإن الباحث يحمد الله تعالىٰ حمداً كثيراً علىٰ ما من به عليه من البحث والدراسة في سيرة المصطفىٰ ، حيث عاش في ظلالها مدة من الزمن، ومع موضوع من أهم موضوعاتها، وحَدَث من أهم أحداثها، إنه غزوة فتح مكة المكرمة، ذلك الفتح المبارك الذي أعز الله به دينه وأظهره علىٰ الدين كله، ونصر نبيه وحزبه المؤمنين، وطهر به بيته وبلده الحرام من الشرك والأوثان، فعاد كما أراده الله مثابة للناس وأمنا، فلله الحمد والمنة والفضل علىٰ أن يسّر هذا الأمر وأتمّه علىٰ خير.

والباحث هنا يرغب في أن يقدم خلاصة لدراسته، يجمل فيها ما تضمنته من فصول ومباحث، لعله يُيَسِّر بذلك الاستفادة منها لمن احتاج إلىٰ ذلك.

تكونت هذه الدراسة من فصل تمهيدي اشتمل علىٰ الإطار العام للدراسة، تلاه ثلاثة فصول رئيسية، الفصل الأول وافْتُتِحَ بتمهيد استعرض فيه الباحث وباختصار عدداً من الأحداث التي سبقت فتح مكة، وكان لها أثر عليه، ومن تلك الأحداث: صلح الحديبية، وفتح خيبر، وعمرة القضاء، وغزوة مؤتة، ثم توالت مباحث الفصل، فكان المبحث الأول والذي اشتمل علىٰ تاريخ فتح مكة وأسبابه، ثم المبحث الثاني وتضمن أحداث فتح مكة، تلاه المبحث الثالث والذي استعرض فيه الباحث جهود الرسول في القضاء علىٰ بقايا الشرك في جزيرة العرب من خلال إرسال سراياه وبعوثه لتحقيق ذلك، أما المبحث الرابع فكان عن مدة بقاء النبي في مكة المكرمة، وما قام به خلال ذلك من أعمال، وما بينه من أحكام، وما أقام من حدود، وخُطِبه خلال تلك الفترة، وما نزل عليه من قرآن بخصوص هذا الفتح، وإسلام بعض زعماء قريش، ثم المبحث الخامس وتضمن أبرز نتائج فتح مكة.

أما الفصل الثاني فكان بعنوان المضامين التربوية المستنبطة من فتح مكة، ودرس فيه الباحث عدداً من تلك المضامين خلال أربعة مباحث: المبحث الأول واشتمل علىٰ بعض المضامين العقدية وهي التوحيد والولاء والبراء، وفي المبحث الثاني اشتمل على عددٍ من المضامين الأخلاقية وهي الصدق، والتواضع، والوفاء بالعهد، والعفو، أما المبحث الثالث فاشتمل علىٰ المضامين الاجتماعية التي استُنْبِطت من الغزوة وهي: حفظ الضروريات الخمس: (الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال)، والمساواة، وذلك بعد تعريف بالضروريات وأهميتها وتربيتها ، ثم المبحث الرابع والذي اشتمل علىٰ المضامين الإدارية، وكانت عبارة عن العمليات الإدارية الأساسية: (التخطيط، والتنظيم، والتوجيه، والرقابة).

وفي الفصل الثالث من هذه الدراسة قدَّم الباحث تطبيقات تربوية في بعض المضامين التي استنبطها من الغزوة، حيث كان التطبيق في المضمونين العقديين التوحيد، والولاء والبراء، وفي مضمونين من المضامين الأخلاقية وهي: الوفاء بالعهد،

والصدق، وفي مضمون اجتماعي وهو حفظ النفس، ومضمون إداري وهو التخطيط، واكتفىٰ الباحث بذلك في جانب التطبيقات التربوية، خشية الإطالة، والتزاماً بخطة بحثه.

هذه خلاصة لما اشتملت عليه هذه الدراسة، التي بذل الباحث فيها وسعه للوصول بها إلىٰ ما يرضي الله أولاً، وإلىٰ ما يحقق فائدة ونفعاً له ولإخوانه المسلمين ثانياً، ولا يدعي الباحث كمالاً لأن الكمال صفة لله تعالىٰ، والنقص صفة ملازمة للبشر، ولكن حسبه أنه اجتهد، فما كان من توفيق وسداد فمن الله تعالىٰ، وما كان من خلل أو تقصير فمن النفس ومن الشيطان، أعاذ الله الجميع من شرهما.

وبعد هذه الخاتمة سيذكر الباحث عدداً من النتائج التي توصل إليها من خلال هذه الدراسة، وذلك ضمن المحور التالي:

ثانياً: نتائج الدراسة:

١- كان فتح مكة المكرمة فتحاً عظيماً علىٰ الإسلام والمسلمين حيث قضىٰ علىٰ الوثنية في بلد الله الحرام، وطُهرت قبلة المسلمين من الرجس والأوثان، ومن كل معلم من معالم الشرك، وانتشر التوحيد وأرسيت دعائمه وأركانه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فنعِمُوا بنعمة الإسلام، وذاقوا حلاوة الإيمان، وانضموا إلىٰ جند الله وكتائب التوحيد.

٢- قُضِيَ بهذا الفتح المبارك علىٰ الكيان السياسي الوثني في مكة المكرمة بما كان يحمله من ظلم واستعباد وقهر وتسلط وعنصرية، وحل محله الحكم الإسلامي بعدله وسماحته وصفائه وصلاحه لمعاش الناس ومعادهم.

٣- كان هذا الفتح مرحلة جديدة في سير الدعوة الإسلامية، تفاضل فيه الناس في أعمال البر، فكانت الهجرة، والإنفاق، والجهاد قبل الفتح أفضل منها بعد الفتح، وانقطعت الهجرة الفاضلة، وإن كانت الهجرة من بلاد الشرك إلىٰ بلاد الإسلام باقية إلىٰ يوم القيامة.

٤- كما كان فتح مكة مرحلة جديدة في الجهاد الإسلامي، حيث انتهت قوة قريش التي ناصبت الدعوة العداء أكثر من عشرين عاماً، وانضوت قواتها تحت راية الإسلام بعد أن دخلت فيه، وانتقلت قوة معسكر الشرك وقيادة مشركي العرب إلىٰ هوازن وثقيف، والتي هزمت بعد ذلك في حنين وما بعدها، وتوافدت قبائل العرب التي لم تسلم بَعْدُ لإعلان إسلامها، وبهذا انتقل الجهاد الإسلامي إلىٰ خارج جزيرة العرب، لإيصال دين الله تعالىٰ إلىٰ الناس كافة، فكانت غزوة تبوك في زمن النبي ﷺ، وبعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلىٰ فلسطين، والذي لم يتم خروجه إلا بعد وفاة الرسول ﷺ، كما أرسل رسول الله ﷺ إلى الملوك والزعماء خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلىٰ الإسلام، كان هذا بمثابة إعلان عالمية الدعوة الإسلامية، وفهم أصحاب النبي ﷺ هذا الأمر فخرجوا في أرض الله، مجاهدين في سبيله، لنشر دينه وإعلاء كلمته.

٥- اشتملت غزوة فتح مكة المكرمة علىٰ مضامين تربوية في الجانب العقدي منها: التوحيد، والولاء والبراء، وفي الجانب الأخلاقي ومنها: الصدق، والتواضع،

والوفاء بالعهد، والعفو، وفي الجانب الاجتماعي كحفظ الضرورات الخمس، والمساواة، وفي الجانب الإداري، وتمثلت في العمليات الإدارية الأساسية: (التخطيط، والتنظيم، والتوجيه، والرقابة).

٦- اتضح من خلال ذلك أن جميع تلك المضامين واقعية سهلة التطبيق في أرض الواقع؛ لأنها من دين الله تعالىٰ الذي تعبد به الناس، والله تعالىٰ لا يتعبد الناس إلا بما يطيقون.

٧- المتتبع لأحداث هذه الغزوة المباركة يلحظ التربية الفريدة التي كان يربي عليها النبي □ أصحابه رضي الله عنهم والأمة جمعاء، حيث اتبع في ذلك وسائل وأساليب متعددة منها: التربية بالأحداث، وبالقدوة، وبالتغريب والترهيب، وبالوعظ المباشر وغيرها من أساليب التربية الإسلامية في إصلاح الفرد والجماعة.

٨- والمتتبع أيضاً لأحداث هذه الغزوة يرىٰ أن النبي □ كان مثالاً للقائد الإداري الناجح، الذي يدير أموره ويصرفها بحكمة واتزان، يخطط وينظم، وينفذ بكل دقة، ويوجه، ويراقب، ويربي أصحابه رضي الله عنهم علىٰ ذلك؛ ليكونوا قادة من بعده، يقودون الأمة بقوة محكمة واقتدار، سائرين في ذلك علىٰ نهج الرسول □ وهديه، وهذا ما حدث بالفعل، فقد بلغت الأمة في زمن خلفائه الراشدين رضي الله عنهم وقادة الأمة الإسلامية في عصور مجدها وعزها شأناً عظيماً، كان ذلك كله نتاج تلك التربية النبوية المباركة، وما ضعفت الأمة وهانت وذلت إلا حين ابتعدت عن هدي الكتاب والسنة، وعن تَرَسُّم هدي المصطفىٰ □.

٩- يمكن أن تفيد من هذه الدراسة الأسرة والمدرسة، وذلك بالاستعانة مما تضمنته من توجيهات في حقل التطبيقات التربوية، لتربية النشء على ما اشتملت عليه أحداث فتح مكة المكرمة من مضامين تربوية.

هذه أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذه الدراسة، كما خرج ببعض التوصيات، والتي سيبينها في المحور التالي.

ثالثاً: مقترحات الدراسة:

من خلال فصول الدراسة ونتائجها يمكن للباحث أن يخرج بعدد من التوصيات أهمها ما يلي:

١- أن تعود الأمة إلىٰ كتاب ربها عز وجل، وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم وسيرته، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، ودراستها لاستخلاص ما فيها من شرائع ومبادئ وقيم ومثل عليا، والاستفادة من ذلك كله في تربية الأمة وفق منهج الله تعالىٰ، الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يُصْلِح حاله في دنياه وأخراه.

٢- العناية بسيرة الرسول □ دراسة وفهماً وتحليلاً؛ لأنها التطبيق العملي لما ورد في الكتاب والسنة، والمتتبع لأحداثها يجد فيها ما يحتاج إليه في جميع شؤونه، ولا غرابة في ذلك، فقد عَلَّم الرسول □ أمته كل شيء حتىٰ آداب قضاء الحاجة، والنصوص الواردة في ذلك كثيرة، فهل يحتاج المسلم لغير سنة الرسول □ وهديه؟!

٣- أن يعاد النظر في تدريس السيرة النبوية، بحيث يتم البعد عن السرد

التاريخي لها، وتدرس بطريقة تحليلية، تستنبط ما تحويه من دروس تربوية، يفيد منها شباب الأمة في حياتهم، يتعلمون من خلالها جميل الأقوال الأفعال والأخلاق والعادات، ويتجنبون سيئها.

٤- الاستفادة من التقنية الحديثة لعرض سيرة الرسول بطريقة شيقة، تَظْهَر من خلالها صورة الإسلام المشرقة المضيئة، ويُدْفَع من خلال ذلك ما يثار حول الإسلام، ونبي الإسلام محمد ، من شُبَهٍ وأكاذيب وأقاويل أبعد ما تكون عن الحقيقة، وهذا أمر في غاية الأهمية؛ نظراً لم تتعرض له صورة الإسلام ونبيه من حملات مغرضة هدفها تشويه الإسلام، وصد الناس عنه.

٥- يوصي الباحث بإجراء دراسات ميدانية لمعرفة مدىٰ تطبيق الأسرة والمدرسة للمضامين التربوية المستنبطة من بعض أحداث سيرة الرسول ، كغزواته وهجرته وغيرها.

٦- من الأمور التي تضمنتها الغزوة (تعظيم البلد الحرام) وقد تردد الباحث في دراسته، ثم عدل عن الكتابة في هذا الموضوع خشية عدم استيفائه حقه من الدراسة، لذلك فهو يوصي بأن يفرد له دراسة مستقلة، تتناوله من خلال آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة والسيرة، فقد ورد فيها جميعاً نصوص كثيرة على وجوب تعظيم البلد الحرام وصونه من الظلم والإفساد.

هذه بعض التوصيات التي يوصي بها الباحث في ختام هذه الدراسة، سائلاً الله العون والتوفيق للجميع. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصـــادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- القرآن الكريم.
٢- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد، **مصنف ابن أبي شيبة**، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٠٩هـ.
٣- ابن الأثير، مجد الدين بن محمد، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د. ت).
٤- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي، **زاد المسير في علم التفسير**، حققه محمد عبدالرحمن، وخرج أحاديثه السعيد بن بسيوني، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ.
٥- ابن حجر، أحمد بن علي، **فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري**، تقديم وتحقيق وتعليق عبدالقادر شيبة الحمد، ١٤٢١هـ.
٦- ابن حجر، أحمد بن علي، **فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ.
٧- ابن حنبل، أحمد، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مصر، (د.ت).
٨- ابن حيان، محمد بن حيان، **صحيح ابن حيان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ.
٩- ابن سعد، محمد، **الطبقات الكبرىٰ**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ.
١٠- ابن كثير، إسماعيل، **البداية والنهاية**، حققه ودقق أصوله أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ.
١١- ابن كثير، إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، اعتنىٰ به وضبطه محمد أنس الخن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ.
١٢- ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ.
١٣- ابن هشام، عبدالملك، **السيرة النبوية**، تعليق وتخريج عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ.
١٤- أبو داود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، (د. ت).
١٥- الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د. ت).

١٦- أنيس، إبراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط**، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، ط٢، (د . ت).
١٧- البخاري، محمد بن إسماعيل، **الأدب المفرد**، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٩هـ.
١٨- البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، اعتنىٰ به عبدالسلام بن محمد عمر، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٢٥هـ.
١٩- البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو، **مسند البزار**، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ.
٢٠- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، **سنن البيهقي الكبرىٰ**، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، السعودية، ١٤١٤هـ.
٢١- البيهقي، أحمد بن حسين، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، تحقيق وتدقيق وتعليق عبدالعاطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ.
٢٢- الترمذي، أبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ، **سنن الترمذي**، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ.
٢٣- الحاكم، محمد بن عبدالله، **المستدرك علىٰ الصحيحين**، تحقيق مصطفىٰ عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ.
٢٤- الحموي، ياقوت بن عبدالله، **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ.
٢٥- الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير**، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٨٣هـ.
٢٦- الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الطبري**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١١هـ.
٢٧- الطبري، محمد بن جرير، **تفسير الطبري**، هذبه وحققه بشار عواد، وعصام فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.
٢٨- القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، (د . ت).
٢٩- قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٥، ١٣٨٦هـ.
٣٠- مسلم، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٢٢هـ.
٣١- النسائي، أحمد بن شعيب، **سنن النسائي**، دار الريان للتراث، مصر، (د. ت).
٣٢- الهيثمي، علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٢هـ.
٣٣- الواقدي، محمد بن عمر، **كتاب المغازي**، تحقيق مارسون جونس، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٤هـ.

ثانياً: المراجع:

٣٤- ابن أبي العز، علي بن علي بن محمد، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق وتخريج بشير محمد عيون، مكتبة دار لبنان، دمشق، سوريا، ١٤٠٥هـ.
٣٥- ابن القيم (ب)، محمد بن أبي بكر، **تحفة المودود بأحكام المولود**، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (د. ت).
٣٦- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢٥، ١٤١٢هـ.
٣٧- ابن القيم(أ)، محمد بن أبي بكر، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، مراجعة لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ت).
٣٨- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **الروح**، حقق وقدم له وعلّق علىٰ حواشيه محمد إسكندر يلدا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ.
٣٩- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **الفوائد**، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأخيرة، ١٤٠٨هـ.
٤٠- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، **العبودية**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ.
٤١- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، راجعه أحمد حمدي إمام، دار المدني، جدة، السعودية، (د. ت).
٤٢- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، **مجموع الفتاوىٰ**، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد العاصي، دار الغربية، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ.
٤٣- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم،**اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق ناصر عبدالكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط٨، ١٤٢١هـ.
٤٤- ابن دهيش، خالد بن عبدالله وآخرون، **الإدارة والتخطيط التربوي (أسس نظرية وتطبيقات عملية)**، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤٢٧هـ.
٤٥- ابن رجب، عبدالرحمن بن شهاب الدين، **جامع العلوم والحكم**، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢٤هـ.
٤٦- ابن سحمان، سليمان، **إرشاد الطالب إلىٰ أهم المطالب**، مطبعة المنار، مصر، ١٣٤٠هـ.
٤٧- ابن عاشور، محمد الطاهر، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، ١٤٢١هـ.
٤٨- ابن عثيمين، محمد بن صالح، **القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد**، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط٢، ١٤٢٤هـ.
٤٩- أبو سن، أحمد إبراهيم، **الإدارة في الإسلام**، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط٦، ١٩٩٦م.
٥٠- أبو شهبة، محمد محمد، **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**، دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ.

٥١- آل الشيخ، سليمان بن عبدالله، **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٥، ١٤٠٢هـ.

٥٢- آل عابد، محمد بن بكر، **حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ**، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢١هـ.

٥٣- الباشا، عبدالرحمن رأفت، **صور من حياة التابعين**، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، مصر، ط١٥، ١٤١٨هـ.

٥٤- باشميل، محمد أحمد، **فتح مكة**، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٤هـ.

٥٥- البريكان، إبراهيم بن محمد، **المدخل لدراسة العقيدة علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة**، دار ابن القيم، الدمام، السعودية، ودار ابن عثمان، القاهرة، مصر، ١٤٢٣هـ.

٥٦- البغدادي، أحمد بن علي، **تاريخ بغداد**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ت).

٥٧- البكري، عبدالله بن عبدالعزيز، **معجم ما استعجم**، تحقيق وضبط مصطفىٰ السقا، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ.

٥٨- البنا، أحمد عبدالرحمن، **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط١، ٢، (د. ت).

٥٩- البوطي، محمد سعيد، **الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإسلامية**، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، سوريا، ١٤٠٤هـ.

٦٠- البوطي، محمد سعيد، **فقه السيرة**، دار المعارف، مصر، ط٨، ١٤١١هـ.

٦١- توفيق، حسن أحمد، **الإدارة العامة**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، ١٤٠٠هـ.

٦٢- جابر، جابر عبدالحميد، وكاظم، أحمد خيري، **مناهج البحث في التربية و علم النفس**، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٨م.

٦٣- الجبرين، عبدالله بن عبدالعزيز، **تسهيل العقيدة الإسلامية**، دار الصميعي، الرياض، السعودية، ١٤٢٣هـ.

٦٤- الجرجاني، علي بن محمد، **مختصر كتاب التعريفات**، اختصره وراجعه قسم البحث العلمي بدار طويق للنشر والتوزيع، دار طويق، الرياض، السعودية، ١٤١٥هـ.

٦٥- الجزائري، أبو بكر جابر، **عقيدة المؤمن**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، ط٦، ١٤٢٤هـ.

٦٦- جوهري، محمد ربيع، **أخلاقنا**، مكتبة دار الفجر الإسلامية، المدينة المنورة، ط٧، ١٤٢٥هـ.

٦٧- الحازمي، خالد بن حامد، **الفوائد السُّنيَّة من السيرة النبوية**، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٢٧هـ.

٦٨- الحقيل، سليمان بن عبدالرحمن، **الإدارة المدرسة وتعبئة قواها البشرية في المملكة العربية السعودية**، ط٧، ١٤١٧هـ.

٦٩- الحلبي، محمد علي السالم، **مبدأ المساواة في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي**، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، ودار الثقافة للنشر و التوزيع، عمَّان، الأردن، ٢٠٠٢م.
٧٠- الحلو، ماجد راغب، **الإدارة العامة**، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٣م.
٧١- الحميدي، عبدالعزيز بن عبدالله، **التاريخ الإسلامي: مواقف وعبر**، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ودار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، السعودية، ١٤١٨هـ.
٧٢- الحوفي، أحمد محمد، **من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم**، دار نهضة مصر للطبع والنشر (د.ت).
٧٣- خلاف، عبدالوهاب بن عبدالواحد، **علم أصول الفقه**، دار العلم، الكويت، ط١٢، ١٣٩٨هـ.
٧٤- خليل، رشاد حسن، **مفهوم المساواة في الإسلام**، دار الرشيد للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، (د. ت).
٧٥- دراز، محمد عبدالله، **الدين**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر (د . ت).
٧٦- درويش، عبدالكريم، وتكلا، ليلىٰ ، **أصول الإدارة العامة**، الأنجلو المصرية، ١٩٩٢م.
٧٧- الذهبي، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق وتخريج شعيب الأرونؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١١، ١٤١٧هـ.
٧٨- الزرقاني، محمد عبدالعظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، حققه واعتنىٰ به فؤاد أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٩هـ.
٧٩- الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١١، ١٩٩٥م.
٨٠- زهران، حامد عبدالسلام، **علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة)**، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
٨١- الزهيري، ستَّار جبَّار، **جهاد الرسول المصطفىٰ والسلام العالمي**، دار الأثر، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ.
٨٢- سابق، سيد، **فقه السنة**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٣٩٧هـ.
٨٣- السمرقندي، نصر بن محمد، **تنبيه الغافلين**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ.
٨٤- سندي، عبدالعزيز محمد، **الإحكام في حقوق الإنسان في الإسلام**، المؤلف، مكة المكرمة، السعودية، ١٤٢٦هـ.
٨٥- الشاطبي، إبراهيم بن موسىٰ، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق محمد عبدالقادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ.
٨٦- الصديقي، محمد بن علان، **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ١٤٠٧هـ.
٨٧- الصلابي، علي محمد، **السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث**، دار اليقين، المنصورة، مصر، ودار القبلتين، الرياض، السعودية، ١٤٢٥هـ.

٨٨- صليبيا، جميل، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
٨٩- الضحيان، عبدالرحمن إبراهيم، **الإدارة والحكم في الإسلام الفكر والتطبيق**، المؤلف، المدينة المنورة، السعودية، ط٤، ١٤١٨هـ.
٩٠- طبارة، عفيف عبدالفتاح، **روح الدين الإسلامي**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٢٧، ١٩٨٨م.
٩١- طعيمة، صابر، **ما يقال حول المرأة بين الإفراط والتفريط**، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ.
٩٢- العالم، يوسف حامد، **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، المعهد العالي للفكر الإسلامي، خرجينيا، ط٢، ١٤١٥هـ.
٩٣- عبدالباقي، زيدان، **الأسرة والطفولة**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ١٤٠٠هـ.
٩٤- عبدالحميد، صلاح، وفاروق فدوىٰ ، **الإدارة و التخطيط التربوي**، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٢٢هـ.
٩٥- عبدالهادي، حمدي أمين، **الفكر الإداري الإسلامي المقارن**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ١٩٧٦م.
٩٦- العجوز، أحمد محيي الدين، **مناهج الشريعة الإسلامية**، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٧هـ.
٩٧- عرموش، أحمد راتب، **قيادة الرسول السياسية والفكرية**، دار النفائس، ١٤١٩هـ/١٩٨٩م.
٩٨- العزي، عبدالمنعم صالح، **تهذيب مدارج السالكين**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ.
٩٩- العظيم أبادي، محمد شمس الحق، **عون المعبود**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٥هـ.
١٠٠- علوان، عبدالله ناصح، **تربية الأولاد في الإسلام**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط٤١، ١٤٢٨هـ.
١٠١- عمارة، نجيب، **الأسرة المثلىٰ في ضوء القرآن والسنة**، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ١٤٠٠هـ.
١٠٢- الغزالي (أ)، محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، دار القلم، بيروت، لبنان، (د. ت).
١٠٣- الغزالي (ب)، محمد بن محمد، **المستصفىٰ في علم الأصول**، شركة المدينة المنورة، جدة، السعودية، (د. ت).
١٠٤- الغزالي، محمد بن محمد، **شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل**، تحقيق حمد الحَبيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، ١٣٩٠هـ.
١٠٥- الغنيمي، عبدالآخر حماد، **المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية**، دار الصحابة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ.
١٠٦- فرج، محمد، **العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط٣، ١٩٧٧م.

١٠٧- فريد، أحمد، **وقفات تربوية مع السيرة النبوية**، دار طيبة، الرياض، السعودية، ١٤١٤هـ.
١٠٨- فودة، حلمي محمد، وعبدالله، عبدالرحمن صالح، **المرشد في كتابة الأبحاث**، دار الشروق، جدة، السعودية، ط٦، ١٤١٢هـ.
١٠٩- الفوزان، صالح بن فوزان، **إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٣هـ.
١١٠- القحطاني، محمد بن سعيد، **الولاء والبراء في الإسلام**، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط٣، ١٤٠٩هـ.
١١١- قرعوش، كايد، وآخرون، **الأخلاق في الإسلام**، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٤، ١٤٢٦هـ.
١١٢- قطب، سيد، **المستقبل لهذا الدين**، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط٦، ١٤٠٣هـ.
١١٣- الكفوي، أيوب بن موسىٰ، **الكليات**، قابله علىٰ نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ.
١١٤- الماوردي، علي بن محمد، **الأحكام السلطانية**، القاهرة، مصر، ١٣٨٠هـ.
١١٥- المزجاجي، أحمد بن داود، **مقدمة في الإدارة الإسلامية**، الشركة الخليجية للطباعة والتغليف، جدة، السعودية، ١٤٢١هـ.
١١٦- المزي، يوسف بن الزكي عبدالرحمن ، **تهذيب الكمال**، تحقيق باشر عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ.
١١٧- المطيري، حزام بن ماطر، **الإدارة الإسلامية المنهج والممارسة**، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، السعودية، ١٤١٧هـ.
١١٨- الميداني، عبدالله حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، سوريا، ط٣، ١٤١٣هـ.
١١٩- النبراوي، خديجة، **موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام**، دار السلام، القاهرة، مصر، ١٤٢٧هـ.
١٢٠- الندوي، علي الحسني، **السيرة النبوية**، دار القلم، دمشق، سوريا، ط٢، ١٤٢٥هـ.
١٢١- الندوي، علي الحسني، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٠٤هـ.
١٢٢- الهاشمي، عبدالحميد، **علم النفس في التصور الإسلامي**، دراسة تقويمية إيجابية، مكة المكرمة، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٣هـ.
١٢٣- الوكيل، محمد السيد أحمد، **تأملات في سيرة الرسول ﷺ**، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤٠٨هـ.

ثالثاً: الرسائل العلمية:

١٢٤- أبو رزق، حليمة علي، **التربية العقلية عند ابن الجوزي**، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة لقسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، بمكة المكرمة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ.
١٢٥- البشري، عايش عطية، **خلق التواضع في التربية الإسلامية**، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة لقسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية بمكة المكرمة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.
١٢٦- الزيلعي، أحمد بن علي، **المضامين التربوية المستنبطة من سورة الفاتحة وتطبيقاتها التربوية**، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة لقسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية بمكة المكرمة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٥هـ.
١٢٧- السلمي، عبدربه بن نامي، **التربية الخلقية في الإسلام وتطبيقاتها التربوية**، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة لقسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، ١٤١٨هـ.
١٢٨- العمرو، صالح بن سليمان بن صالح، **مكانة الحواس من المعرفة في الإسلام وتحقيقها في المدرسة**، بحث مكمل لنيل درجة الدكتوراه في الأصول الإسلامية للتربية، مقدم لقسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية بمكة المكرمة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١١هـ.
١٢٩- القاضي، محمد عبدالدايم، **دور الأسرة المسلمة في تربية أولادها على حفظ الضروريات من مقاصد الشريعة**، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة لقسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية بمكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ.
١٣٠- المالكي، مسفر بن عيضة، ١٤٢٣هـ، **دور الأسرة المسلمة في تربية أولادها على صفات عباد الرحمن كما وردت في سورة الفرقان**، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة لقسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية بمكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ.

رابعاً: المجلات والدوريات:

١٣١- المزجاجي، أحمد بن داود، **التنظيم الإداري في الإسلام: مفهومه وخصائصه**، مجلة جامعة الملك سعود، كلية العلوم الإدارية، ١٤١١هـ.